



❖ إسلام البنّا ❖

الرواق للنشر والتوزيع



## إهداء

إلى سيدات صنعن مني كاتبًا... أذكركن بالأسماء لا بالصفات  
أميمة عبدالعزيز... ماجدة فهمي... نانسي صدقي  
تفانيكم وإيمانكم لا حدود له.



وَكَمْ ذَا بَمِصْرَ مِنَ الْمُضْجِكَاتِ      وَلَكِنَّهُ صَجِكُ كَالْبُكَاءِ

المتبي



## الفصل الأول





## (1)

يتذكر سعيد الرفاعي تلك الليلة جيداً، شتاء قارس، أوائل شهر طوبة سنة ١٩٧٧، وكما تقول أمه دائماً، "طوبة تخلي الصبية كركوبة"... لذا فقد كان سعيد يرقد تحت أكوام من الأغطية البالية اتقاء التحول إلى "كركوب" وهو لم يكمل عقده الثالث بعد.

بدا أن الصراخ يأتيه من جوف بشر سحيق... صوت بعيد لا يميز... أخذ الصوت يزداد قوة، يعث بطبلة أذنه. لكن ما أفاقه من غفوته في النهاية كانت قدم أخيه الصغير التي انغrust في بطنه بينما يحاول القفز من السرير الذي يجمع ثلاثة من الإخوة.

صرخ سعيد ألماً وغمغم ببعض اللعنات فيما خرج أخوه من الغرفة عدواً، كان الجو يحمل رطوبة الليل وقرصة الشتاء، الظلام يخيم على الغرفة الضيقة فيما يتسلل بصيص ضوء خافت من بين شقوق النافذة الخشبية المهترئة... لازال عقله حاملاً بين النوم واليقظة... لكنه سرعان

ما أدرك أن جميع من في الدار يهرولون نحو الصراخ والجلبة التي بدت واضحة الآن.

عاد أخوه الصغير إلى الغرفة واستل عصاً صغيرة فأمسك بيده قبل أن يخرج قاتلاً

في إبه؟

خرجت الكلمات ثقيلة من فم سعيد فقال أخوه بين أنفاسه اللاهثة

حرامية... عايزين يسرقوا الباب

أفلت سعيد ذراعه وألقى عليه جلبابه الشتوي.

في الخارج كانت طُرُقَات باب الحجازي مظلمة إلا من نور كlobات بعيدة أضاءها الأهالي ذاهبين بها إلى الباب، برغم الهواء الذي يزار بين الطرقات المنكشثة مترعداً الخارجين في تلك الساعة المتأخرة.

كلما مر سعيد في طريقه بجمع تبين له جزءٌ جديد من القصة القديمة... عندما وصل إلى الباب، كان الأهالي قد تجمعوا حوله كسرب من الزنابير الغاضبة... يحتمون من خوفهم بفقد الباب بالتمترس حوله... وبرغم وجود الشيخ عبد الكريم، شيخ الحضرة الذي يجله الجميع، تعالت الأصوات المستنكرة تتخللها فترات من السباب الجماعي... بينما الشيخ عبد الكريم صامت في وقاره الراسخ... يغم وجهه بسحابة عابرة كلما تعالي السباب.

خلف الجموع الغاضبة انتصب الباب شامخاً، كأنما يعلن عدم اكترائه لتلك الجلبة التي تُثار حوله. انتاب سعيد ذلك الشعور الذي يغشاه كلما نظر إلى الباب... شيء ما في تلك السطور التي تتوسطه... في تلك الحروف البارزة التي تنتمي إلى لغة غريبة لا يعرفها، يبعث في نفسه

شعور بالرهبة والسلام في آن معاً. يحرس ذلك الباب المهيب مقام سيدي الحجازي الذي يتربع خلفه، تعلوه قبة مخروطية شاهقة، تنتصب كأصبع ضخمة يخترق الأرض ليشير إلى السماء... يتصل بالضريح قاعة السماع الرثيثة، أو السمعيانة كما يسميها دراويش المقام.

ميز سعيد وجه أبيه بين الوجوه المكفهرة، لكن أباه لم يلتفت له... لم يكن غريباً أن يتوتر الجميع إلى هذا الحد عندما يتعلق الأمر بالباب الذي يعده أهل باب الحجازي، الواقعة في أحضان دلتا النيل، حلقة وصل بين عالمين، أحياناً يتقاربان فيكادتا يتلامسان وأحياناً تفصلهما مسافات لا متناهية... عالماً وعالم الغيب الذي لا يحيط به ولا يملك مفاتيحه سوى المولى عز وجل. ذلك العالم المقدس الحاضر في نبض باب الحجازي وأحاديثها... وما يتصل به من أمور القدر والرزق والعمر والبركة... وعوالم باطنية وراء عالم البشر تستثير الخيال، يتصورها فلاحو القرية عوالم سفلية مظلمة تعج بساكني الأرض من الجان الكافر والعمارة، حيث تروج تجارة السحر والأعمال على رؤوس شوارعها المدنسة... يأكلهم الرعب من احتمال أن يطل جن برأسه من فتحة قرن الخبز حيث النيران التي يشعر معها بالأنس أو أن يجد أحدهم عفريناً ما في المرحاض أو الزريبة.

يزودهم الباب والمقام بإحساس خاص يدمج واقعهم بذلك العالم المستور الذي يغلفه إطار من الرهبة والطمع في استراق لمحة منه... يأملون في فيض من كرم الله يهون عليهم شقاء العيش ويتعودون مما قد يحمله ذلك العالم من شرور... يتعلقون بالرحمة الإلهية العليا التي لا توازيها أي قوة من كل ما يكرهون... الرحمة التي تمثل مصدراً لا ينضب لتهدوين شظف العيش. لكن برغم الشقاء، إلا أن أهل باب الحجازي مؤمنون بالقدر، صبورون يقبلون بالأشياء كما هي... مما يحيل

الشقاء إلى عادة ما تلبث أن تضمحل في رتابة حياتهم اليومية ليحل الرضا بالنصيب وتحل معها الروح المرححة في حكاوي المساطب التي لا تخلو عادة من ذكر الباب.

سريعاً ما قرر الرجال، كالعادة، الذهاب في أثر الشرفمة التي أرادت سرقة الباب... تسلح البعض بالعصي والفؤوس وانقسموا مجموعات صغيرة، تحركت مجموعة نحو عزبة فؤاد خيري باشا، بينما ذهب وفد آخر نحو الغيطان في الحوض القبلي للقربة عند الترعة يحملون الكلوبات... ابصر سعيد أخاه الصغير يقبض على عصاه وينضم إلى جمع الرجال فنهره، لكنه لم يعره اهتماماً ومضى قدماً في البحث مع الجماهير الغاضبة.

تعمد سعيد أن يتعد عن الجمع الذاهب إلى الغيطان، حيث الترعة، مقبرة الليل والنهار، التي تحمل أبغض ذكرياته إلى نفسه... اتخذ طريقه مع الرجال نحو العزبة... تتدافع السيقات ليرتفع حفيفها في الجلايب... تنهل الأقدام من تراب المدقات الضيقة تنقي السقوط في جنح الظلام الساخر من ضوء الكلوبات. بعد نحو نصف ساعة من السير في صمت، أشار فلاح هزيل بصوت خفيض حذر بضرورة إخطار المركز كي تساهم الشرطة في تعقب هؤلاء الحثالة... وما كاد الرجل ينهي كلمته حتى نهره الرجال:

نقول للحاج سيد خطاب وهو يشوف الصالح يعمله

هكذا قال الأستاذ عبد الحميد، أحد المتعلمين القلائل في القرية، فأمن الجميع على كلامه.

كان ذكر اسم سيد خطاب كافياً لبعث مزيج من مشاعر الكراهية والحقن في نفس سعيد... لكن أجواء البحث على ضوء الكلوبات ذكّرت

..حادثته القديمة وبعثت في نفسه سبلاً من المرارة تغلبت على مشاعر الكراهية... حاول سعيد دفع تلك الذكريات الجاثمة على حياته وانهمك في البحث... كان يعلم في قرارة نفسه أنهم لن يجدوا للصوص أثراً...  
دما يعلم أن سيد خطاب لن يحرك ساكناً من أجل البحث عنهم. لعنه مجدداً في قرارة نفسه بينما انهمك الرجال حوله، متجاهلين تمامًا كما لو لم يكن معهم، في أحاديث جماعية عن المرة الأخيرة التي ذهبوا فيها في أثر الأشباح التي تحاول اقتناص الباب، وسرعان ما تشعبت الأحاديث إلى أصل الباب ذاته... وككل شيء يخص تاريخ القرية، فقد تنوعت حكاوي الرجال عن نشأة الباب ومصدره... قال أحدهم أن أهل القرية منذ زمن جدود الجدود استيقظوا ذات صباح ليجدوا ذلك الباب على دار مولانا الحجازي، الذي كان من أصحاب الخطوة - وهم قوم من أولياء الله الصالحين اختصهم الله بكرامة الخطوة فلا تحدهم المسافات، فيخطو العارف منهم بالله من داره فيقع في بيت الله الحرام - وصلتهم بعدها أنباء عن اختفاء باب الكعبة المشرفة

يا رجالة محدش سمع إن باب الكعبة اتأخذ... انتم بتصدقوا الكلام ده برضو

هكذا قال الأستاذ عبد الحميد علام في نفاذ صبر فأنبرئ صاحب الرواية في الدفاع عنها بتأكيد أن أهل الحل والعقد في بلاد الحجاز أرادوا التكم على الخبر فسارعوا بتركيب ذلك الباب الذهبي في مدخل الكعبة، إلا أن باب الكعبة الأصلي هو ذلك الباب الذي يحرس مقام سيدي الحجازي

أمال انتم فاكرينهم سموا سيدي الحجازي، حجازي ليه!

أوما البعض بالإيجاب بينما أكد آخر ييقن العارفين بيوطن الأمور أن

الباب أحد مخلفات القرائنة الموصول بقوة سفلية مازالت تعمل حتى يومنا هذا، وأن مولانا الحجازي أحضره ليحامي داره في غيابه.

يا جدعان دي أساطير ملهاش أصل

هكذا عاود الأستاذ عبد الحميد القول في حثق فابتسم سعيد ابتسامة أخفت معالمها الظلمة... يعلم أن الأستاذ عبد الحميد من القلائل الذين يرون المبالغات في تلك الحكاوي، حتى أنه أسر لسعيد ذات ليلة بأنه يجنح إلى الاعتقاد أن "سيدي الحجازي" خرافة متوارثة وأن الرجل لم يوجد من الأصل، كما أخبره أن هناك مقام آخر يحمل نفس الاسم بالصعيد يدعي مريدوه هناك أنه دُفِن به. وإن عجز الأستاذ عبد الحميد عن إيجاد تفسير مناسب لنشوء الأسطورة أو حتى شرح كيفية وجود الباب من الأساس.

استمر الجدل حتى تجاوز الرجال المصرف ووصلوا إلى بوابة عزبة فؤاد خيرى باشا فقام خفر العزبة لاستقصاء الأمر وقد غطت "تلفيحات" من الصوف البني معظم وجوههم اتقاءً للبرد. سألهم الرجال إن كانوا لاحظوا جماعة تعدو أو سمعوا صوتاً غريباً في العزبة لكن الخفر أجابوا بالنفي.

بالرغم من عمل والد سعيد، علي الرفاعي، في نظارة العزبة... إلا أن سعيد نادراً ما كان يأتيها، حتى عندما يقضي أبوه يومه كاملاً في العزبة في أيام البذر والحصاد، كانت أمه تبعث بإخوته الصغار حاملين الطعام إلى والده... لذا فقد بدت السراي الضخمة مع الأنوار التي أحاطت الأسوار مشهداً مهيباً بعث في نفسه شعوراً بالضآلة. اجتزه صوت الخفير الخشن من سهوه وهو يقول:

ولاد الهرمة عايزين يسرقوا الباب تاني... دحنا فاضلنا كام

شهر على المولد... خلاص مبقاش فيه خِشًا

خرج الكلام من شفاه الخفير، التي تلونت بزرقة قاتمة بفعل البرد،  
ملاً ببخار أبيض من أثر الصقيع

عالم مبتخفش من ربنا... تشرق مقام ولي من أولياء الله

هكذا عَقَّب أحد الرجال على قول الخفير بينما كان سعيد يحاول  
استراق النظر من خلال البوابة إلى الطريق المؤدي إلى السراي... مال  
قليلاً إلى اليمين كي يحسن من زاوية الرؤية لعله يلمح أحد التماثيل التي  
نزين مدخل السراي إلا أن شيئاً ما علق بجلبابه، ثم سمع ذلك الصوت  
المكتوم لتمزق القماش يخرق صمت الليل... شعر سعيد بالأعين تتحول  
إليه، تخترق روحه، خاصة الخفير الذي جفل عندما تبين وجهه

بسم الله الحافظ

هكذا دمدم الخفير، ثم قال بعد تردد

إزي أبوك يا سعيد... اقعدوا اشربوا شاي يا رجالة

برغم ضعف الإضاءة و"التلفيحة" التي تغطي معظم وجه الخفير،  
إلا أن سعيد ميَّز تلك النظرة التي يصادفها مرارًا في اليوم الواحد... نظرة  
يمتزج فيها الجزع بالنفور... بعثت في نفسه سيلًا من الذكريات المريرة،  
والرفض، والاستهزاء، والعزلة الجبرية، والإشاعات الخبيثة التي تنتقل  
في الريف كالهواء... فالحكايات القديمة تموت ببطء، هذا إن ماتت قبل  
موت صاحبها. استشعر سعيد العواقب التي قفزت إلى ذهنه كالطوفان إن  
خرجت حروف كلماته محتضرة كعادتها... هل سيضحك الجمع، هل  
سيسخرون من لسانه العليل، أم الأسوأ، سيتجاهلونه تمامًا ليجيه الصمت  
القاتل... كيف يبدو في أعين مَنْ حوله حينها... أسوأ ما في الأمر أن

توتره يزيد من تلثمته سوءاً... وهكذا أجاب سؤال الخفير، الذي أدار ظهره وانصرف، بالصمت التام ونظرة تقطر غضباً مكتوماً يصهر أمعاءه.

عاد كل حي إلى داره، وبقي البعض يتسامرون على المساطب أمام الدور... جرجر سعيد نفساً أنختها الجراح إلى دار بُنيت من الطين النبيء... دلف إلى حوش الدار فاستقبلته أمه وأخته زينب التي بادرنه بالسؤال إن كان بحشهم أفضى إلى شيء هذه المرة فهز رأسه بالنفي وغغم بشيء لم تميزه...

إيه اللي قطع الجلية يا سعيد

هكذا قالت أمه بعصية

عوروو... دحطب ششش. شبك... فيها

خرجت الحروف ثقيلة متلثمة من بين شفتيه... لازل يرى نظرة الخفير... سمع في ذلك الحين أباه يقول "يا بركة سيدنا النبي" قبل دخوله عتبة الدار ثم دلف بيمينه، تبعه أخواه الصغيران اللذان راحا يرويان في حماسة مغامراتهما في البحث عن اللصوص في العتمة الحالكة... يمثلان بأيديهما وأجسادهما الهزيلة ما يقولانه فتضحك أم سعيد وزينب... انسحب إلى الغرفة بينما أبوه يدمدم ببعض اللعنات على "أولاد الحرام" الذين غاب الدين عن قلوبهم حتى استحلوا سرقة أولياء الله.

خلع سعيد جلبابه وجلس على حافة سرير أحال الزمن شراففه إلى صفرة لا يجدي معها الغسيل... دقائق ودخلت زينب، التي ابتسمت في وجهه وناولته قلة الماء وأخذت الجلباب الملقى بجواره

أنا حاخذ الجلية أخطها لك... ولا يهملك يا سعيد... حبتني أحسن من الجديدة... أنت اتجرحت؟



هز رأسه بالنفي وابتسم في وجهها امتاناً ورفع القلة إلى فمه

تصبح علي خير يا سعيد

وانتِ ممم... من أهله

علي الرغم من وجوده داخل داره بين أهله، إلا أن سعيد لم يكن يجد الراحة الحقيقية سوى بالتقهقر داخل نفسه، إلى عالمه الخاص الهادئ حيث يجديه سكينه وأنس حُرْم منه في مجتمع لا يرحم. استخرج كتاباً من أسفل السرير تحفظ يده مكانه بين أكوام كتب السيرة والفقهِ التي احتلت المسافة الفاصلة بين السرير والأرض... لم يكن من المجدي إهلاك الوقت في محاولة بائسة للنوم وقد أوشتك أن تحين صلاة الفجر... قام وأشعل "اللمبة نمره خمسة" وشرع في قراءة كتابه.

ما هي إلا دقائق حتى كان سعيد يحلق في عالم آخر، نسي روحه المشخنة بجراح الرفض والنفور وابتعدت عنه جوارح السخرية التي كادت أن تفتك به، تحمله الكلمات والسطور وتبحر به إلى عدل الله ورحمته... سلوانه الذي ينهل منه كالمحروم... كم يكره انحطاط الدنيا ويطمح في الآخرة حيث الكمال والسلام... حيث لا إهانات ولا تهتهة... حيث لا ينظر المولى إلى الصور والأجساد، بل لتقوى القلوب. لكن من أين لمن يسكن قرية هجرتها الملائكة لوضاعة آثامها بدخول الجنة... انتزعه ذلك الخاطر من حالة الصفاء التي كان بها. لكن أذان الفجر الذي ارتفع من جامع الحجازي كان بمثابة إعلان انتهاء تلك الليلة الطويلة.

## (٢)

صبيحة اليوم التالي لم يكن هناك حديث لباب الحجازي سوى محاولة سرقة الباب... لم تكن تلك المرة الأولى التي يحاول أحدهم سرقة الباب... فقد تعرض الباب لمحاولات سرقة عديدة من قِبل بعض الأراذل والأشقياء الذين لم يستدل أهل القرية على مسقط رأسهم، وإن كان أغلب الظن أنهم من عزبة كامل الملاصقة للقرية، فتجارتهم في الآثار تجعلهم المشتبه به الرئيسي، والباب العتيق بجانب كونه مصدر البركة للقرية وأهلها، فهو تحفة فنية يسيل لها لعاب هواة جمع الآثار لما له من هبة وجلال، بطوله الشاهق الذي يربو على الأمتار الثلاثة... يزينه من أطرافه نقوش ومنحوتات هندسية ورموز ورسومات حيوانية بديعة... بينما تحتل متصفة تلك الكلمات البارزة بلغتها القديمة قدم الأزل.

خرجت صحف ذلك اليوم تحمل في طياتها أخبارًا أذهبت لسعة شتاء طوية البارد وأسكنت الجحيم في القلوب... ففي صفحاتها الأولى تصدرت قائمه بخمسة وعشرين سلعة قفزت أسعارها بلا مقدمات بعد

، هم الدعم الحكومي عنها... لم يكن أحد من سكان باب الحجازي  
، م بالصحف سوى الأستاذ عبد الحميد علام، فالسواد الأعظم من  
اهل القرية أمي، فضلاً عن أن ثمن الصحيفة يعد إهلاكاً لدخل محتضر  
لا يحد يكفي احتياجاتهم الأساسية... ورغم سخونة هذا الموضوع الذي  
، سبل له لعاب الأستاذ عبد الحميد، متحدث القرية اللبق الذي يحترمه  
اهلها جميعاً كونه أستاذ بالمعهد الأزهري التابع للمركز، إلا أنه بحسه  
اثر السكوت عنه... سارت الحياة في ذلك اليوم كالمعتاد حتى تسربت  
الأخبار صباح اليوم التالي عبر أحد العائدين من القاهرة وانتشر الخبر  
ذاتار في الهشيم، يلدغهم تصور وقع ارتفاع الأسعار الذي سيحيل  
حياتهم إلى كابوس.

حل السخط وارتفعت الأصوات ولم يعد لباب الحجازي حديثٌ على  
مدار يومين سوى ذلك الخبر المشؤوم حتى حُلَّت عقدة لسان الأستاذ عبد  
الحميد، الذي التف حوله جمعٌ غفير من الرجال في جلايهم البلدية بعد  
صلاة العشاء... راح يشر الأهالي بعدول السادات عن ذلك القرار، ولم  
يضع الفرصة ليضيف لسته بتأكيد أن الرئيس يعلم حال الناس ويشعر  
بالفقير ولذا فقد أدب المحيطين به الذين اتخذوا ذلك القرار الأرعن،  
اطربت تلك الكلمات سعيد الرفاعي الذي يعشق السادات ولا يقبل عليه  
كلمة تسوءه، وسارع بها إلى أبيه، علي الرفاعي، الذي جلس يحتمي  
الشاي الساخن على المسطبة مع بعض جيرانه بعد أداء صلاة العشاء  
بالجامع... وبحلول تلك الأخبار السعيدة التي أراحت النفوس، أرسل  
علي الرفاعي في طلب كامل المجذوب، الذي تجمع الجالسون حوله  
فور حضوره، يلقمونه الاسم تلو الآخر، ليقلده كامل الذي يستطيع تقمص  
كل من في القرية... تبارئ الجالسون في طرح الأسماء التي يريدون أن  
يسخروا منها. حتى أشار علي الرفاعي إلى أحد الجالسين

- قللنا رمضان

اكفهر وجه رمضان عندما أدرك أن كامل لا يقلده... بل يقلد امرأته فاطنة، وهي امرأة جرمة طويلة يخشاها الرجال كما النساء، اشتهرت بعشها الذي يقال أنه يصل إلى حد الخطيئة، لكن رمضان لا يجرؤ على مواجهتها.

قفز كامل فوق ظهر كلبه الهزيلة، يجر رجليه في التراب كما تجر فاطنة رجليها وهي تركب حمارتها المسكينة التي يكاد ينقسم ظهرها تحت حمل المرأة... ثم ألقى بنفسه في التراب بجوار أقدامهم وقال بلثغته المحببة

### لمضان ناعس

ثم هب واقفًا، يمشي مرتجًا كما تمشي فاطنة، واضعًا يديه على صدره يرجهما كما يرتج ثدياها، إلى أن وصل إلى مكان استلقى به أحد العيال وارتنقا بطنه، ثم أخذ يتأوه كما النساء.

... آآآآ

### راح يتلوى ثم أشار إلى رمضان

لمضان عامل زي الفتلة... فاطنة تركب الحُمالة الصبح وتركبه بالليل

ضرب الجالسون على بواطن أقدامهم وهم يكركون ضحكًا، بينما علا سباب رمضان الذي قام يعدو خلف كامل الذي أطلق ساقه للريح وهرب، تعوي خلفه كلبته التي لا تفارقه.

بهروب كامل المجدوب انتقل الحديث إلى تلك الرحلة التي قام بها علي الرفاعي منذ سنوات طويلة وهو بعد شابًا مع عدد من رجال ونساء القرية إلى الحج... راح يروي لهم المشاهد التي رآها في الحجاز، والتي

لا نمل آذانهم من سماعها. ثم انتقل الحديث عن الباب وأصله، وأكد علي  
ولون بركانه... ثم تولّى دفة الحديث كهّل هزيل يشبه مومياء استخرجت  
أوها من إحدى غرف الدفن في الهرم الأكبر... إلا أنه يتمتع بحسن دعابة  
عابثٍ برغم سنوات عمره التي شارفت على التسعين... عاصر خلالها  
جميع مراحل التحول في تاريخ مصر الحديثة... عاصرها هو واعتصرته  
هي، ليقين ذلك الهيكل العظمي المبتسم برغم كل مآسي الحياة التي مر  
بها ولازال... أخذ يلقي النكات العابثة الواحدة تلو الأخرى.

قبل انتهاء الجلسة عاد كامل المجدوب... يتحسس طريقه خشية أن  
بضربه رمضان

العمدة عايز علي الرفاعي

هكذا قال كامل ثم عاود الهرب.

ذهب علي الرفاعي لدوار العمدة حيث وجد اتصالاً من القاهرة في  
انتظاره... أخبره آدم السناري، صديق ابنه مصطفى وبلدياته، بأن مصطفى  
قد ألقى القبض عليه في إحدى المظاهرات التي خرجت للاحتجاج على  
رفع الدعم... وقع ذلك الخبر على علي فقسم صلبه وأتى على ما تبقي  
له من جلد

وهو فين دلوتي يا ابني

هكذا قال علي بصوت مرتعش من بين أنفاسه اللاهته

محدث عارف... الدنيا مقلوبة من ساعة المظاهرات... الجيش  
نزل وناس كثير انقبض عليها... غير اللي ماتوا

لم يعد علي إلى جلسة المطبة، بل عرج على الباب حيث أطلق  
لدموعه العنان، يتحب في صمت بينما يدعو الله ألا يسوءه في فلذة

كبده، يحاول دفع ذلك القنوت الذي بدأ يتسلل إلى قلبه، لِمَ تنهال عليه المصائب وهو الذي لم يؤذ ذبابة في حياته، على النقيض من ذلك، فهو عون الفلاحين، يجاهد من أجل أن يجد عملاً لمن فقد عمله منهم، يؤدي صلواته في الجامع ويصل رحمه ويحسن إلى جيرانه، ففيما الابتلاء!

بالرغم أن مصطفى ليس وحيداً، إلا أنه بعده عزوته... دائماً ما يقول علي أنه عثر الحظ في أولاده... ظلت امرأته سنوات عاجزة عن الحمل... قاسى خلالها كلاهما من كلام أمه، وطلبها المباشر منه جهازاً نهاراً أن يبدل عتبه، حتى اضطر لبناء دار مستقلة له ولزوجته على جزء من نصيبه من الأرض الزراعية، لتصبح زوجته ست الدار التي لا يتدخل أحد في شؤونها، وذلك ما لم تتسه له يوماً زوجته.

جربت أم سعيد كل أنواع العطور والأعمال وحلقات الذكر، إلى أن فوجئ الجميع بحملها بعد خمس سنوات كاملة من الزواج. لكن المفاجأة الكبرى لم تكن في الحمل، بل عند الولادة... رُزق علي بتوأم... زينب وسعيد... يعجز علي عن وصف سعادته بسعيد بعد ولادته... إلى أن كبر الولد واكتشف أنه... أنه... يحتار في وصفه، أحياناً يقول أنه بركة، "بتاع ربنا" ويتركه لكتبه وعالمه الخاص، وعندما تشتد به الظروف ويحتاج إلى ولد يتعكز عليه يصفه بأنه "خية" لا بد له من الخروج من شرنقته ليصبح رجلاً، فتدافع عنه أم سعيد بقولها أنه "ابن نظرة"، ثم تعدد أسماء النسوة من الأقارب وتصف كيف كانت أعينهن صفراء وهن ينظرن إليه عندما كان رضيعاً. ثم تحضره ذكرى آخر مرة دفعه للاختلاط التي تسببت في تلك الحادثة التي زادت من عزلة سعيد وأكسبته وصفاً جديداً... الممسوس... فيقوم لسانه ويصمت تقتله حرته على ابنه البكري.

ثم شاء المولى أن يرزقه مصطفى، زينة شباب باب الحجازي... يمثل كل ما يرنو إليه أب في ابنه... كان عون علي في كل ما يحتاج إليه ولم يقصّر

١٠ هـ يومًا بأي عمل صيباني كأقرانه... إلى أن أصابه "عفريت مصر  
١١٠. الهاجس الذي جعل الولد لا يطيق البقاء في البلدة... فاضطر إلى  
من لتوظيفه في القاهرة... وبرغم تمنع مصطفى عن العودة إلى باب  
١١٠. محازي منذ ذلك الحين وحتى بعد أن فقد عمله في الأوبرا الخديوية  
١ سنوات وتقله بين وظائف عديدة، إلا أنه كان يصبر نفسه بأن ابنه صار  
ي له مستقبل عظيم وأن ما يمر به ما هو إلا عشرة عابرة... أما الآن  
١١٠. ضاع المستقبل ففيمًا العزاء... لِمَ أصبحت يا مصطفى كالزرعة التي  
سارت بشمارها على الأرض التي نبتت بها... سار علي في غفلة تامة بينما  
١١٠. الموع تراكم في عينه لا تجرؤ على الخروج حتى لم يعد يتبين طريقه،  
لا بدري ماذا يفعل ولم أتى مصطفى على مثل ذلك الفعل الأهوج.

سقط رأسًا على داره فارتاعت زوجته وابته حين تبينوا هول ما حل به  
من وجهه الشاحب كوجوه الموتى وتقاسيمه الممتعة... سارعت زينب  
١٠. ملء قلة من "طرمبة" الماء ليبل جفاف حلقه وصرفت أخويها الصغار  
إليهم خارج الدار، فيما قالت زوجته بعد أن أخرجت ما بفرن الخبيز على  
عجل قبل أن يحترق

خير يا علي؟

لم يجبها علي الذي ارتمنى على حصيرة ملقاة على الأرض بجوار  
غرفة الخزين ودفن وجهه في يديه

يا نهار إسود... مالك يا علي

خرجت الكلمات من فمه تقطر كمدًا

ابنك اتاخذ السجن

أطلقت زوجته شهقة عالية خرج على إثرها سعيد من الزرية وجلس  
بجوار أبيه يتابع ما يجري في صمت

يا خير إسدود... اتسجن!! ليه؟ عمل إيه مصطفى؟

اتمسك في المظاهرات

لم تسأله أم سعيد عن ماهية المظاهرات ونهضت وهي تقول

انت حفضل قاعد كده... أنا حتزل أدور عليه

اقعدي يامه... أبويا حيشوف صرفة

قالت ذلك زينب بحسم، فجلست أمها تتحب وهي تقول

اتصرف... هاتلي ضاي، كلم فؤاد باشا يشوفله صرفة... هو

بيحبك ويحب مصطفى ومش حيتأخر عليك

جرالك إيه يا وليه... ما أنت عارفه إن فؤاد باشا مسافر بلاد بره

ومش راجع قبل شهر

شوف سيد خطاب يكلم حد من معارفه

نظر علي إليها شذراً

عايزاني أروح أترجا الوسخ ده! الحر حر ولو مئه الضر...

حيدبرها من عنده

كانت تلك الكلمات الأخيرة التي نطق بها علي قبل أن تخور قواه

وينطلق عويل أم سعيد عاليًا ينعي ابنها. اعتزل علي الجموع التي توافدت

على البيت يقتلها الفضول فيما يشبه العزاء... وراح ينزل القاهرة يومياً

يهيم على وجهه بلا هدئ ييحث عن فلذة كبدة في دهاليز المعتقلات

المظلمة... كما ظل يسأل عن عنوان أحد أقارب فؤاد باشا حتى استدل

عليه في الزمالك، وذهب يرجوه أن يتصل بالباشا يبلغه بالمصيبة التي حلت

عليه... مرت الأيام بلا اتصال بالباشا، فكرر رجاءه حتى منعه الخدم من



دارة بجفاء... أصبح كل الأمل معلقاً بمولد سيدي الحجازي، الموعد  
الذي أمل علي الرفاعي أن يعود فيه فؤاد باشا إلى العزبة... راح يعد الأيام  
والأيلة وهو يسمع نحيب زوجته... يصبرها بقرب حلول الفرج... ما هي  
الإصعة شهور.

لكن الأجل لم يمهل علي الرفاعي ليرئ المولد... فبعد أسابيع طويلة  
من البحث المضني الذي لاقى خلاله ألوان الإهانات على أيدي ضباط  
ومساكر المعتقلات... عبث خلالها بهم بوجهه فأضاف إليه هرم لا  
اسب مع عمره... انقطع علي عن الأكل حتى بدأ يذبل كما ذبل زرع  
البراطين اللذين يملكهما... وماهي إلا أيام وكان يسكن مقابر البلدة التي  
بعدها من الجهة الشرقية... هكذا انتهت حياته في هدوء.

توافد المعزون من جميع أنحاء باب الحجازي والقرى المجاورة  
إلى علي الرفاعي... فبرغم أن علي الرفاعي وزوجته في حالة  
منعثة منذ أن خرجوا بأولادهم من الدار الكبيرة وبنى داره على نصيبه من  
الأرض... إلا أنهما حافظا على مكانة مرموقة بين الجيران وباقي أهالي  
القرية لكونهما أصحاب واجب.

لم تدخل أي من نساء القرية على مدئ أيام العزاء على أم سعيد بيد  
فارغة... كل أتى بما تيسر من طعام يعين الأسرة على ما ينتظرها من أيام  
دالحة السواد... فوفاة علي المفاجئة وانقطاع دخله من نظارة عزبة فؤاد  
حيري باشا، ترك زوجته وأبناءه تلتقفهم رياح المجهول بين اختفاء المعيل  
وأسوار المعتقل التي ابتلعت مصطفى... ولم تكن فلاحه القيراطين  
المتبقين من أرض علي ليخففا من وطأة ما ينتظرهما.

### (٣)

بحلول مولد سيدي الحجازي، خطا سيد خطاب إلى بهو داره الفسيح تعلق وجهه ابتسامة زهولم يحاول إخفاءها، يتبعه حفنة من الخفر المهرولين، يحمل أحدهم صورة زيتية ضخمة لوجهه الطويل ذي العظام البارزة والقسمات الحادة... برغم الوجاهة التي أراد الرسام إخفاءها على سيد خطاب، بإخفاء بعض الغضون في وجهه الثماني، إلا أن الصورة حملت قسوة بالغة في عينيه الجامدتين... كانت تلك اللوحة هي هدية محمد عفيفي، عضو مجلس الشعب عن الدائرة التي تقع باب الحجازي في نطاقها، بمناسبة المولد.

أشار سيد إلى جدار عريض فهول فلاح هزيل، تبدو آثار الطين واضحة على جلبابه المتآكل، يسبق الخفر ليدق المسمار متطوعاً ثم ساعد في حمل الصورة الضخمة إلى موقعها الجديد... ألقى سيد خطاب نظرة مفتحة عن أي تقصير أو خطأ قبل أن يشير بوجهه الجهم بعلامة تدل على الرضا.

... يا يزيدك من نعيمه يا سيدنا الحاج سيد

١١٤. قال الفلاح بابتسامة عريضة بعد أن انتهى من تركيب اللوحة...  
١١٥. ... أن سيد خطاب كان في غنى عن دعواته، فنعم الله كانت تنهمر  
توقف... فتوسعت رقعة أملاكه من الأطيان حتى قاربت أن تروى  
بـ نصف المساحة المزروعة في باب الحجازي وتبعثرت دُوره التي  
أهـا من الأهالي في جميع الطرقات، وذلك الجزء اليسير من أملاكه  
١١٦. ... جد في مسقط رأسه.

أم يكن ذلك دائماً حال سيد خطاب... فهو ربيب الفقر لأسرة  
واسعة حتى بمقاييس باب الحجازي... حتى ضاقت به الظروف في  
أهـ واضطر إلى ترك القرية بحثاً عن الرزق الذي لم يجد له أثراً بها... لا  
يعلم على وجه التحديد ما الذي كان يعمل بعد رحيله عن القرية...  
م أنه كان يشهد في إشارات المرور في القاهرة... لكن رحيله عن  
أهـ الحجازي لم يدم طويلاً... فشهد الأهالي عودته إلى القرية مريضاً  
أهـ بحث في دار أحد أقاربه لفترة نقاهة طويلة علم أهل القرية خلالها أنه  
ع بـ كليته لأحد أثرياء البندر الذي عوضه بمبلغ مالي محترم... فوجئ  
أهـ سيد خطاب بأحد أبناء القرية يسأله عن تفاصيل العملية وعن المبلغ  
أهـ المالي الذي قد يعود عليه إن تبرع بكليته كما فعل هو. سارع سيد بالاتصال  
أهـ الطبيب الذي أجرى له العملية وهكذا سارت الأمور منذ ذلك الحين...  
أهـ الطبيب يوفر المرضى محتاجي نقل الأعضاء وسيد خطاب يمدد بفقرائه  
أهـ القرية والقرى المجاورة ليعيوا لحمهم مقابل نسبة... كان العمل مربحاً  
أهـ جميع الأطراف إلا أن سيد خطاب لم يكتف بدور الوسيط... لم يرض  
أهـ دور الرجل الثاني التابع في الظلام بينما الطبيب في الواجهة خصوصاً  
أهـ عندما يكون العملاء من أثرياء المجتمع وكبرائه... وهكذا عمل سيد ببطء  
أهـ ومثابرة لإزاحة الطبيب والتعرف المباشر على الزبائن حتى أصبح هو نقطة

الاتصال... لم يتم ذلك في يوم أو شهر أو حتى سنوات... بل استغرق عقوداً حتى انقلب الحال وأصبح سيد خطاب أحد أباطرة تجارة الأعضاء في البلد، يعمل تحت يده أطباء في مختلف التخصصات. وكأي عمل غير مشروع، كانت إمبراطورية سيد خطاب تستوجب الحماية من طائفة القانون... ولم يكن ذلك عسيراً مع توسع شبكة العلاقات والمصالح التي بناها من الساسة وصناع القرار من أعضاء مجلس الشعب والحزب الوطني الحاكم والأغنياء الجدد من ذوي النفوذ في عصر الانفتاح... كما استعمل سيد خطاب هذه الشبكة في قضاء بعض حاجيات الأهالي التي تتطلب تدخلاً رسمياً... مما مكته من رقابهم وزاد من سطوته حتى اعتقد أنه يملك الأرض بمن عليها... وتعذر لديه يقين يغذيه من حوله بأنه من أصحاب البركة... كما أصبحت له طقوس يحافظ عليها... يشترط على أهل المريض أن يحضروا إلى باب الحجازي ليدعوا لمريضهم بالشفاء من عتبة الباب لتحل عليه بركة سيدي الحجازي ويشفي الله مريضهم. فاشتهر "الباب" وتغيرت شهرته هيئة المريدين... ليصبحوا من المشاهير والنجوم والساسة... وأصبح مولد سيدي الحجازي مناسبة مهمة على أجندة كل الكبار يلتقون بها ليناقشوا أمورهم في تلك الحضرة المباركة.

ويتوسع رقعة أملاكه أصبح يغدق على أهل القرية من العطايا متبعاً في ذلك المثل الشعبي القائل "أطعم الفم تستحي العين"... لكن ذلك لم يكن يمنع ظهور "نابه الأزرق" من حين لآخر إن لم تسر الأمور كما يرغب... وبمرور الزمن لم تعد تجارة الأعضاء هي نشاطه الوحيد وإن كانت لا تزال عمود الخيمة... فطالت أنشطته تجارة العملة وتجارة العقارات بالقاهرة والأسكندرية ومعرض سيارات فاخرة بالمهندسين بالإضافة إلى عائدات الأراضي الزراعية التي اشتراها لتجدر مملكته كالسرطان داخل باب الحجازي وخارجها.

٥٥٥. أن سيد خطاب لم يُجِبْ تعلق الفلاح المسكين ولم يشكره  
٥٥٦. لتعليق الصورة، إلا أن ذلك لم يفت في عضد الفلاح الذي

٥٥٧. كبيرنا يا سيدنا الحاج واني جاي قاصدك في معروف

٥٥٨. سيد خطاب بوجه اختفى منه أي تعبير وراح بعث بشاربه  
فابتلع الفلاح ريقه وأكمل

٥٥٩. محمد أبو حطب أكل حنة من أرضي اللي في الحوض الشرقي  
والعصب ومش راضي يرتجع وأنت كبيرنا

٥٦٠. امانا كبيركم... فتني ليه ورحت تشكيه للمركز... انت فاكر  
المركز حيتصرف في حاجة من أمور البلد قبل ما يرجعلي

٥٦١. اجاب أخيراً سيد خطاب ليبدو الارتباك جلياً على الفلاح الذي  
يرتجش فرائسه، بينما ابتسم الخفير في سادية لعلمه أن ما يملكه  
٥٦٢. من علاقات قادرة على الإطاحة بدبابير ونجوم المأمور بمكالمة  
منه إن أراد.

٥٦٣. أنت بتفلق خمس قراريط... ودول كثير عليك... فانا حخف  
الحمل شوية، وكفاية عليك أربعة

٥٦٤. هذا قال سيد خطاب بلهجة حاسمة لم تخل من السخرية... قاوم  
٥٦٥. ارتعاشه وحاول من جديد التمسح في كرم أخلاق سيد خطاب  
٥٦٦. عنه ويعود عن نزع القيراط من أرضه قبل أن يقول في ترجي  
الأرض دي أتري أباً عن جد يا سيدنا الحاج... وربنا ميرضاش  
بالظلم

وكانما كان الخفير يتظر تلك الكلمة، فانهاال صفعا على الفلاح  
المسكين ثم ألقى به خارج الدوار بإشارة من يد سيد خطاب الذي لم يكن  
متفرغا لمثل تلك الصغائر... فالليلة هي الخاتمة لمولد سيدي الحجازي،  
وهو في انتظار ضيف عظيم إن سارت الأمور معه على الوجه الذي يرجوه  
فسيكون فتحا جديدا تفوح منه رائحة الذهب الأسود... لم يلتفت سيد  
خطاب لصراخ الفلاح خارج الدوار وتوجه إلى غرفته... وضع عباءته  
السوداء على كفه واستحضر الخشوع قبل التوجه لأداء صلاة الجمعة.

## (٤)

نسل ضياء الشمس من إحدى الفتحات الزجاجية التي تحيط بقبة الجامع الضخمة فأضاء وجه الإمام ليتكامل مع جلبابه البلدي الأنيق في إسماء هالة من الجلال على الشاب الثلاثيني الذي يخطب في حماسة . فطلعة النظير من على منبر جامع الحجازي الذي امتلأ عن آخره... في ١٠ غرة الجامع، حيث الحصر والسجاد القديم المستهلك، كان سعيد الرفاعي شديد الانتباه كعادته كل خطبة... يتابع كلمات الإمام ويستقرأ معها على جمهور المصلين من أهل القرية.

ما أن انتهى الإمام من خطبته وأتم صلاته حتى تدافع عليه وقد من أبناء القرية وشيوخها يلقون عليه وأبلاً من الأسئلة الشرعية... ختم الإمام صلاته وخرج من باب الجامع ليجد سيد خطاب في انتظاره... يحيطه أمبف من أبناء القرية يستجدونه لقضاء بعض حوائجهم... على بعد بضعة أمتار من الجامع، جلس سعيد الرفاعي بجوار كامل المجذوب على جذع

شجرة مقطوع يستظللان بلوحة معدنية صدئة... وككل شيء في باب الحجازي، كان لتلك اللوحة حكاية... يقال أن أحد العمدة الذي عُين في عهد الملك فاروق أصر على تغيير اسم القرية... وبالفعل دقت اللوحات الإرشادية التي تشير إلى القرية بالاسم الجديد ولم يبد على أهل القرية أي اعتراض ظاهر، فقط قاوموه بالسخرية المسترة ولم يكن أحد يستخدم ذلك الاسم الدخيل، ومرت السنون وتعاقبت الأجيال ورحل العمدة ونُفي الملك وتعاقب الرؤساء وصدت اللوحة حتى لم تعد مقروءة ولم يعد أهل القرية يذكرون ذلك الاسم الدخيل، وبقي اسم القرية محفوراً في القلوب يربط ألسنة قاطنيها، "باب الحجازي"، ولم يكثر أحد بإزالة تلك اللوحة الصدئة، لتبقى بائسة بلا معنى.

توجه سعيد إلى الإمام فور رحيل سيد خطاب تعلو وجهه ابتسامة عريضة وسلم عليه بحرارة

تقبل الله يا م... م... مولانا

منا ومنكم يا سعيد

سارا سويًا باتجاه داره يغلفهما صمت مشحون إلى أن قطعه الإمام بقوله

أنت شايف الوقت مناسب يا سعيد؟ أمك لسة مقلعتش الاسود

أطرق سعيد... برغم مرور عدة شهور على وفاة والده... إلا أنه لا يزال يشعر بغصة في حلقه كلما ذكر ذلك الأمر... غصة الشعور بالذنب... بالطبع شعر بالحزن لفراق والده... لكنه لم يكن ذلك الحزن الكاسح الذي غرق فيه كل أهله... حتى إخوته الصغار لم يكونوا أفضل حالاً من أمه وزينب... وذلك جعله يشعر أنه ابن جاحد... لكن أباه لم يكن أبًا مثاليًا بدوره... طالما شعر سعيد بتلك التفرقة في المعاملة خاصة



١٠٠٠ .. أتعلق بمصطفى... ابن أبيه المدلل... لا يتذكر سعيد أن أباه قد نهر  
مصطفى يوماً... مصطفى الذي مات أبوه بحسرتة عليه... مصطفى الذي  
أد أمه تموت بحسرتها عليه الآن... مصطفى... مصطفى... هز سعيد  
أمه كأنما يصرف عنه تلك الأفكار وقال

... أمي مش حال... تطلع الأسود

صمت قليلاً ثم أضاف لتغيير دقة الحديث

الناس ككك... ككانوا متأثرين... .. اوي بالخطبة

خرجت الكلمات بطيئة متلعثمة من فم سعيد كما هي عادته فابتسم  
الإمام وقال وهو يربت على كفه

الناس بقالها زمن مستنية المولد وبركات سيدك الحجازي تنزل  
عليهم لحم ومرق... لو قتلهم ريان يا فجل حلقهم بيقلوا الله  
يفتح عليك

بدت بعض ملامح الاستكار على وجه سعيد مما زاد من تلعثمه

جايز... لا... لا لكن الخطبة وصلت لقلوبهم...

ده حتى جدي عبد الحفيظ سسس... ساح في دمه

اتسعت ابتسامة الإمام وقال

أنا مقولش حاجة يا سعيد... براوة عليك... حكتبتنا الخطبة  
الغاية عن إيه

عععع الأمر بالمعروف... .. رأيك

ربت الإمام على كنف سعيد ولم يعقب... كانت علاقتهما تكاملية...  
دلاهما يفتقد شيئاً يجده في الآخر... سعيد الرفاعي يفتقد القدرة على

التعبير الفصيح عن أفكاره بسبب علة لسانه... بينما الإمام خطيب مفوه ذو أسلوب جذاب... لكنه يفتقد إلى الأفكار والقدرة على إنشاء موضوع يستقطب أفئدة سامعيه... بينما الأفكار والموضوعات تفيض من عقل سعيد كالسيل المنهمر فلا يستطيع لسانه البطيء مواكبة عقله... أضاف لذلك كون الإمام يستريح إلى الركون لشخصية أخرى تحمل عنه جزءاً من القيادة... شخصية تدعمه وتغطيه في الخفاء... تبعث في نفسه الطمأنينة أنه لا يرفع الحمل وحيداً بشرط أن يبقى هو في الواجهة... وذلك جل ما يطلبه سعيد، فهو متوحد بطبعه يكره الاجتماعيات والنقاش ويفضل أن يبقى في الظل بينما أفكاره تنمو في النور على لسان الإمام.

جرب الإمام فيما مضى تلك المواضيع المكررة المحفوظة التي نقل معظمها في أجدته من كتاب عن الخطب الدينية لم يكن يملك ثمنه حين شرع في الخطابة منذ سنوات... لم تلق تلك الخطب رواجاً بين أهل القرية... وكاد سيد خطاب أن يطيح به من ذلك المنصب الذي يدر عليه دخلاً محترماً لما وجدته من نفور أهل القرية من خطبه... حتى جاءه سعيد الرفاعي ذات مساء بخمس وريقات واقترح عليه بأدب متلعم أن يقرأ ما بهم لعله يجد ما يعينه على خطبته التالية... لم يكن الإمام على اتصال مع سعيد برغم تقاربهما في السن... فسعيد منعزل عن شباب القرية العازفين عنه بالأساس... شكره الإمام ليلتها وأوى إلى فراشه دون أن يعير تلك الوريقات اهتماماً... إلا أنه بعد صلاة العصر من اليوم التالي وبعد سؤال سعيد عن رأيه فيما كتبه قرر أن يقرأها من باب دفع الحرج... وكانت صدمته عاتية... فالكلمات المتراسة فوق الورق كانت تمثل تسلسلاً سهلاً لشرح فكرة معقدة بكلمات بسيطة وتشبيهات متأصلة في حياة الفلاحين... كان يلزمها إضافة بعض الرقائق لكن عصب الخطبة لم يكن ليخرج عما حملته الوريقات... دُهل لكم العلم الذي يملكه

١٠٤٠ م شرعي لم يكن ليتوفر لأحد من العامة... اكتشف أن سعيد  
١٠٤١ م. عن اجتماعيات القرية كان يمضي وقته في التهام الكتب  
العلم الشرعي والتبحر في علوم الدين... ترك الإمام خطب  
١٠٤٢ م. لا تؤتي ثمارها مع أهل القرية... ومنذ ذلك الحين كان يعتلي  
١٠٤٣ م. بكلمات من أصبح صديقه الصدوق.

الصديقان طريقهما يشقان شوارع القرية مرورًا بباب سيدي  
١٠٤٤ م. الذي يستعد وتستعد معه القرية لاستقبال المولد... وهناك  
١٠٤٥ م. أشهد مألوف... سيارة فارهة متوقفة أمام المقام

١٠٤٦ م. بانته... السؤال المتكرر إياه مع العربية اللي سدت الشارع  
١٠٤٧ م. غير معنى واحد

١٠٤٨ م. قال الإمام فنظر سعيد إليه وقال

١٠٤٩ م. يا بيبى... يتوب علينا

١٠٥٠ م. هلق الإمام على قول سعيد... فلم يكن لذلك المشهد معنى سوى  
١٠٥١ م. جديد من أهل القرية على وشك بيع لحمه.

١٠٥٢ م. وصلا إلى دار سعيد، انتظر الإمام في الخارج حتى سمع سعيد  
١٠٥٣ م. "معايا ضيف" قبل أن يناديه، فخطا إلى الداخل حيث وجد أم سعيد  
١٠٥٤ م. غارتين إلى أذرعهن في العجين استعدادًا لخبيز المولد. تناثرت  
١٠٥٥ م. ما عدة آنية فخارية و"طشت" عملاق من الدقيق المنخول بينما  
١٠٥٦ م. البخار من إناء الحليب المغلي

بأساثر

١٠٥٧ م. قال الإمام فجفلت زينب وخلصت ما بها من عجين وسوت  
١٠٥٨ م. بينما ظهرت بعض من جدائل شعرها الكالغ السواد في تحد

لمحاولة إخفائه تحت الطرحة التي تحيط بمنديل رأسها الأحمر... - ١٥١ -  
الإمام لالتقاط أنفاسه وحاول السيطرة على انفعاله... هاهو ينظر إلى  
زينب... يملأ عينيه بجمالها... ذلك الجمال العجري الجارح يسلبه  
كمعجزة نبي... جمال قح وقع يجرده من أي تنوءات تركتها محاولاً  
التحشم البائسة، يعيده إلى أصله... ذكر يبحث عن دفء جسد امرأة  
وزينب ليست أي امرأة... إنها الأثني متجردة من أدوار الحشمة حانق،  
بأدوار الغواية في تمام بدرها... لجسدها حرارة يشعر بها برغم المساء  
التي تفصله عنها... نافرة الجسد والطباع... فرس شرس استعصى على  
كل من فكر في ترويضه... احتبت أنفاسه من هول حضورها الطامس،  
حتى أصبح على وشك النفوق فشقق بحثاً عن الهواء.

اتفضل يا ابني... يا مرحب... خطوة عزيزة... معلى العجيب  
خمران

جلس الإمام بجوار سعيد على حصيرة في ركن الدار

يا لا يا زينب سمي وولعي

أخذت أم سعيد تضرب على قطع العجين على الطبلية تدحوها ثم  
تلقي بها على المطرحة المفروشة بالردة... راقب الإمام العجين الذي  
أخذت مساحته تزداد بتحريك المطرحة في حركة دائرية... ثم ألقت في  
الفرن فأخذ ينمو ويكبر كالممسوس حتى نضج فالتقطته زينب بعود من  
داخل الفرن بينما أم سعيد تلقي برغيف جديد.

سعل الإمام من أثر الدخان المتصاعد قبل أن يقول

خبز الهنا يا أم سعيد... كل سنة وانتم طيبين

ناولك رغيفاً ساخناً وقالت

## حكك عشان نتبارك

• ملك عادة يا أم سعيد... دار أبويا علي الرفاعي دار كرم  
الإمام عندما أشاحت أم سعيد بوجهها لذكر زوجها

••• ونور عليه

• اني أخذ ثدياها يهتران تحت جلبابها الأسود الخفيف...  
• الذي تنائر علي وجهها في إخفاء الحمرة الناضحة من

• ار كلك يا خالة... كل سنة وانتم طيبين

• ام سعيد قبضة من برام القشدة وقالت

• طيب يا ابني... بعودة الأيام

• اخبار عن مصطفى

• وابحة تقابل نادية هانم الليلة في المولد تفكرها أحسن يكون  
• اشاسيه

• ار مش ناقصها حاجة يا خالة... إحنا أهل وانت عارفة إن  
الأمور مستورة والحمد لله من دخل الدكان علي القرشين اللي  
طاهولي من الجامع

• ار يا ضناني... مستورة والحمد لله

• ار الإمام عينه من علي زينب، أولعله لم يستطع، بينما لم تعره

هي أي اهتمام... تنحنح في حرج بعد الكثير من المجاملات الممطوطة  
وقال

والله يا خالة الموضوع اللي أنا جايلك فيه الأصول تيجي فيه أمي  
أو أبويا. لكن أنت عارفة..

أطرق الإمام برأسه واسترق النظر إلى زينب التي كانت تحدجه بنظرة  
بدت له صارمة

ألف رحمة ونور عليهم... كانوا أحسن ناس في البلد

هكذا قالت أم سعيد فأكمل الإمام

أنت زي أمي... وأبويا علي الرفاعي كان في مقام والدي وأكثر...  
وأنا نويت اتوكل على الله وأكمل نص ديني

تصاعدت أنفاس زينب كأنما تلهث، وتحولت النظرة الصارمة إلى  
نظرة غاضبة أفقدته ثباته فأكمل قبل أن يفقد شجاعته

ومش حلاقي أحسن من زينب في البلد كلها علشان..

انتصبت زينب كعود الحطب الذي تحمله فابتلع باقي جملته

أبويا لسة ميت وأخويا منعرفش له قرار جرة وتقولي جواز

نظر الإمام إلى سعيد كأنما يستنجد به لكنه ظل صامتاً فقطعت أم سعيد

الصمت

انت ميعبكش حاجة... بالعكس، كل الناس عارفة قدرك... ولولا

صغر سنك كنت بقيت كبير البلد... لكن الأصول أصول. سنوية

أبوها لسة معدش

سارع الإمام بقوله

أنا مش عايز حاجة دلوقتي... أنا كنت..

والله ربيب

لا دلوقتي ولا بعدين... أنت البعيد معندكش دم

، ها أمها وحدجتها بنظرة صارمة

امشي يا بت... إيه اللي صابك

ام، بس للحديث معني بعد ذلك وسرعان ما قام الإمام بجر ذبول

، العار عائداً إلى دكانه حيث دفن غضبه بين بضائعه... كان يعلم أن

، فصت كل من تقدم لخطبتها من قبله، وهم كثير، لكنها لم ترفضه،

تعدت على كرامته... ضرب على سطح الفترينة عندما سمع

انتردد في عقله فتهشم الزجاج تحت وقع قبضته... لم يتحرك

، أي يده التي أدامها الزجاج، وظل ينظر إلى السماء، واعدًا نفسه أنه

اه ها درسا قاسيا.

## (٥)

بحلول الليل القمى القمر أشعته الفضية على دروب وطرقات باب الحجازي في تلك الليلة المشهودة التي ازدانت فيها القرية واكتست أبيهئ حللها... يزحف الخلق كأسراب النمل إلى الباب الذي تلالاً بالكلوبات حيث يحتفل الآلاف بالليلة الختامية لمولد سيدي الحجازي... ارتفع صوت توفيق العروسي، صاحب البحة المميزة للمداحين، يرج الجدران مع إيقاع الدفوف... النسوة يحملن ما تيسر من زاد فوق رؤوسهن، يتلمسن طريقهن بين الباعة الجائلين والخيام والسرادقات التي ملأت الطرقات، حيث تُجمع ثم توزع المأكولات والمشروبات على المريرين وعلى أهالي البلد والفقراء والوافدين من شتى القرى والمراكز المجاورة... كما انتشرباعة البخور والحلوى، بينما أقام البعض عدة حلقات للذكر، ولجأ آخرون إلى الاستماع إلى المنشدين والمداحين داخل السرادقات بعيداً عن صخب الصبية والصبايا بين الألعاب المتناثرة في محيط المولد.

شهد بيت السناري - أكبر عائلات القرية - وجامع الحجازي، الذي تم



بالأضواء، إقبالاً كثيفاً... ونظّم الشيخ عبد الكريم، شيخ الحضرة،  
١١٠ ملس فيها بعثة الباب ليتحدث عن سيدي الحجازي، وكانت تلك من  
أسيات القلائل التي يسهب خلالها الشيخ عبد الكريم في الحديث...  
١١١. مقام البقاء... وهو مقام يتجرد في العبد من المحسوسات الدنيوية  
مع الله... فهو بالله مع الله ولله... وذلك مقام رفيع بين أولياء الله  
الصالحين... يعلو مقام فناء الغناء حين يفنى عن العبد شعوره بأنه فان...  
١١٢. يكن البسطاء من الحاضرين يفهمون تلك التفاصيل لكن الشيخ عبد  
الكريم مضى ليشرح ترقى سيدي الحجازي في المقامات حيث ترقى من  
حلمي الأفعال إلى تجلي أسماء الله الحسني فبدأ باسم الله الموجود حتى  
وصل إلى اسم الله القيوم ثم إلى تجلي الصفات الإلهية... عندها تنتهي  
دات العبد فيقيم الله مكانها "اللطفة الإلهية"... وهي المرحلة التي أجرى  
ها الله الكرامات لعبد الصالح... مولانا الحجازي.

لم يكن الشيخ عبد الكريم معني بسرر كرامات سيدي الحجازي برغم  
احتجاجات المريدين الذين يعدون تلك الفقرة نوعاً من التسلية وفرصة  
لإظهار القدرة على مصمص الشفاة في حالة من الاستحسان المشدوه...  
فهو يرى تلك الكرامات والفتوحات سرّاً بين العبد وربّه... تظل كذلك  
إلى أن يشاء السّار كشفها بالقدر الذي يشاء... أنهى الشيخ ندوته وقام  
لتنطلق ألسنة المعبين بالأدعية والتواشيع في حلقات الذكر التي مستمر  
إلى فجر اليوم التالي.

لقت نظر الشيخ عبد الكريم تلك الفتاة التي جلست بجوار الباب  
تتحب في صمت... عدل من وضع نظارته السمكة واقترب حتى تبين  
زينب بنت علي الرفاعي التي اتشحت بالسواد والتصقت بالباب تتمم  
بدعاء لا يميز مع الضوضاء المحيطة... انقبض قلب الشيخ عبد الكريم

حزناً على حال الفتاة واقترب منها حتى انتهت، وما أن رفعت وجهها إليه حتى فاضت عيناها بالدمع من جديد كأنما تشكو له همومها التي لم تحملها الكلمات... ربت الشيخ عبد الكريم بحنان على كتفها ثم جلس إلى جوارها، يطمأن على أمور دار علي الرفاعي... ترددت زينب قبل أن تقول للشيخ أنها رأت مناماً بالأمس

شفتي إيه يا بنت الأكاير

شوفت في المنام جمل أصفر كبير... جاي من نواحي عزبة كامل  
وقف هنا

أشارت إلى ساحة الباب التي لم يعد بها موطن قدم

شوية وطلعه سعيد أخويا من جوه... والجمل كلمه...  
مسمعتش الكلام بس قلبي كان واكطني على سعيد علشان كان في  
دم نازل من دماغه وناس كثير ملمومة حواله... لقيته بيضحكلي  
ويمدلي يده... ملحقتش أروحله لقيت الجمل أخذني وراح...  
بعدها جيت انت يا جد ومسحت على دماغه مكان الدم...

قطب الشيخ عبد الكريم حاجبيه معا زاد من توتر زينب التي تسارعت  
أنفاسها

سعيدا

هكذا ردد ثم طالت فترة الصمت حتى تكلم الرجل من جديد

متحكيش اللي شوفته ده لحد ثاني... إن بعد العرس يرا... أخوك  
حيقني له شأن كبير في البلد دي... رينا كبير ومش حيبكم... بس  
عليكي بالصبر يا بنتي، الصبر... وافكري إن مفيش حاجة تخوفك

الصبر على إيه يا جد

م الشيخ عبد الكريم بحنان وربت على كتفها من جديد

الـ: نوب على الجبين لازم تشوفه العين

١١٠: قال الشيخ عبد الكريم ثم أطبق على يدها فقامت قبل أن تستفسر

م: فصدته. اخترق بها الحشود حتى وصل إلى أحد الدراويش وأشار

م: اه له رغيف ذرة به بعض اللحم أعطاه لها وقال

روحي على داركم يا زينب

أنا مش جعانة يا جد... أنا جاية أدور على نادية هانم... هي

مبتفوتش مولد إلا أما تحضره

نلت الشيخ حوله باحثاً عنها ثم أشار إلى مقعد خشبي فارغ

كانت هنا من شوية... عايزاها في إيه

عايزاها تفكر فؤاد باشا بمصطفى... ادعيلنا نعتز عليه يا جد... أمي

متمش الليل من ساعة ما اتحبس

كان الشيخ عبد الكريم يعلم كما يعلم الجميع كم مرت الأيام ثقيلة

على أسرة علي الرفاعي منذ وفاته... يعلم انكفاء سعيد على زراعة

القيراطين اللذين ذبلت زراعتهما، كما هو حال باقي القرية، بسبب قلة

المياه... البحار اللعين مازال يحايي قرية ميت الشوكة المجاورة في

نصيهم من مياه الري.

في تلك الأثناء وعلى الجانب الآخر، جلس سيد خطاب مع ضيفه

المتظر، الشيخ أبو خالد، وهو شيخ سبيني سمين متفخ الأوداج من

شيوخ الخليج، علم سيد من عضو مجلس الشعب، الذي عرفه بالشيخ،

أنه يتصل مباشرة مع أمراء بعض العائلات المالكة... وتوطيد علاقته معه

يعني علاقة مباشرة مع هؤلاء الأمراء وتلك نقلة لم يكن يحلم بها...

لم يكن سيد خطاب يشك أن الشيخ، برغم مكانته وسطوته، ما هو إلا عتبه سيستخدمها بحنكة وصبر للاتصال بالعائلات المالكة بنفسه، ومن ثم يستغني عنه كما فعل مع الطيب في شبابه.

اهتم سيد خطاب بكبار ضيوفه من أعضاء مجلس الشعب ولواءات الشرطة ومأمور المركز وأعيان القرية والقرى المجاورة، إلا أنه أولي اهتماماً خاصاً وبالغ في المجاملات والاحتراف بالشيخ الذي بدا من انبساط أساريره أنه قدر كرم الضيافة... كان الشيخ في زيارة إلى باب الحجازي لإمداد سيد خطاب بالأوراق الطيبة التي تشمل فحوصات وتحاليل معملية لأحد المرضى لم يذكر الشيخ اسمه ولم يلح عليه هو في السؤال... فهو يعلم أن صحة أمراء وشيوخ الخليج أسرار دقيقة لا تتشاع للعامة... لكنه كان يدرك أيضاً أن المريض شخصية مهمة استدعت قدوم الشيخ أبي خالد شخصياً للبحث عن متبرع.

نيفاك تلجئ ابن الحلال بسرعة يا حاج سيد

هكذا قال الشيخ بلهجته الخليجية التي حاول تمصيرها بعض الشيء

متقلقش يا شيخنا... بركة الباب وسيدنا الحجازي كله حيقض

لم يلح سيد خطاب على الشيخ بالقيام والدعاء عند الباب كما اعتاد أن يفعل لعلمه بتعارض ذلك مع عادات أهل الخليج الكارهين للأضرحة

الله يبشرك بالخير... والله دُخنا يا حاج سيد... صَارلنا شهور

وما لجينا المتبرع المناسب... أنا ما أفهم في الطب لكن الدكاترة

خبرونا إن فصيلة دمه ولا ما أدري إيش فصيلة نادرة... مكتوب في

الورق عندك

سارع سيد خطاب بتطمأنته أنه سيجد المتبرع المناسب حتى لا يدع مجالاً لفتح المزيد من التفاصيل عن الأوراق الطيبة التي قد تفضح

ثونه أُمي. تطرق الحديث بعد ذلك إلى موضوعات متفرقة، عن الدين ، السياسة و حرب أكتوبر ودور الملك فيصل والأخوة في الخليج في مؤازرتها والحرب الأهلية في لبنان... وانتهى الحديث بوليمة في مندرته الضخمة التي مدت بها الموائد... بها شتى أنواع الأطعمة والمشروبات .ني استدعى سيد خطاب لإعدادها طبائخين من القاهرة لإبهار الضيف الخليجي.

ء تناول الشاي في الهواء الطلق الذي أوصى سيد بجلبه إلى موقع مميز يسمح بمراقبة المولد دون أن يزعج الضجيج ضيفه... لاحظ سيد خطاب أنه برغم سن الشيخ الذي تجاوز السبعين، إلا أن عين الشيخ كانت لا تعمل من متابعة صبايا القرية اللاتي يمرحن في المولد... أرجع سيد خطاب ذلك إلى أن منظر الفتيات وهن يتصايحن فيما بينهن وتعالى ضحكائهن الرقراقة، كان كمنظر الحوريات الغياد في الجنة لهذا الشيخ الأني من صحراء يتشح نساؤها بالسواد... ولا بد أن مشهدًا كهذا ذهب إليه.

والله زينة بنات مصر

ضحك سيد ولم يعلق

ترى عندنا نجول أن أحسن زوجة هي المصرية

والله مش دايمًا يا شيخنا... ساعات بيبقوا نكد مالوش آخر

تعمد سيد التوكيد على كلمة "شيخنا" متبوعًا بترهيبه من تلك الفكرة... لم يكن ذلك نابعًا من المبدأ ولكن سيد كره أن ينحدر إلى مستوى الخاطبة.

لم يبد على أبي خالد أنه سمعه، أو أنه لم يعر كلامه انتباهًا فمضى بفول

لا والله مو بنات مصر اللي زينة... بنات باب الحجازي اللي زينة

كظم سيد خطاب غيظه وقال

ده بس من ذوقك يا شيخنا

ابتم الشيخ وأضاف بلهجة ذات مغزى

ترئ إذا الله رَاد وحصلنا ابن الحلال... يكون في خير كثير لك

ولاهل الحجازي هنا... وأنا أريد يكون في بنا صلة... مو علاقة

تتهي بعلاج المريض يا حاج سيد

التقط سيد المعنى المراد... ويبدو أن تقدير حجم المصالح التي سوف

تعود عليه من فتح باب للتعامل مع شيوخ الخليج، أذهب عنه الضيق...

فوجد نفسه يتسم وهو يقول

إحنالنا الشرف يا أبو خالد

ابتم الشيخ في رضئ وراح يوزع نظراته الفاجرة الثابتة على كل

الفتيات، يتفحصهن كأنما يبحث عن شيء بعينه... حتى وقعت عينه

على صبية ذات أنف روماني تتلألاً بشرتها البرونزية تحت أضواء المولد

لتضح حسناً ونضارة تدل على الصحة.

زينة هالصيبة... ترئ أنا ذواقة يا حاج سيد في أصناف الحریم...

أعرف أشم شذئ الورد من بعد ألف كيلو... وهي وردة فاض

عِطرها وملا صدري

هوئ قلب سيد خطاب بين قدميه فيما تشتت انتباه الشيخ... تكاد عيناه

تخترق ملابس الفتاة التي كانت تقف بجوار سيدة ترتدي فساتناً أنيقاً لم

يتبينها سيد من ظهرها... لكنه أدرك على الفور من هي الفتاة المنشودة.

كل اللي نبغاه شهر عسل... على سنة الله ورسوله... وما في أحلى  
من شهر العسل يا حاج

اعتدل الشيخ أبو خالد في مجلسه قبل أن يردف في فخر

تراني راح أجولك سر الحياة ذاته... أنا وأنت صار لنا عمر في  
هالدينا... وسر الشباب تاخذه من راجل شية مثلي شاف ودار  
الدينا... دور على متعتك كيف كنت تدور عليها في شبابك... ما  
في شيء أبدي بدنينا... وأحلى شي إنك تستمع باللحظة الحلوة  
ولا تفكر في بكرة... ترى النسوان يفسدون اللحظة، يحاولون  
يمدونها ويمطونها للعمر كله... يسألونك رح تحبني كده على  
طول... ما في على طول يا بنت الحلال... ناقصات عقل...  
علشان كده يا حاج سيد أنا أجولك ما أبغي غير شهر العسل...  
وبعد العسل ما في شيء يتذاج

لم يجب سيد خطاب الشيخ وظلت عيناه معلقتان بالصبية

لم تكن زينب الرفاعي تعلم موعد حضور فؤاد خيرى باشا إلى  
المرية على وجه التحديد... لكنها كانت على يقين أن زوجته نادية هانم  
أم نكن لتفوت حضور مولد سيدي الحجازي... وإكراماً لرغبة والدها  
وإن الاستعانة بسيد خطاب لم تكن مطروحة... لذا لم يتبق إلا أمل واحد  
لإخراج أخيها من المعتقل، الاستعانة بنفوذ فؤاد خيرى باشا الذي كان  
ممل والدها بنظارة عزبته... وهكذا انطلقت زينب تبحث عن نادية هانم  
بجمهور الحاضرين في المولد حتى وجدتها. ما لم تكن تدركه زينب  
الرفاعي هو أن مصيرها كان يتحدد في تلك اللحظة على بعد خطوات منها  
وإن تلك الطاولة التي جلس إليها سيد خطاب والشيخ الخليجي.

## (٦)

### الحرلعة وأزيز الذباب لا يُحتمل!

شعر سيد خطاب أن الذباب في مهمة مقدسة للالتصاق بوجهه فصرخ في إحدى العائلات بداره لتهش الذباب فقامت المرأة فزعة من جلستها واستلت أداة تستعمل في هش الذباب واستماتت في قتاله... لكنه كان يدرك أن تعكر مزاجه لم يكن له علاقة بالذباب، فما هو مقبل عليه اليوم أعاد إليه ذكرياته القديمة عندما بدأ نشاطه في تجارة الأعضاء، وتلك ذكريات بغيضة أراد أن يتناساها. عدل من جلسته على المقعد وساوى ثوبه المزركش وأطلق وإبلاً من الباب القذر على العاملة... عنيدة هي الذاكرة، تبحث وتنش في دروبها عن شيء، فتأبى أن تعطيك مرادك، وإذا أردت أن تفقده تصفع به وجهك!

تعلم سيد خطاب، في أيامه الأولى مع تجارة الأعضاء، دقة الجراحين وتنظيمهم... فأصبح يدرك أدواته ويحفظها عن ظهر قلب ليستدعيها في



... المناسب... فكان في غابر الزمان يبدأ كما الطبيب بدراسة تاريخ  
ابن الحلال" فيبحث عن بيت متعثر ويدرس تاريخ الأسرة وأوضاع  
أفرادها فردًا فردًا ويطلق زوجته وأقاربه ليحوموا حول البيت ويتخطفوا  
الأخبار من الجيران كمرحلة أولى، يكتشفوا من خلالها المشاكل التي  
لا يخلوا منها بيت من بيوت القرية، فتحنين المرحلة الثانية بالكشف  
المباهر فيبعث أمرته لزيارة بيت "ابن الحلال"، وهي مرحلة من الرقص  
الذي حيث يدرك أهل الدار بمجرد دخول الزوجة الغرض من الزيارة  
... فالسمعة تسبقها... تتقرب خلالها الزوجة من النساء بعد أن تتأكد من  
إهمار الممانعة القشرية للأسرة أمام رنين الغواش الذهبية التي لا تترك  
... أنا لياض ذراعها ليظهر، تخبرهم بالثواب و"الخير" الكثير الذي عاد  
... ابن سيد خطاب "بفعل الخير" وأن فعل الخير لا يؤثر على صحة "ابن  
الحلال" الذي يفعله... وبعد تأكدها من نجاح مهمتها، تنهض تاركة  
... فة بالفحوصات الطبية المطلوبة وعنوان المعمل الطبي ومعها مبلغ  
... المال يكفي للمواصلات إلى القاهرة وتكاليف تلك الفحوصات...  
... ابن الحلال" للقيام بالفحوصات الطبية التي ستنبئ إن كان مناسبًا  
"افعل الخير" مع المريض أم أن عليه الانتظار لما بعد... فإذا ظهرت  
الرسالة بالإيجاب، تأتي المرحلة الختامية بحضور الجراح شخصيًا،  
خطاب، لإنهاء الاتفاق والتفاصيل المادية بعد أن تخبر زوجته  
"ابن الحلال" بموعد لقائه، الذي يكون عادة بعد صلاة العشاء... كان  
... شهد سيد مع أحد أفراد القرية في تلك المشية من المسجد إلى دار "ابن  
الحلال" بمثابة إعلان إتمام الصفقة.

كل ذلك مدروس ومكرر يفعله سيد خطاب بتأن وتمهل حتى لا تفسد  
الطبخة، إلا أن تلك المرة التي دخلت فيها زوجته منزل علي الرفاعي  
... كانت كارثة بكل المقاييس، فلم يكتف علي الرفاعي بطردها من الدار

شر طردة، بل جاء إلى داره وتشاجر معه، وظلت تلك الإهانة حاضرة في نفس سيد خطاب حتى أنه مازال يتجنب السير في الشارع الذي توجد به دار علي الرفاعي حتى بعد وفاة علي.

كان ذلك زمن ما قبل رواج التجارة ونهافت "أولاد الحلال" عليه ليقدّموا لحمهم طوعاً "لفعل الخير" إن توافرت الفرصة... منذ ذلك الحين لم يعد يحتاج إلى ممارسة الدهاء لإقناع الأهالي... لكنه الآن مضطر إلى العودة إلى الأساليب القديمة وإن اختلفت السلعة... فالسلعة ليست عضو، بل هي ابنة الرجل الذي أهانه من قبل.

لكن اليوم لم يعد كالبارحة، ليس فقط لما يملكه من سطوة وجبروت... ولكن لأن معيل تلك الأسرة أصبح مع الراقدين تحت التراب، ووضع الأسرة في بؤس مقيم، كما أن ابنهم مصطفى معتقل لا يدري أحد عنه شيئاً... وذلك هو المدخل الذي قرر سيد خطاب الدخول منه، لكنه لم يكن ليذهب لدار علي أو حتى يبعث إليهم برسول من طرفه... بل أرسل من استدعي خليل الورداني، خال زينب الرفاعي، الذي استأجره لبذر القطن في أرضه مع باقي الفلاحين.

لم يطل انتظار سيد خطاب كثيراً حتى جاءه خليل مهرولاً يقول بين أنفاسه اللاهنة

خير يا سيدنا الحاج

أقعد يا خليل

جلس خليل، ذلك الرجل النحيل في جلبابه البلدي الغارق في العرق من أثر العمل في أرض سيد خطاب، فأشار له سيد ليشرّب الشاي... فتناول الرجل الكوب في ترقب لفتح الموضوع الذي أراده سيد خطاب من أجله... لم يكذ خليل ينهي كوبه حتى عاجله بالسؤال

عرفتوا حاجة عن مصطفى ابن اختك

لا والله يا سيدنا الحاج... ولا أي حاجة، والولية بقت حالتها  
تقطع القلب

حد يعمل في نفسه كده ويهدل أمه معاه... اتجن الراد مصطفى ده  
ولا إيه

صمت قليلاً ثم أراد أن يستشرف أين يقف خليل

طالع عيط زي أبوه... ياله الميت متجوزش عليه إلا الرحمة

عندك حق يا سيدنا الحاج... ده عيل مطيور وبرأوي... ده مكانش  
بيجي يزور أهله إلا كل فين وفين

وارئ سيد خطاب ابتسامته وقال

والبيت ناقصه حاجة؟ عيال علي محتاجين حاجة؟ مهو مفيش  
راجل في البيت دلوقتي... وسعيد الأخرس لا بيودي ولا بيحبيب

أهي ماشية يا سيدنا الحاج... على فيض الكريم وربنا موجود

بفكر أدي لهم حاجة من وقف الباب

نهلت أسارير خليل فعاجله سيد بقوله

عايزين نساعدهم يا خليل... بس من غير ما نجرح كرامتهم...  
أنت عارف الرفاعية مناخيرهم في السما عالفاضي

ياريت يا سيدنا الحاج

والبت اليتيمة دي عايزين نسرهما يا خليل... مينفعش نفضل كده

زم خليل شفتيه وقال

يووووه... دي بت طبعها نافر... ياما دق بابهم عرسان زي الفل  
ورفضتهم من الباب للمطاقة كده

العريس المرة دي مش أي عريس... اسمعني كويس يا خليل...  
ده راجل مترش وحيكرم البت وأهلها كلهم... ونبقى ساعدناهم  
وسترنا البنت من غير ما نحسهم إننا بنحسن عليهم... وأنا من  
ناحيتي حتصرف في موضوع الواد مصطفى ده... مع إنه موضوع  
معقد وأنا عارف الحكومة مبتهزرش في الحاجات اللي زي دي...  
بس همتك انت في موضوع الجواز الأول

ويطلع مين العريس يا سيدنا الحاج

شيخ خليجي من الشيوخ الكبار

وده عايش في مصر يا سيدنا الحاج؟

تلعلم سيد خطاب وهو يقول

لا بس بيجي كثير... البت حنا فر يقضوا شهر العسل في أسكندرية  
ولا في مصر وترجع لما يافر

غاصت نظرات خليل في السجاد السميك الذي يتوسط مقعدة سيد  
خطاب والتي حرص أن يتعد عنها خوفاً من أن يلوثها ثوبه، لكن سيد  
خطاب لم يمهله فرصة لابتلاع ما علق في حلقه

الشيخ حيكرم بنت أختك آخر كرم، ومن بختك الحلو أن عوايد  
أهل الخليج في الجواز يجيبوا هدية لخال العروسة بالشيء  
الفلاني، بنت أختك حتبقى برنسية يا خليل، ومحدث يرفس  
النعمة إلا الكافر، وأنا كل اللي عايزه مصلحة البت اليتيمة... ولا  
انت إيه رأيك

## الرأي رأيك يا سيدنا الحاج

ام يكن ذلك سوى غيض من فيض استرسالات سيد خطاب في سرد  
ام التي ستهمر من السماء لتفرق حجر خليل إن وافق على الزيجة...  
ان قطع استرسال الحديث أحد الخفر الذي دخل يخبره أن الحاج  
... من السناري وجمع من الفلاحين ينتظرونه في المنذرة

## طيب اجري وديلمم الشاي

مرول الخفير لتلية الأمر فالتفت سيد خطاب إلى خليل وقال

ح استنى ردك يا خليل... الراجل مش قاعد كتير ومش عايزين  
نضع الفرصة على البت اليتيمة... انت عارف ألف من تمنى  
فرصة زي دي

أوما خليل في تفهم، فذهب سيد خطاب إلى المنذرة ورحب بضيوفه  
مميعاً وجلس في مقعد مخصص له

البخار تاني يا حاج سيد... الكلب ده مش ناوي يجيها لبر والزرعة  
حتموت من قلة المية

هكذا قال الحاج محمد السناري فتعالت الأصوات المحتجة  
ونداخلت الاعتراضات من الجالسين حتى أسكتهم كبير عائلة السناري  
واكمل حديثه

الغيطان في ميت الشوكة قربت تفرق من كتر المية، واحنا لما  
بيجي دورنا في السقية نصينا مش بيكفينا... وكلمنا البخار بدل  
المرّة ألف وكله على إيديك... العيشة ضنك والناس مش جمل  
إن زرعتهاموت

هز سيد خطاب رأسه في تفهم وقال

ما أنت عارف يا حاج محمد إني كلمت بتوع الري في الموضوع  
ده قبل كده... والواد انضبط وعرف إن الله حق... بس ديل  
الكلب... عمومًا أنا حكلم مهندس الري تاني بشوفله صرفه مع  
ابن الكلب ده

لا يا حاج سيد... الوله ده لازم يمشي... أهل ميت الشوكة بيدفعوله  
وييدوله من زرعتهم علشان يسبلهم من المية أكثر من نصيبهم

جلس سيد خطاب يستمع لشكاوى الحاضرين من البحار، المسؤول  
عن توزيع المياه الآتية من الرياح لتتقسم على القرى بنصيب ودور، كل  
يدلي بدلوه ليؤكد ما يعلمه سيد خطاب جيدًا، أبدئ جل الاهتمام بكل ما  
يقولون لكنه في قرارة نفسه لم يكن يهتم بتلك الحقيقة كون أرضه ترتوي  
أولًا ليقبي غيض الماء الذي قد تموت به زرعة الفلاحين... بل لعل ذلك  
الحال كان يصب في مصلحته بطريقة غير مباشرة بالمساهمة في إفقار  
أهل القرية... حتى يصبح الضغط ساحقًا ليكونوا فريسة سهلة تسقط في  
برائته بلا مقاومة... لم يتبه سيد خطاب في غمرة حديثه مع الرجال إلى  
ذلك الشاب الذي راح يحدجه بنظرة تفيض بغضًا... لم يتبه أحد لوجود  
سعيد الرفاعي بينهم.

## (٧)

من رأى منكم منكراً فليغيره بيده... فمن لم يستطيع فبلسانه

طلت أصداء الحديث الشريف تردد في ثنايا فكر سعيد الرفاعي  
١٠٠٠. 'موم بنار الترقب، فمعتة النوم... اكتفى بالاستلقاء على السرير  
١٠٠١. هدي العتيق الذي ينوء بحمله مع أخويه... ينظر إلى ظلام تعريشة  
١٠٠٢. الدار وعرق الخشب البارز فيتخيل سيد خطاب معلقاً من قدميه  
١٠٠٣. سيل من الجلادات على ظهره العاري... ثم يقبله فيراه معلقاً من  
بينما يتقافز أطفال القرية حول جسده في شماتة ظاهرة... تلك الجنة  
١٠٠٤. التي يعانها الذباب والتي ما أن تسكن أديم الأرض حتى يصاب  
١٠٠٥. ولا تلبث أن تسرب رائحتها التنة لتقتحم أنوف الأحياء كلما  
١٠٠٦. الجرم الأثيم الذي أوعز لهم بفعله ذلك القلب الخرب... لكن  
١٠٠٧. عقوبة جرم سيد خطاب في القانون! ثم هل من العدل أن يسري  
١٠٠٨. على النقاة وعلى أراذل البشر كسيد خطاب على السواء...  
١٠٠٩. ذلك المترم حقوق.

مرت الساعات طويلة، ثقيلة، محملة بالاحتمالات والأمال العريضة لغد طاهر لا يحمل بين طياته استغلال سيد خطاب لفقر وجهل أهل القرية من أجل تجارته الخسيسة. حاول القراءة لكن ذهنه المتقد حال دون انتقال الحروف من عينه إلى عقله... فأخذ الكتاب وأعادته بين خلانه من كتب السير والفقهاء بعد أن أطفأ اللهب وعاد إلى استلقاءه الأولي... أخيراً اقتربت اللحظة التي ظل ينتظرها... اللحظة التي ظل يعد لها سنوات طوال... كم يمقت سيد خطاب... لم تكن كلمات الكراهية تكفي لوصف شعوره... يكره تفاصيله... يكره صورته وصوته ورائحته وجلبابه المزركش.

لم يكن أهل القرية مهيين لاستقبال الحقيقة من قبل... لم يكن يستطيع تحدي ما بات مسلماً به... لكن اليوم ليس كالبارحة... بما أعده في السنوات الطوال من زرع خشية الله وتعظيم هيته في قلوبهم عن طريق الإمام... اليوم فقط يستطيع تحدي امتراء المعصية... يمكنه أن يصرخ من فوق المنبر بأن تجارة سيد خطاب في لحومهم الحية حرام... ابتسم في مرارة عندما تخيل نفسه فوق المنبر... خطيب أخرس... من رأى منكم منكراً فليغيره بلسانه... فما بال اللسان عليل.

حاول سعيد صرف تلك الفكرة السوداء عنه بنام.

ذلك النوم اللعين... كلما طاردته تمنع في الهرب

هكذا حدث سعيد نفسه قبل أن يقوم لصلاة الفجر التي ارتفع أذانها دون أن تذوق عينه للنوم طعمًا... عاد إلى داره بعد أن أدت الصلاة في جامع الحجازي وحاول صرف عقله عن الأفكار المتلاحقة بالانهماك في نقل "السباح" من تحت الماشية في "الزريبة" إلى الغيط والعودة لاستبداله "بالرثش" المحمل على الحمار.

يعلم سعيد بسخط الكثير من أهل باب الحجازي على إبتجار سيد



في لحوم أهل البلد... وإن تعددت المنابع، فالبعض تأخذه  
١٠٠ مبعدها سبة في جبين أهل القرية بين القرى المحيطة حيث  
١٠٠ مكانتهم إلى وضاعة السلع التي تباع وتشتري... ويراها بعض  
١٠٠ الفلائل تسلط من أصحاب المال لشراء لحوم المعدمين في  
١٠٠ م طبقي كربه لا يكفل أبسط الحقوق الآدمية، وآخرون يرون فيها  
١٠٠ اء السياسي وفساد الدولة الذي أتاح الازدهار لمثل هذه التجارة...  
١٠٠ (بته هو كانت أبسط من ذلك كثيرًا، فهي تجارة محرمة شرعًا، حيث  
١٠٠ م الإنسان ما لا يملك وهو جسده الذي حرّم الله بيعه.

١٠٠ الرغم من أن المجاهرة بالمعصية ومبدأ "علني عينك يا تاجر" يستفز  
١٠٠ شاعر سعيد الرفاعي الإيمانية ويستنهض فيه الغيرة على الدين...  
١٠٠ من ذلك أن تلك المعصية تقدم في غلاف ديني، في المولد  
١٠٠ ضرة أولياء الله الصالحين وتحت أعين شيوخ الحضرة وبلا أدنى  
١٠٠ م امر منهم... وبالرغم من عقله الذي أوشك أن ينصهر تحت وطأة  
١٠٠ مال وحموضة الغضب... إلا أنه كان كعادته، يعمل من أجل هدفه  
١٠٠ نعمة قررت حفر نفق في صخرة... وقد أوشك على أن يرى النور  
١٠٠ في نهاية النفق... أوشك على الوصول للجهة المقابلة ونيل مبتغاه.

١٠٠ اننحم بعد أن انتهت من جلب "الرتش" وتناول بعض كسر الخبز  
١٠٠ م القريش مع أسرته التي التفت حول "الطبلية" واستعد للذهاب إلى  
١٠٠ م الجمعة خلف الإمام... ابتسم عندما وجد جلاببه قد أعيدَ ووُضِعَ  
١٠٠ السرير... كم يحب توأمة زينب... بوجهها الصبوح وروحها

١٠٠ اطلق صوت الإمام صدًا يحرك أركان الجامع وباب الحجازي كلها  
١٠٠ م سعيد الرفاعي... كانت خطبته التي كتبها منذ يومين موجهة  
١٠٠ م واحد فقط... الإمام نفسه... الخطبة عن الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر وخطورة استمراء المعصية... بعد انتهاء الخطبة وانقضاء الصلاة، انتظر سعيد الإمام كما العادة واتخذ الصديقان طريقهما نحو دكان الإمام يتجادبان أطراف الحديث... حاول سعيد أن يتغلب على تلغمه الزائد من فرط انفعاله مما ينوي قوله للإمام... حتى حانت اللحظة التي يتظرها وسأله الإمام سؤاله المعتاد عما سيكتبه في الخطبة التالية.

لم يجه هذه المرة بموضوع الخطبة... بل ناوله خطبة معدة سلفاً، بدا الاندهاش على وجه الإمام الذي تناول الورقات وشرع في قراءتها... ما أن قفزت عينا الإمام على السطور الأولى حتى أخذت يده ترتعشان من فرط الانفعال وسرعان ما تحولت دهشته إلى ارتياح... ما لم يكن يعلمه الإمام أن تلك الخطبة ظلت حية صدر سعيد لسنوات وسنوات حتى قرر أن يحررها من صدره لتجس من جديد على الورق لسنوات أخرى... وما قد جاء ذلك اليوم الذي تتحرر فيه الكلمات من سجنها الورقي لتسكن القلوب والعقول... لقد عقد سعيد الرفاعي العزم على عدم السكوت... خطبته التالية خطبة نارية عن حرمة الإتجار بالأعضاء.

إنت اتجنت يا سعيد... إيه اللي انت كاتبه ده!!

هكذا صاح الإمام في وجهه... لم يشعر سعيد بالإهانة، بل عاوده ذلك الشعور المحتقن بالمرارة عندما يدرك أنه على حق وأنه يملك الحجة فلا يستطيع التعبير عنها أو توصيل فكرته لتسارع أفكاره ويطء لسانه المتلثم، فيقهره من يجادل... لم يكن يفهم لم خلقه الله في هذه الحالة ويمثل ذلك الضعف... لكنه حاول شحذ تركيزه وتنحية الإحباط الجارح المتراكم بداخله جانباً وتوجيه كل طاقته إلى لسانه للرد على الإمام... راح يتلجلج ببعض كلمات متحررة النهاية كأخرس يحاول التحدث... لكنه أعد العدة جيداً هذه المرة، أخرج سعيد من "سيالة" جلبابه خطبة أخرى خاصة ناولها للإمام ودفع بلسانه دفقاً ليقول

الله... أحق أن تخشاه... تخاف من س... سسس... سيد  
«خطاب ولا مميم... مم... من اللي خلقه؟

ك الإمام فقام بجول في الدكان بتوتر واضح... يعلم سعيد كيف  
عقل الإمام... هو في الأصل تاجر ورث دكانه أباً عن جد، يجيد  
اب بمنطق المكسب والخسارة، والخطوة التي يطلبها منه تترك  
أمان مستقرة... سيد خطاب هو من عينه في الجامع الذي أبقاه بعيداً  
الأوقاف ليرضخ لسيطرته الكاملة بلا تدخل من الوزارة، وهو بالطبع  
ملن الإطاحة به، لكن تبعات هذه الخطبة ستعدئ ذلك لما هو أبعد،  
إمام لا بد أنه يخشى ذلك... ولذا أعد سعيد مرافعه جيداً ليقتعه بما  
وبزيل عنه الرهبة التي قد تمنعه من المضي قدماً... كتبها سعيد في  
الخطبة المنفصلة، فلن يخاطر بالمجادلة مع شخص مفوه حسمت له  
الامانة مع عقدة لسانه... راقب سعيد الإمام الذي احتقن وجهه ودعا الله  
بما همنا أن يشرح قلبه للحق.

## (٨)

في دار علي الرفاعي جلس خليل يحدث أم سعيد وزينب بما عرضه عليه سيد خطاب، وهو يعلم في قرارة نفسه أنها ليست بزيجة، ربما بيعة مقننة مغلفة بقشرة شرعية لكنها لاتزال بيعة، ومن يبيع، إنها زينب، زينة بنات باب الحجازي كلهن... ارتجفت أصابعه عندما تخيل رد فعل والدها إن كان حياً يرزق علي مثل هذا العرض. فأسرع بوضع كوب الشاي ليوارى ارتعاشه. لم يكن سيد خطاب ليتجراً بمثل ذلك العرض علي والدها، لكنه يتجراً عليه، لكن تلك النيران الملتهبة لم تجعل خليل يهب للذود عن هيته أو كرامة بنت أخته... ربما أثقلته الديون... ربما ألجمت لسانه الهموم... فصب علي تلك الحمم المزيد من الشاي الملتهب وهو يتابع وجه أخته.

وانت يه رأيك يا خليل

تسارعت نبضات قلبه عندما أحس بالمرارة الممتزجة بالسخرية في

١٠. من النظر في كوب الشاي ليتحاشى التقاء عين أخته التي باعها  
أه، بأنها بيعة جديدة

١١. نسر البت يا أم سعيد

١٢. ثمان يا ابن أمي

١٣. يا أم سعيد... بتكلميني كده ليه... بقولك دي جوازة تخلي  
ب. هانم وتساعد في سد حاجة البيت

١٤. مين قالك أن البيت ناقصه حاجة... ولو ناقصه حاجة مش الأولى  
١٥. تحي تقولي اللي في الدست تجيبه المغرفة، تقف جنب أختك  
١٦. ما تعرض عليها بتبع بتها

١٧. خليل في مرارة واضحة

١٨. ما إنت عارفة البير وغطاه... والحال من بعضه

١٩. ربنا الرزاق يا خليل... يرزق الهاجع والناجع ، واللى نايم على  
سماخ وذنه

٢٠. الكلام ده ما يأكلش عيش... شو في مصلحتك ومصلحة بتك

٢١. وكلام سيد الوسخ ده هو اللي يأكل عيش... مش كده يا خليل

٢٢. ام يحتمل خليل المزيد من سخريتها اللاذعة فاحتمد وهو يقول

٢٣. الوسخ اللي بتقولي عليه ده قال أنه حيطلع مصطفى من السجن لو  
واقفتي

٢٤. استمع وجه زينب وخرجت عن صمتها لأول مرة

٢٥. لا والني يا امه... ده أبويا مرضيش يروح له علشان مصطفى...  
٢٦. وحية سيك الحجازي متبعيني علشان مصطفى يا امه

سارع خليل بالقول

يا بت بيعة إيه... جاتك خابط... دا إنتِ حتبطي وتساوري مصر  
وتلبي الأصفر والأحمر وتركبي ال...

قاطعت أم سعيد بصرختها

قوم اطلع بره

بهت خليل وقال

بتطرديني من دارك يا أم سعيد

ولو مكتش أخويا كنت ادبتك بالبلغة كمان

التقط خليل طاقته ومضى يسب ويلعن... وبقيت أم سعيد مع ابنتها  
تحدرد دموعها بلا تحكّم وبلا نجيب حتى عاد سعيد إلى الدار من دكان  
الإمام... انقبض قلبه جزعًا عندما علم من زينب ما جرى أثناء انشغاله مع  
الإمام... هاله أن خاله هو من توسط لتلك البيعة الحقيرة، وزاد من حنقه  
بصمات سيد خطاب الدنسة التي لوّثت داره... استشعرت أمه غليانه  
بسبب خاله فقالت

من الليلة مناش صالح بيه... الشجرة اللي ما تضلل على أهلها  
يحل قطعها

لكن ذلك لم يشف غليله... مجرد طرده من الدار لم يكن كافيًا.

برغم تجاوز زينب السن المناسب للزواج، وتحذير أمها المتكرر بأنها  
على وشك العنوسة، إلا أنه لم يكن هناك شاب في باب الحجازي أو  
ما يجاورها من قرى لا يتمنى الزواج منها... ولا تزال هي نافرة من تلك  
الفكرة بلا سبب واضح... لكن أن تكون نهاية تمنعها هي تلك "الزبيجة"

الغذرة، كان ذلك أكر مما يحتمل سعيد... لم يشعر بنفسه وهو يهرول إلى دار خاله... لم يشعر بنفسه وهو يسحبها وسط عويل زوجته وأطفاله... استسلم خليل لصفعات سعيد وسبابه العيهم... لم يعترض أو يماوم وكأنما كان ينتظر ذلك العقاب ليظهره من الذنب والعار... إلى أن جمع الناس وحالوا بينهما بصعوبة بالغة... البعض راح يطالع وجه خليل الذي تورم كأنما دهسته قاطرة، بينما ارتمت امرأته بجواره تداوي جروحها، وبسب سعيد الذي كان لا زال يلهث ويحاول الوصول إليه من جديد.

في طريق عودته تجنب سعيد الجميع... وبرغم ذلك تناهى إلى سماعه صوت النسوة المجتمعات في مداخل الدور يهمن بأنه ممسوس وأن معرفته هو الذي دفعه إلى ضرب خاله، فيما أخذ الرجال يراقبونه بحذر، كما كد بعضهم أنه مجنون، لا يجالسه سوى كامل المجذوب لأنه على ما تكلمته... لم ينهر أي من الرجال أو النساء جمع الأطفال الذي تبعه إلى داره، يصيحون

شيخ محضر يا شيخ محضر... واللي عليه عفريت يحضر

خرجت زينب من الدار تركض في أثر الأطفال شاهرة نعلها... تلعنهم بسبهم بأمهاتهم... حتى تفرق جمعهم ثم عادت إلى الدار. لم يكن أي من أهل القرية يعلم ما أقدم عليه خالها وما أسهل أن يلقي الجميع باللوم على أخيها.

تلك الليلة أعدت زينب العشاء وأحضرتة إلى سعيد الذي هرب إلى سطح الدار ليقيم وحيداً... لم تحدثه... لم تشكره على ما فعل من أمائها... فقط ظلت بجواره تطالعه... تحمل عيناها أسمي معاني العرفان... مميل التي لن تنقلها كلمات البشر.

(٩)

تساقطت الأمطار على شوارع باب الحجازي الترابية فأحالتها إلى  
وحل لزج، وتجمعت المياه في برك صغيرة أثارت هدوءها الأقدام  
المسرعة بالعودة إلى دفء البيوت واتقاء المطر المنهمر... وسط ذلك  
المشهد بدت السيارة البويك التي تشق الطريق مخلفة وراءها آثار  
عجلاتها العريضة، بدت خارجة عن السياق... حتى أن بعض الأهالي  
توقفوا برغم المطر ليتبينوا السيارة وراكبيها... لحظات وترجل منها  
شاب ذو شعر قصير ولحية نابتة... وجهه الطويل وعيناه الواسعتان التي  
تشعان قوة، برغم رأسه المنكسة، مع طوله الفارع يشعر أنك أنه شخص ذو  
شأن... كان ذلك وجهًا كادت باب الحجازي أن تنساه... بخطوات ثقيلة  
توجه الشاب إلى دار علي الرفاعي متجاهلاً تلك العيون التي تحاول تبين  
وجهه... طرق الباب وظل صامتاً كالحجر حتى فتحت زينب.

مصطفى !!



رددت جدران الدار صرخة عدم التصديق التي أطلقتها زينب وهي  
.. من أخواها بينما تنهمر دموعها بلا تحكم... هرول إخوته الصغار  
.. فجتا على ركبتيه يحتويهم بين ذراعيه... ثم كان عناق سعيد الذي  
.. من الكثير من المشاعر المترابكة... هكذا بلا مقدمات عاد مصطفى...  
.. أمه، مادام مصطفى حزين أمه التي لم تكف عن البكاء طوال تلك الليلة...  
.. جت دموع الفرح بعودته بدموع الحزن على ذكرى والده الذي مات  
.. بحسره عليه... لكن الذي عاد لم يكن مصطفى الذي ترك باب الحجازي  
.. ما يربو عن عشرة أعوام... تركت به نومة "البورش"، الذي لا يكاد  
.. مع لفرد واحد، والجدران الرطبة التي تعج بالبق والإهانات التي تلقاها  
.. أثناء فترة اعتقاله، تركت ندوباً في نفسه لا تلتئم... ليخرج فيجد فاجعة  
.. في والده في انتظاره... لا توجد كلمات لوصف شعوره بعد عودته  
.. إلى باب الحجازي... كان كمن بعث من قبره فوجد سكير الجحيم  
.. في انتظاره، لتبدو وحشة القبر أنسا وضيقة رفاية... تذكره ملابس أمه  
.. التي صبغت باللون الأزرق القاتم إن حاول التناسي بالحداد الدائم التي  
.. فرمته على نفسها... وزينب التي فشلت بدورها في إخفاء تلك النظرة  
.. التي تلومه على موت أبيها، ثم سعيد الذي يتجنبه كلما حاول التحدث  
.. إليه... والأحوال المادية السيئة والعودة لمعيشة القرية بعد أن انس إلى  
.. حياة المدينة.

لم يعد شيء مألوف في باب الحجازي، لم يكن هناك الكثير الذي تغير  
.. بها، لكنه هو الذي تغير... عودته إلى باب الحجازي مثلت له سقطة وردة  
.. حضارية هائلة أثقلت صدره كثيراً... لم يستطع التوقف عن المقارنة بين  
.. مسألة البيوت المبنية من الطين "النيء" وتلك العمائر الضخمة التي تزين  
.. شوارع وسط البلد... بين أحاديث رواد الأوبرا وحللمهم الأنيقة حيث كان يعمل  
.. معلوما الأثرية وبين أحاديث رواد الأوبرا وحللمهم الأنيقة حيث كان يعمل

في تحصيل التذاكر... ربما تكون تلك المقارنة، حية عقله الباطن، التي منعت عن العودة والاستقرار بالقرية منذ أن فقد عمله بالأوبرا، احتراقها.

سرعان ما لاحظت أمه تلك الحقيقة... صمته المطبق خلال الأيام التالية لعودته أصابها بالحيرة ودفعها للبحث عن وسيلة لكسر صمته وإخراجه من الدار، لذا فقد أصرت أن يذهب بنفسه إلى سراي فؤاد خيرى باشا فور علمها بمجيئه ليشكره والهائم على توسطهما لإخراجه من المعتقل... ولم يبد أن مصطفى يملك الطاقة الكافية لجدال أمه فأذعن لرغبتها وذهب إلى السراي صبيحة اليوم التالي.

بالغ الخفراء في الترحاب بمصطفى لدى وصوله بوابة العزبة... اصطحبه أحدهم في طريق يحيطه من الجانبين تماثيل رومانية بيضاء لأطفال يحملون المشاعل... أخذ يحدثه بلا انقطاع عن مدى تأثره بوفاة والده والعلاقة الخاصة التي كانت تجمعهم به. استرجع مصطفى أيام طفولته حينما كان يرافق أباه أثناء عمله في العزبة التي تصل أطيانها حتى حدود باب الحجازي القبلية... مركز العزبة هي سراي الباشا التي يفصل بينها وبين بعض البيوت الطينية للفلاحين العاملين بالعزبة دوار ضخم يضم مخازن الغلة والأسمدة... إلى جوار الجرن الذي تدرس به الغلال.

أفضى الطريق إلى نافورة من الرخام الإيطالي تترقق منها مياه على تماثيل مرمرية لأربعة نساء يستحمن في هدوء عابث... حاول الخفير لفت نظر مصطفى إلى نهودهن البارزة بابتسامة عابثة... لكن مصطفى كان يطالع السراي المهية المكونة من طابقين... التي لم تكن سوى سراي فؤاد خيرى الصغيرة، فالسراي الكبيرة تقع بهليوبليس.

استقبلت مصطفى على باب السراي ابتسامة الفرجي الساكنة، الذي قاده إلى البهو الرئيسي حيث وجد الباشا جالساً وسط قطع الأثاث



الباب... الباب يا ولد يا مصطفى تحفة... سيك من التخاريف  
اللي الفلاحين يقولوها... الباب ده أثري... أنا لفيت العالم  
وأفهم في التحف والآثار كويس قوي... عمري ما شوفت حاجة  
بالجمال ده... تعرف، أنا محبتش في حياتي قد تمثال ديفيد في  
فلورنس... تسمع عنه؟

هز مصطفى رأسه بالنفي وقد بدا عليه الاهتمام

ده أرقى تحف العالم... تمثال طوله ٦ متر لشاب عريان يحسك  
إنك قزم جنبه، العربي هناك مش حاجة عيب زي النخلف اللي هنا،  
هناك بيقدروا جمال الجسم، وديفيد جسمه آية في الكمال نحتها  
مايكل أنجلو... أكيد تسمع عنه... واقف بشكل يخليك تحس إنه  
مستي اللحظة المناسبة للحركة... حاجة تبعث جواك طاقة وقوة  
في نفس الوقت اللي تحس فيه إنك قزم ضعيف جنبه... حاجة  
تخطف روحك وتخلدك لعالم ثاني كله جمال وصفاء... أهى نفس  
الحالة دي جتلي لما شفت الباب

أخذ نفساً آخر من سيجاره وبدأ أنه شرد بخياله فأصبح في فلورنس  
التي عاد منها منذ أسبوعين... تلك المدينة الساحرة التي شهدت نشوء  
الأويرا... يشحن نفسه بالجمال، جمال المدينة والطبيعة والمعمار  
والنساء والجو... كم تبعد فلورنس عن باب الحجازي البائسة فتبدو أنها  
في بُعد وفلك مختلف. كانت هذه وغيرها من السفريات التي تملأ حياة  
فؤاد خيرى - الذي مازال كل من يتعامل معه ينعته بالباشا - تمثل ملجأ  
محبباً له من واقع يخضه ويرفض الاعتراف به، وتعيده إلى زمن جميل  
عز أن يدوم... شهر في الشتاء وشهران في الصيف يقضيهما في رحلاته  
الأوربية بين المتاحف والعروض الأوبرالية العالمية... ليحفظ عينه  
وقلبه من نسيان معنى الجمال.

..هد الباشا بعد فترة تأمل طويلة وعدل من وضع قدمه وقال

ديفيد عنده اللي يقدره أما الباب واقع في وسط همج مبيقدروش  
الجمال

دخلت في تلك اللحظة الخادمة تدفع ترولي وضع عليه الشاي وبعض  
المعجاتوه فيما انطلق تروي خارجاً من الباب الذي فتح فكادت الخادمة  
ان تسقط الترولي.

كُل... شاكلك مش عاجبي يا ولد... هي أمك لسه بتأكلك من  
أكل السجن ولا إيه

حاول مصطفى الابتسام مجاملة لمزاحه فخرجت ابتسامة باهتة ولم  
يعد يده تجاه الجاتوه فأضاف الباشا

أنت اشتغلت فين بعد الأوبرا ما اتحرقت

انتقلت بين كذا شغلانة... آخر فترة اشتغلت في مدايغ مصر  
القديمة

هكذا قال مصطفى فارتسمت علامات الدهشة على وجه فؤاد خيري  
قبل أن يقول

من الأوبرا للمدايغ!

صمت الباشا برهة ثم قال

أنت بتفكرني بحال البلد

أخذ الباشا يلوح بيديه في تقزز... يقول أن علاقة الحكّام بالبلد مؤخرًا  
أصبحت علاقة ترمعية، يأكلون من جثة بلد خربة بدلًا من بعثه من ترابه  
لحلته الأولى البهية.

## تعالى أوريك جزء من تاريخ مصر اللي مشوفتوش

اصطحب الباشا مصطفى إلى لوحة عملاقة للخديوي إسماعيل نحد صدارة بهو السراي، بجوار صور العائلة... وقف تحتها، تلتعع عيال العليتان في انتشاء نادر وسوى حاجيه الكئين وأقام ظهره في خيلاء. لتبدو قامته الرياضية البديعة برغم سنوات عمره التي تعدت الخمسين، وبدأ في سرد قصة إنشاء أول أوبرا في إفريقيا والشرق الأوسط التي بناها الخديوي إسماعيل... وفؤاد خيرى راو متمرس كأى عاطل محترف، تدور حياته حول المناسبات الاجتماعية والحفلات. كما أنه يملك زمام تاريخ تلك الحقبة جيداً لعمل جده الكبير في نظارة<sup>(1)</sup> مصطفى رياض باشا إبان حكم الخديوي إسماعيل... مما أتاح له أن يضي الكثير من التفاصيل التي تريد من تشويق سرده للقصة... بدأ فؤاد خيرى بوصف الخديوي الذي كان في قمة حماسه، فهو على وشك افتتاح قناة السويس، الحلم الذي استغرق بناؤه عشرة سنوات كاملة، الحلم الذي توفي في تحقيقه ما يزيد عن ثلاثمائة وأربعين ألف عامل مصري نتيجة أعمال السخرة والكوليرا والجذري، لكن الخديوي إسماعيل لم يكن يعأ بذلك الرقم، هو لم يكن يعلمه في الواقع... كل ما كان يشغله هو الاحتفال بالافتتاح... وكيف سيهر المجتمع الأوربي لإثبات أن مصر لا تقل حضارة عنه، كما أنها فرصة ليثبت استقلاله عن الأستانة.

أطلق فؤاد خيرى زفرة حارة وهو يصف القاهرة التي كانت تنافس أوروبا في جمالها ونظامها وأناقة شوارعها، بالرغم أن أحياءها، قبل تولي الخديوي إسماعيل، كانت تفصلها عن النيل برك ومستنقعات وتلال ومقابر... إلا أن الخديوي استطاع خلال سنوات قليلة تحويل

---

(1) اللفظ الذي كان يطلق على الوزارة في تلك الحقبة.

العالمية إلى باريس الشرق، لتصبح تحفة معمارية تنافس أجمل  
العالم... فخطط الحدائق التي جُلِّيت أشجارها من الصين والهند  
والسودان وأضواء شوارعها التي رصفت بالبلاط وأدخل إليها في  
قاعات السكة الحديد والترام وأنشأ الكباري ككويبري قصر النيل  
في أبو العلا الذي صممه المهندس جوستاف إيفيل صاحب تصميم  
البرج وتصميم تمثال الحرية الذي ذهب إلى نيويورك بعد أن رفض  
أن يكون دميماً في رأيه.

الرغم من ذلك البهاء الذي أصبحت عليه القاهرة، إلا أن شيئاً مهماً  
مقصوداً قبل أن تصبح على أمة الاستعداد لذلك الحفل الأسطوري  
في دُعي إليه أباطرة وملوك العالم وقريناتهم، وأراد له الخديوي أن  
يقيم ألف ليلة وليلة، كان ما يتقص القاهرة هي الأوبرا... فأمر الخديوي  
بإنشاء دار الأوبرا التي بنيت من الخشب وقام بتصميمها المهندس  
الطالبيان أفوسكاني وروسني... ولأول مرة... تعرف العالم على عمل  
السي الأوبرالي الأشهر، أوبرا عايدة، في افتتاح الأوبرا في مصر... أشار  
الناس إلى صورة جده الكبير الذي حضر الافتتاح العالمي في ديسمبر  
كم كانت الأوبرا ملهمة وكم كانت مصر عظيمة.

ماد فؤاد خيرى إلى مقعده وتبعه مصطفى... ختم الباشا قصته عن  
الأوبرا بالنهاية المأساوية التي قضت على تلك المنارة بعد مائة عام من  
الإشراق... احترقت الأوبرا الخديوية في نفس العام الذي سعد فيه  
السادات إلى سدة الحكم... لتبقى القاهرة منذ ذلك الحين بلا أوبرا وبلا  
ممال... راح يسرد بحسرة شديدة عما علمه عن المشروع الذي أرسل  
به "ماكيت" إلى السادات لبناء دار أوبرا جديدة في نفس مكان الدار  
الخديوية التي احترقت، أعدها أعظم المهندسين المختصين بالأوبرا  
وهندسة الصوت لبناء أوبرا تليق بمصر... ومات المشروع بوصوله إلى

استراحة السادات بالقناطر الخيرية وظهر علينا قبح جراج الأوبرا.

تخيل القاهرة تفضل لحد النهاردة من غير أوبرا... حتى حفلات  
أم كلثوم في الخمينات والستينات راحت وراحت معاها طبقة  
الهوانم والباشوات والأفندية المتشكيكين ومفضلش غير الهم

صمت قليلاً ثم لم يتمالك انفعاله فأضاف بعصية

عبد الناصر عمل نفسه نصير الفقرا وحارب الباشوات فظلمنا  
باشاوات الجيش، والسادات جالنا وجاب معاه باشاوات  
الانفتاح، كل اللي عنده دكان جاب توكيل ولا عمل مكتب استيراد  
وتصدير، ويقئ باشا... والأتين مصر بقت أفقر في زمنهم... ده  
غير أن باشاوات عبد الناصر والسادات عندهم عقدة النقص اللي  
مش حتفارقهم... عارفين إنهم باشاوات فالصو... فيتمحكوا في  
ولاد الأصول... الموضة دلوقتي بقت الجواز من بنات العائلات  
الكبيرة... يحاولوا يشترولهم أصل... وبكده يضمنا أنهم  
بقوا باشاوات بنسبهم... وأحفادهم حيقئ بيجري في عروقهم  
دم نضيف... المصيبة إن العائلات الكبيرة بتوافق بالجوازات  
المنحطة دي علشان يبقى ليهم نصب في الثروة اللي نازلة تمطر  
على شحاتين إمبراح وغمضوا عندهم عن أصلهم

أشعل الباشا سيجارًا جديدًا ثم غير دفة الحديث بقوله

ويا ترى السجن الصغير كان زبالة زي السجن الكبير اللي إحنا  
عايشين فيه

تهند مصطفى وقال

السجن ده عالم تاني يا باشا... لقيت نفسي بطولي فيه من غير  
سند، جوه السجن عرفت إن في تنظيمات بتراعي المعتقلين



الإخوان والشيوعيين... ناس تقوم لهم محامين وتراعي بيوتهم  
بره... وتبعثهم أكل جوه السجن كمان، أما اللي ملوش في الطور  
ولا الطحين زي حالاتي يفضل مفصول عن العالم ملطشة للكل  
ولما انت ملكش في الطور ولا في الطحين... إيه اللي نزلك  
المظاهرات

كنت نازل مع واحد صاحبي... أهله من البلد هنا بس عايشين في  
مصر... كان نازل مع مجموعة من صحابه وأصر إنني أنزل معاه...  
أنا اتمسكت وهم كلهم هربوا... هو كده يا باشا، قليل البخت  
يطلع له العضم في الكرشة

فهقه الباشا ثم قال بعد أن تمالك نفسه

بره لما تطلع مظاهرات بالحجم ده الحكومة تقعد مع قيادات  
المتظاهرين علشان يشوفوا طلباتهم... تعرف كان إيه رد السادات  
على المظاهرات

تطلع مصطفى إلى فؤاد باشا في فضول فأخبره عن استفتاء "حماية  
أمن الوطن والمواطنين" الذي قرر عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة على  
إشياء المنظمات المعادية لنظام المجتمع أو المشاركة فيها أو التجمهر  
أو التحريض على التجمهر وجاءت نتيجة الاستفتاء بنسبة ٩٩.٤%... ثم  
ضحك حتى سعل وهو يضيف

الاستفتاء ده ملوا استماراته في الإدارة بدون حتى مراعاة  
للكليات... حتى في التزوير مفيش ضمير

ضحك مصطفى فأضاف الباشا

- وبعدين طلع لنا "قانون العيب" اللي يمكنه من رقبة المعارضة

بكلام مطاط... يقولك الحفاظ على قيم المجتمع واجب على كل مواطن... ويحدد عقوبات للتشكيك في سياسة الدولة أو الرسائل السماوية... كأن سياسة الدولة دي حاجة منزلة زيتها زي الرسائل السماوية، والتشكيك فيها يعتبر إخلال بقيم المجتمع يجيبك تحت طائلة قانون المدعي العام الاشتراكي... وطبعاً الاستفتاء على القانون كان أكثر من ٩٩% كالعادة... هو فاكتر إنه كده حيمسك البلد بالحديد والنار وحيكتم الأصوات... نفسه يبقى فرعون حتى لو بقى فرعون على خرابة... زمان الملوك والسلاطين كانوا يسيطروا على العبيد والرعاى عن طريق النبلاء ورجال الدين اللي يمجدوا في الملك... ودول بمفردات اليومين دول هم بشوات الانفتاح وجنرالات الجيش، والمشايخ بتوع العمم والدقون... والسادات جايب معاه الجيش وبشواته الجداد وعايز يحط المشايخ في جيبه علشان يبقى الفرعون الإله

سحب الباشا نفساً عميقاً من السيجار وغرق في صمت عميق ليبدو على وجهه الهم... ذلك الهم الذي لم ينتهي بعودة جزء من أملاكه التي حُرِّمَ من التمتع بها خلال العقدين الماضيين، والتي كانت تشمل عزة كامل التي تتسبب إلى والده كامل خيرى باشا بالإضافة إلى مئات الأفدنة من أجود الأطيان في باب الحجازي... تلك الأطيان التي قضت عليها رة يوليو لتقلب أحواله رأساً على عقب كباقي العائلات الأرستقراطية في مصر بتولي جمال عبد الناصر الحكم وإصدار قوانين الإصلاح الزراعي التي أنت على جزء كبير من ثروته، ووضع الجزء الآخر تحت الحراسة، إلى أن رُفعت الحراسة عن أملاكه منذ سنوات قلائل في عهد السادات. لكن الأملاك لم تكن جُل ما خسرته... فقواد خيرى رجل يعتز بوصف نفسه بالذواقة... رجل يعيش للجمال وبالجمال... لذا فقد سكنت قلبه مرارة مقيمة بعد ترحيل الرقي والذوق الذي كان يميز مصر

«أصبحت في حالة سقوط حر. لتصبح عبارته الأشهر أنه "يعشق مصر  
بأرضه المصريين"»

لم يقطع مصطفى صمت الباشا الطويل إلى أن اعتدل هو وقال

اسمع يا مصطفى... من ساعة ما أبوك مات والعزبة عايزة ناظر...  
أنت من النهادرة حششتغل مكان أبوك... أنا مبجيش لؤم الفلاحين  
ومش عايز صداع... وزى ما انت شايف أنا مبجيش إلا لما الهانم  
تروح لجلسات السماع بتاعتها... إنت مشي أمورك و مترجعليش  
إلا في حاجة تستاهل

لم يخيب مصطفى ظنون الباشا وتحمل أعباء العزبة بالكامل...  
وبمرور الشهور توطدت علاقة مصطفى بالباشا والهانم، وأصبحا  
بحرصان على استعدائه كلما حضرا إلى السراي... وتحسنت أوضاع  
أسرة علي الرفاعي... سعيد برعى الأرض ومصطفى يعمل بنظارة  
العزبة... حتى اعتاد مصطفى روتين حياته الجديد... لكنه لم يألفه  
للحظة... كان لا يزال يحلم بالأوبرا وأيام العاصمة... يحلق في سمانها  
بخياله ويسترجع السفونيات التي حلقت بروحه إلى أبعاد لم يكن  
يعلمها... تدفعه تلك الذكريات بعيدًا عن مجتمعه الجديد الذي يفصله  
عنه مسافة كتلك التي تفصل بين العاصمة وبين باب الحجازي... وبالرغم  
من تصرفه كالغريب المنفصل عن أهل القرية وابتعاده عن المشاركة في  
جلسات السمر على المساطب أو حتى المناسبات الاجتماعية... إلا  
أن ذلك لم يتفصص من مكانته في قلوب أهل باب الحجازي بل زاده  
هية وكلما عزف عنهم زادت مكانته رفعة... هو بالنسبة لهم الأفندي  
المتعلم... كذا أضافت له وظيفته الجديدة كناظر عزبة الباشا مزيدًا  
من الهيبة، خصوصًا مع معاملة الباشا الخاصة له البعده كل البعد عن  
معامته لباقى فلاحي القرية.

كان على سيد خطاب أن يحمل الخبر التيس برفض "الزبيجة" إلى الشيخ أبو خالد... وبرغم اتصالاته العديدة التي كان يلمح خلالها إلى قرب عودته لمصر في إجازة يريد أن يجعل منها شهر عسل طويل، إلا أن سيد خطاب أحجم عن إخباره عبر الهاتف... كان يريد أن يوارى مرارة الفشل مع زينب بحلاوة النجاح في العشر على "ابن الحلال" الذي سيقوم "بفعل الخير" مع الشخص المهم الذي كُلف أبو خالد بمساعدته.

مر ما يزيد على شهرين بعث خلالهما بزهاء الأربعين مرشحاً إلى المعامل الطبية بحثاً عن "ابن الحلال" المناسب حتى وجد ضالته أخيراً فقرر الذهاب بنفسه إلى الشيخ أبي خالد، الذي كان قد وصل مصر بالفعل... ظل طوال الرحلة من باب الحجازي إلى فندق شيرد في وسط البلد يعد ما سيلقيه على أذان الشيخ ليخفف من وطأة الرفض... كما حمل له بعض العروض لفتيات في نفس العمر لعله يرضى بإحداهن بديلة.

جلس سيد خطاب في بهو الفندق الفخم الذي يعج بالسائحات من  
نسيات عدة، شعور كالذهب وسبقان كالمرمر تنهادئ أمامه، تابع تلك  
النحف متقنة الصنع التي أذهبت عنه بعضاً من قلقه حتى هبط إليه الشيخ  
برندي بدلة كاملة مع اثنين من مساعديه عرف من لهجتهما أن أحدهما  
شامي، قصير ممتلئ الجثة ذو وجه أحمر، بينما الآخر مصري نحيل، ذو  
ندبة بيضاء تشق فوده، تقفز من وراء نظارته ذات الإطار الدائري نظرات  
خبيثة لم يرتح لها... حياهم جميعاً وبادر الشيخ فور جلوسه بالقول

أنا حبيت أزفلك الأخبار الحلوة بنفسي

ابتسم الشيخ وهو يتوي في جلسته وقال بصوته الجمهوري العابت

انت ما يجي من عندك إلا الخير يا حاج سيد يا جميل

ناوله سيد خطاب الفحوص الطبية الخاصة بابن الحلال المنشود

مش عايز أقولك تعبت قد إيه لحد ما عترت في ابن الحلال... بس

الحمد لله ربنا هداني ليه في الآخر

قلب الشيخ الفحوصات الطبية في يديه سريعاً قبل أن يناولها لمساعدته

الشامي الذي التقط عينات القراءة وراح يتفحص الأوراق بدقة حتى

تهللت أساريره وابتسم للشيخ الذي قال له

روح بشر الربع

انطلق الرجل فأشار الشيخ لمساعدته المصري بالذهاب أيضاً... نبض

قلب سيد خطاب بعنف عندما اختلى به الشيخ

ألف مبروك يا شيخنا... والله أنت كللك بركة وربنا يبجك

والله انت اللي بركة يا حاج سيد... لكن ترى ألف مبروك هذي ما

هي حججي... تراها حج المريض... إيش أخبار عروستنا الحلوة؟

هكذا أجابه الشيخ بنبرة ذات مغزى فمسح سيد خطاب جبينه بحثاً عن عرقٍ لم يكن موجوداً وقال

دي بت سو متليقش بيك... أنا حَضَرْتُكَ كذا واحدة برقتها تيجي تشوفهم عندنا في البلد وتنقي اللي تعجبك

احمرَّ وجه الشيخ دفعةً واحدة بلا مقدمات حتى أن سيد خطاب بهت وتراجع إلى الخلف قليلاً

هو انت راح تزوجني على مزاج أمك... أنا جولت مين أبغى وانت ما عليك إلا التنفيذ

ارتج سيد خطاب لذلك الهجوم المباغت وتلفت حوله ليرى إن لاحظ أحد من الرواد كرامته التي بعثرت على أرضية الفندق... لم يجد كلاماً يقوله، لم يعتد أن يهينه أحد بهذه الطريقة... وظل ينظر إلى الشيخ حتى حلت عقدة لسانه وقال بحروف مضغوطة من بين أسنانه

انت لو مش جاي لي من طرف ناس غالية عندي كان يبقى ليا رد تاني... أنا مش عيل من العيال اللي ماشيين وراك دول ترعقله وقت ما تحب

إذا مانك واحد من اللي شاغلين عندي، فأنا مانى واحد تجوله ويش يبغى ويش يسوي... لو مالك طريج، دورنا على غيرك

قذفه الشيخ بنظرة تحدُّ واضحة ثم هدأ من لهجته وقال

شوف يا ابن الحلال... ما ترعل متي... بس أنا ذواقه... واللي أبغاه لازم يجيني في الأخير... ويش تريد البنية؟

ابتلع سيد خطاب ما تبقى من كرامته

الموضوع مش موضوع تريد وما تريدش... أهلها رافضين الجواز

من الأصل... إحننا عمر ما حد جه قلنا حتتجوز عيلة من عيالكم  
شهر وبعدين خلاص

ظل الشيخ يحدجه بلا أي انفعال... أخذ سيد خطاب نفسًا عميقًا  
, لعنه في أعماقه وقال وهو يشير لما حوله

أنا مش فاهم إيه اللي عاجبك في البت دي بالذات، يا أبو خالد  
إنت في مصر، أم الدنيا... حوليك البنات أشكال وألوان... ومن  
كل الجنسيات والأعمار... إيه اللي يخليك تاخذ واحدة حافية  
عليها طين وجلخ الفقر

المره العادية ممله... كيف الفيلم القديم اللي شفته ألف مرة...  
لكن البت هادي اكشافي أنا... أخذها وأزينها على مزاجي...  
الطين اللي تجول عليه يحليها ومشير الخيال أكثر من أي فستان  
مكرر على إي حرمة في الفندق... ترى الروح ربك خلجها تبحت  
عن التغير حتى لو كانت في الجنة... وأسأل أبوك آدم يا حاج

أنهى الشيخ عبارته بضحكة عابثة وأخرج من بدته دفتر الشيكات  
, وخط به مبلغًا ومهره بتوقيعه وناول له سيد خطاب

هذا حج ابن الحلال... تكفل بمصاريف السفر وكل شي... أنا  
أدري الأسعار كويس بمصر... وتراني أدري تسعيرتك... لكن  
اعتبر الزيادة هدية مني...

نظر سيد خطاب في الرقم الذي حمل خمسين ألف جنيه زيادة عن  
المبلغ المتفق

أبغاك تجولي ألف مبروك

عاد في تلك الأثناء مساعدا الشيخ... ومال الشامي بقدر ما اتاحت له

سمته على أذن الشيخ فنهض واستأذن في الانصراف مشيراً إلى مساعده  
المصري

هذا فتحي، مصري زيك... تعطيه الأوراق اللي حيحولك عليها  
حج سفر "ابن الحلال" لألمانيا وحا حتكفل بالتأشيرة

ذهب الشيخ مع مساعده الشامي وترك فتحي وسيد خطاب وحيدين،  
أخبره فتحي بالأوراق المطلوبة ثم أضاف بلهجة الناصح الأمين بعد أن  
تعمد إيداء بعض التردد

إفضيله طلبه يا باشا... الشيخ لما يشبط في حاجة يبقي زي العيل  
الصغير... وده مزاج والمزاج غية  
حدجه سيد خطاب بنظرة فاحصة وقال

تقصد إيه

اقصد أن مزاجه غواني وبنات ليل لا مؤاخذه، وأحياناً يحب  
يغير بنت بنوت... وإنت لو جيتله مزاجه تبقى ملكته... سيك  
من الفلوس... أنا عارف إنك مليون يا باشا ما شاء الله... لكن  
الخدمات يا باشا، أكيد إنت عارف أن شيخنا واصل أوي، ده غير  
الهدايا وعقود العمل للحباب اللي حتمطر عليك

بدا التعجب ظاهراً على وجه سيد خطاب وهو يقول

غواني! واحد زيه يشتري أرقى بنات بفلوسه

الشيخ يبحب الغواني... بيقول عليهم ممتعين أكثر... كل ما الت  
كان لها ماضي كل ما كانت مسلية أكثر... يقعد يسمع حكاويهم  
ويضحك على فضايح كبار البلد اللي عدوا عليهم... علشان كده



البت اللي انت حتجبهالوا دي مش حتعمر كبير... واحدة خام  
زي دي حتقتله من الملل

التقط فتحي كأس الشامبانيا الذي لم يكمله الشيخ ونجرعه ببطء ثم قال  
اللي لازم تبقى متأكد منه إن الشيخ حينول مراده في الآخر... لو  
مش عن طريقك يبقى عن طريق غيرك... وكل بني آدم له مكته يا  
باشا

أنهى فتحي عبارته بإبتسامة لزجة ثم نهض ليلحق بركب الشيخ وترك  
سيد خطاب... يلعنه ويلعن "مزاج" الشيخ.

( ١١ )

عايز تعمل خير حاول تصلح البلد مش تهدها فوق راسنا... تبقي  
مغفل لو مستي الناس تقف في وش سيد خطاب... الجعان عمره  
ما يكون حر... والمثل بيقول إن لقيت بلد بتعبد عجل، حش  
برسيم واذيله... وإحنا إتكتب علينا سيد خطاب... ومش أنا ولا  
انت اللي نقدر نغير ده

هكذا ختم الإمام نقاشه اليومي مع سعيد وتركه جالسًا على كرسي  
خشي متهالك في ركن الدكان الضيق وقام لإحدى زبائنه كانت في  
حاجة إلى كبريت... راقب سعيد الإمام... أحيانًا بود أن يصرخ في  
وجهه قائلاً "عمائم على بهائم" أحيانًا يستبد به اليأس ليحل ذلك  
الغضب المكتوم بداخله ويوشك أن يفتك به... لكنه سرعان ما يستعيد  
بالله من الشيطان ليعود إليه بعض من هدوئه وتعود معه حيرته، كيف  
يقنع الإمام، كيف يستحس لقول الحق أمام سلطان سيد خطاب الجائر،

ام يكن في وسعه أن يفقد الأمل... بذل جهدًا جهيدًا لإقناعه طوال  
هور الشتاء الممتدة دون بأس وبلا جدوى... لم يستجب الإمام  
إسلاماته... يذهب سعيد إلى دكان الإمام الصغير يوميًا، فيجادله الإمام  
، منطلق أن دفع الضرر مقدم على جلب المنفعة، وأن تحدي سيد خطاب  
السافر بتحريم تجارته لن يعود على القرية وأهلها بخير أبدًا، فلن يقف  
سيد خطاب بهجروته يشاهد مملكته تنهار دون أن يحرك ساكنًا،  
والضرورات تبيح المحظورات.

في كل جلسة كان سعيد يُطمئن الإمام أن لكل دار في باب الحجازي  
مظلمة مع سيد خطاب، وإن لم يكن لهم قريب باع لحمه فلا بد أنهم  
نصروا من ظلم البحار الذي ترك له سيد خطاب الحبل على الغارب...  
وأنه إن توكل على الله ولم يكتنم ما لديه من العلم بمعرفة حرمة تجارة  
سيد خطاب فإن أهل القرية سيلتفون حوله ويتجمعون تحت رايته  
ولن يتركوا مكروهاً يقع له، راح بلغته الثقيلة وبلسانه العليل يكرر له  
أن الناس خلال السنوات الفاتية اقتربت من الدين على يديه وأن خطبه  
كانت تعظم حرمان الله في قلوبهم.

إلا أن كلامه كان يقع على صخرة صماء، فيثور الإمام في وجهه  
قائلًا أنه يسبح في أحلام اليقظة وأن سخط الناس على سيد خطاب لم  
ينتج عنه سوى الصمت المطبق، خوفًا من سطوته، كما أنه لا يجبر أيًا  
منهم على فعل الحرام الذي يقدمون عليه طواعية... والسبب الحقيقي  
في عدم الاعتراض هو الفقر... تلك السبة التي طالت جميع أبناء القرية  
فجعلتهم يفتهمون بل ويقدمون الأعذار للمشاركين في تلك التجارة  
بعد أن أضحي سد الأفواه المفتوحة مهمة مستحيلة يصبح بيع اللحم  
معها شيئًا مقبولًا بل يجده البعض منطقي... والعائد على "ابن الحلال"  
يكون سخياً... قد يصل إلى قيراط من الأرض في بعض الحالات... مما

يكسب البيعة كثيرًا من الإغراء، وأنه لن يضحى بنفسه أملًا في غضب  
الناس الذي لن يأتي.

راقب سعيد الإمام الذي راح يضحك مع العارة الذين يحيونه بحرارة  
وود... كم كان يتمنى لسانًا فصيحًا ليقف في وجه سيد خطاب بنفسه،  
لكنه قرر أن يجتر مرارته ويحاول معه في الغد لعل الله يشرح قلبه  
للحق... عاد الإمام وجلس بجواره يستمع إلى الراديو ذي البطاريات...  
الذي خرج منه صوت المذيع يقول:

لييك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك  
لك لبيك، بهذه التلبية الصادرة من القلوب والحناجر إخوة  
الإيمان، يقف ملايين الحجيج على صعيد عرفات... جاءوا من  
جميع أنحاء البسيطة يرفعون إلى الله أكف الضراعة بالرحمة  
والمغفرة

التفت الإمام إلى سعيد

ادعي إن ربنا يهدي الحال يا سعيد... النهاردة عرفة والدعوة  
مستجابة... ادعي إن ربنا يهدي سيد خطاب... هو اللي كبه علينا  
وهو قادر يهديه

لم يعلق على قول الإمام... ودعا الله مخلصًا من أعماق قلبه أن  
يخلص باب الحجازي من سيد خطاب ثم نهض ليغادر فسأله الإمام

على فبن؟

ححححروح... ... الغبط

لم يكذ سعيد يخطو بضع خطوات باتجاه داره حين خرج الإمام من  
دكانه يناديه ليعود قائلًا

## حيك يخطب

عاد سعيد مسرعًا إلى جلسته الأولى... يستمع إلى صوت "السادات"  
الذي خرج من الراديو يقول

اسمحو لي أولاً أن أتوجه إلى السيد رئيس الكنيست بالشكر  
الخاص... لإتاحته هذه الفرصة لكي أتحدث إليكم. وحين أبدأ  
حديثي أقول السلام عليكم ورحمة الله... والسلام لنا جميعًا  
بإذن الله.

السلام لنا جميعًا على الأرض العربية... وفي إسرائيل... وفي كل  
مكان من أرض هذا العالم الكبير، المعقد بصراعاته الدامية، المضطرب  
بتناقضاته الحادّة، المهتدّد بين الحين والحين بالحروب الممتّرة... تلك  
التي يصنعها الإنسان... ليقتضي بها على أخيه الإنسان..

جلس سعيد صامتًا كالحجر طوال الخطبة التي امتدت لما يزيد عن  
الخمسين دقيقة... لا يدري كيف عاد بعدها إلى داره، لا يدري إن ودع  
الإمام أم أنه قام بلا مقدمات... انسحب إلى عقله وأفكاره والواقعة التي  
أخلت بتوازنه كليّةً فازداد تلعثمه حتى لم يعد قادرًا على إخراج كلمة  
واضحة ولم يعد أحد في الدار يتبين ما يقول... انقطع عن جلساته مع  
الإمام واعتكف في داره لا يُخرجه منها إلا العمل في الغيط ثم يعود بعده  
إلى عزلة.

عانى سعيد حيرة وتشردنًا عقليًا لا قرار له، فهو لم يعرف ما سمعه عن  
خطاب السادات الذي تحدث فيه عن استعداده للذهاب إلى إسرائيل من  
أجل السلام أي اهتمام، اعتبره زلة لسان أو كلام خطب، أما أن يذهب  
الرئيس المؤمن فعليًا إلى دار اليهود بقدميه فتلك طامة أخرى... كان  
اعتقاده دومًا أنه لم يمكن للإسلام في بر المحروسة مثلما مُكن له في

عهد السادات... فقد أطلق الإسلاميين وحل جبههم بل ويمكن لهم في الجامعات والنقابات حتى علا صوتهم على من سواهم، طالما أكد الأستاذ عبد الحميد له ذلك، وكذلك أكدت كل جرائد الدعوة التي كانت تصله... فما باله يركن إلى جانب الصهاينة قلة الأنبياء وأحفاد القردة والخنازير في عصر نحن من يمتلك به ناصية النصر... كيف ذهب السادات إلى القدس المحتلة يخطب في الكنيسة بينما الحجيج وقوف على عرفات يتהלون إلى الله بتحرير القدس من اليهود... هكذا راحت الأفكار تتصارع داخل عقله وتدق كل خلايا مخه فتطحنها طحناً.

قادته حيرته إلى الباب، فلم يجد عند الشيخ عبد الكريم ما يشفي حيرته، الرجل صامت وإن تكلم فهي طلاس تحمل أكثر من معنى... ذهب للأستاذ عبد الحميد يقرأ كل المقالات التي كُتبت في الجرائد التي يجلبها معه من المركز... كلها تنطق بما ينطق به الأستاذ عبد الحميد عن خطوة السادات الشجاعة وتشيد بعبقرية رجل الحرب والسلام... لم يقتنع بأي من ذلك وقاده البحث عن إجابة تداوي حيرته، بعيداً عن الجدل العقيم بباب الحجازي وعن شطحات الأستاذ عبد الحميد، إلى أحد المساجد في قرية ميت الشوكة المجاورة حيث اشتهر شيخ بأحد مساجدها بعلمه الواسع وجراته العاتية، هناك تعرف لأول مرة على الشيخ محمود قطب، كان مسجده صغيراً بسيطاً على تقيض جامع الحجازي الضخم. ضاق المسجد الصغير بمحبي الشيخ محمود الذين احتلوا الطرقات والساحات المجاورة للمسجد للاستماع إلى درس الشيخ... كان سعيد يسمع عن الشيخ لكنه لم يحضر له درساً من قبل... كتب سؤاله في ورقه وصلت إلى الشيخ بعد أن فرغ من درس الثلاثاء دفقاً للخرج من كثرة التلثم.

انتظر سعيد الشيخ، الذي جاءته العديد من الأسئلة الشرعية، حتى قرأ

والله، صمت الشيخ قليلاً ففقد سعيد أن الشيخ ذا الوجه المفضن والظهر المنحني آثر السلامة، فهو يعرف أن جدران المعتقل لن تعامل شيخ مثله في عقده السابع جيداً، إلا أن الشيخ أجاب بما لم يتوقعه سعيد أبداً

يسأل سائل عن حكم زيارة عميل الصهاينة أنور اليهود لأوليائه في إسرائيل... وهو سؤال مكرر... أجبت عليه عدة مرات، لكن ربما يكون السائل حديث العهد بمجلسنا لذا فنقول له أن الدولة كالسمك يفسد من رأسه، وأن أخطر أنواع الحكّام هم المنافقون الذين يدعون التدين والدين منهم براء... يتظاهرون أنهم يحكمون وفق ما أنزل الله بينما هم يحكمون أهواءهم

صمت الشيخ المسن قليلاً ليستجمع أنفاسه ثم تلا قوله تعالى:

وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ<sup>(١)</sup>... وحكم الدار هو حكم تلك الأحكام التي تعلوها، فإن كانت تعلوها أحكام الإسلام فهي دار الإسلام وإن كانت تعلوها أحكام الكفر فهي دار الكفر... والآن أجبت أيها السائل بالله عليك... أين هي أحكام الإسلام... انظر حولك وفي قوانينك الوضعية النجسة وأجبتني... عملاء الصهاينة في بلادنا يسرون على الأحكام التي وضعها الغرب الكافر ويتركون أحكام الله التي تأمر بكل خير وتنهي عن كل شر... قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى الإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه أو حرم الحرام المجمع عليه أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافراً مرتدّاً بالاتفاق... وختاماً نقول... هؤلاء قوم اتخذوا من اليهود والكفار أولياء فانسلخ عنهم الإسلام فهم لا يحملون منه سوى أسمائهم... هم كفار بالإجماع وإن صلوا

وصاموا... بل هم أسوأ من الكفار، فهؤلاء مرتدون وجب قتلهم.

كاد قلب سعيد أن يتوقف من سرعة النبض وتسارع الأفكار... ما هذا الذي يقوله الشيخ... الرئيس المؤمن كافر... تعالت صيحات الاستحسان والتكبير من بعض الجالسين بجواره بينما شرع الشيخ في الإجابة عن بعض الأسئلة الشرعية الأخرى قبل أن ينتهي درس الثلاثاء وينفض الجمع... ليقفى سعيد في مكانه لا يقوى على تحريك أطرافه... كانت إجابة الشيخ قصيرة محددة... وصادمة محطمة في نفس الوقت... السادات حاكم خارج عن الدين وجبت محاربته لإقامة دولة الإسلام وإقامة شرع الله في أرضه... هكذا قال الشيخ، وكلما ردها وجد لها صدئ داخله، فمن يحالف اليهود لابد أنه منهم، ذلك تفسير يزيل عنه حيرته... لأول مرة يرى سعيد الأبيض أبيض والأسود أسود... قام من جلسته وسار إلى باب الحجازي شارد اللب... وما أن دخل داره حتى شعر بطمأنينة غريبة تجتاحه حتى حلت عقدة لسانه بعض الشيء مع هدوء باله وإنضاج الفكرة في عقله.

منذ ذلك اليوم لم يعد سعيد يحضر صلاة الجمعة في جامع الحجازي ولم يعد يهتم بكتابة الخطب للإمام بل تفرغ بالكامل للغوص في بحور ذلك النبع النقي الذي وجده يخرج من فم الشيخ محمود قطب... وأصبح لحياته نظام جديد بعد أن ألقى على زينب وإخوته النصيب الأكبر من العمل في الغيظ ليتفرغ للذهاب إلى بيت الشوكة لحضور دروس الشيخ محمود قطب... التصق به سعيد أيما التصاق حتى لم يعد يفارقه في درس أو خطبة... وتوطدت علاقته به بالرغم من تغير وجه الشيخ في بادئ الأمر عندما علم بأنه من أهل باب الحجازي... أرض الضلال والبدع والشرك وأهل الغي، كما وصفهم الشيخ... إلا أنه وجد في سعيد نبتة صالحة خرجت من أرض بور فقربه منه... بهت سعيد في البداية لما سمعه في



«روس الشيخ محمود قطب... فقد كان توجهًا جديدًا بالمرّة لما تعلمه أو  
«من قرأه، يتعارض عما نشأ عليه وترعرع في رحابه، لكن الشيخ لا ينطق  
«رفقًا بلا أسانيد من القرآن والسنة... هل يعقل أن يكون كل أهل القرية  
«ملن ضلال... هل يعقل أن يكون كل ما يعتقدون أنه الدين ما هو إلا بدع  
«شرك... هل الشيخ عبد الكريم فاسق، وهل هذا سبب عدم اعتراضه  
«ملن سيد خطاب واستغلاله للباب في تجارته الملعونة؟

وصاموا... بل هم أسوأ من الكفار، فهؤلاء مرتدون وجب قتلهم.

كاد قلب سعيد أن يتوقف من سرعة النبض وتسارع الأفكار... ما هذا الذي يقوله الشيخ... الرئيس المؤمن كافر... تعالت صيحات الاستحسان والتكبير من بعض الجالسين بجواره بينما شرع الشيخ في الإجابة عن بعض الأسئلة الشرعية الأخرى قبل أن ينتهي درس الثلاثاء وينفض الجمع... ليبقى سعيد في مكانه لا يقوى على تحريك أطرافه... كانت إجابة الشيخ قصيرة محددة... وصادمة محطمة في نفس الوقت... السادات حاكم خارج عن الدين وجبت محاربته لإقامة دولة الإسلام وإقامة شرع الله في أرضه... هكذا قال الشيخ، وكلما ردها وجد لها صدئ داخله، فمن يحالف اليهود لا بد أنه منهم، ذلك تفسير يزيل عنه حيرته... لأول مرة يرى سعيد الأبيض أبيض والأسود أسود... قام من جلسته وسار إلى باب الحجازي شارد اللب... وما أن دخل داره حتى شعر بظمأينة غريبة تجتاحه حتى حلت عقدة لسانه بعض الشيء مع هدوء باله وانضاج الفكرة في عقله.

منذ ذلك اليوم لم يعد سعيد يحضر صلاة الجمعة في جامع الحجازي ولم يعد يهتم بكتابة الخطب للإمام بل تفرغ بالكامل للغوص في بحور ذلك النبع النقي الذي وجدته يخرج من فم الشيخ محمود قطب... وأصبح لحياته نظام جديد بعد أن ألقى على زينب وإخوته النصيب الأكبر من العمل في الغيظ ليتفرغ للمذهب إلى ميت الشوكة لحضور دروس الشيخ محمود قطب... التصق به سعيد أيما التصاق حتى لم يعد يفارقه في درس أو خطبة... وتوطدت علاقته به بالرغم من تغير وجه الشيخ في بادئ الأمر عندما علم بأنه من أهل باب الحجازي... أرض الضلال والبدع والشرك وأهل الغي، كما وصفهم الشيخ... إلا أنه وجد في سعيد نبتة صالحة خرجت من أرض بور فقربه منه... بهت سعيد في البداية لما سمعه في

• وس الشيخ محمود قطب... فقد كان توجهًا جديدًا بالمرّة لما تعلمه أو  
• من قراه، يتعارض عما نشأ عليه وترعرع في رحابه، لكن الشيخ لا ينطق  
• فإبلا أسانيد من القرآن والسنة... هل يعقل أن يكون كل أهل القرية  
• ملن ضلال... هل يعقل أن يكون كل ما يعتقدون أنه الدين ما هو إلا بدع  
• وشرك... هل الشيخ عبد الكريم فاسق، وهل هذا سبب عدم اعتراضه  
• ملن سيد خطاب واستغلاله للباب في تجارته الملعونة؟

تعالت أصوات المشاركين في السمعمخانة التي تتربع خلف الباب...  
 غرفة رحبة لا تحمل جدرانها العارية أي زخارف سوى كوة صغيرة في  
 أحد جدرانها وضعت بها لوحة قديمة كتب فيها بخط زخرفي "النجاة  
 في الصبر"... تتصل بها حُجرات نوم أهل الحضرة من الدرايش وغرفة  
 وحيدة للخزين... بالإضافة إلى غرفة أخرى مغلقة لا تُفتح أبداً... يعلم  
 جميع أهل باب الحجازي أنها تحتوي على الخرقة الصوفية، التي يقال  
 أنها تحمل بركات مولانا الحجازي... يؤمن الجميع أنها خرقة أخذت  
 من ثوب الإمام علي بعد مقتله، تربط أجيالاً طويلة من شيوخ الصوفية  
 الذين توارثوها حتى انتهت إلى يد الشيخ عبد الكريم. وبعد اختيار من  
 سيكلف بحملها بعده أصعب قرار يواجهه الشيخ عبد الكريم... ينتظره  
 الجميع بفضول لمعرفة شيخ الحضرة القادم.

يا صاحب القبر المنير يثرب يا متنهى ألملي وغاية مطلبلي

يا من به في النائبات توسلي . وإليه من كل الحوادث مهربي  
يا من نرجيه لكشف عظمة . ولحل عقد ملتزم متصعب  
يا غوث من في الخافقين وغشهم . وريبعهم في كل عام مجذب  
يا رحمة الدنيا وعصمة أهلها . وأمان كل مشرق ومغرب

في ركن بعيد عن وهج لمبة الزيت، جلست نادية هانم وحيدة تذرف  
الدمع في صمت... ترتدي "إيشارب" أصفر صغير فشل في تغطية الجزء  
الأكبر من شعرها الطويل... كانت عيناها معلقة بالشيخ عبد الكريم الذي  
اصقت بعض حبيبات العرق بجبينه بينما تدلني جفنه خلف نظارته  
السميكة كستار يخفي سواد عينيه، كما مال رأسه إلى اليمين بينما يده  
. مر على فخذه على إيقاع الدفوف الذي يتكامل مع الربابة في إضفاء حالة  
مريدة على أناشيد جلسة السماع.

راقبت مصطفى الرفاعي الذي انضم إلى حلقة مكونة من ثمانية عشر  
شابًا وشيخًا جلسوا القرفصاء في ثيابهم البيضاء... ألقى على وجوههم  
الوهج النابع من لمبة الزيت بظلال تتراقص مع تمايلهم يمنة ويسرة في  
إيقاع ثابت... وانطلقت الحناجر في تجانس وهارمونية جماعية خلاصة  
مدح في النبي الكريم.

سرعان ما أعادت نظرها إلى الشيخ عبد الكريم الذي تستمد منه ومن  
الجلسة الكثير من الصفاء... تحاول أن تحاكيه... الجو معاً بالمشاعر  
ونكاد تلمس الوله والعشق الذي يشع من وجوه السميعة النورانية...  
نحملهم عذوبة الأنغام البسيطة وحلاوة الكلمات التي تلمس القلوب إلى  
دنيا غير دنيانا... يصفونها بأنها لحظات من الصفاء الخالص والارتياح

التام الذي لا يشوبه شيء من هموم الدنيا، فقط فرحة لقيا الحبيب بحبيبه... لحظات يسرقونها من بين برائن ضوضاء الحياة.

انتهت جلسة السماع قبل صلاة الفجر مباشرة بقراءة الفاتحة مرات ومرات، لأولياء الله الصالحين والأموات والمكروبيين من أهل القرية، حتى قال الشيخ عبدالكريم "الخاتمة للنبي"، فقرأت الفاتحة هذه المرة بصوت جهوري أنهاه الحاضرون بمسح وجوههم. خرج الجمع يتحس طريقه بينما بقيت نادية هانم جالسة في مكانها تستجمع شتات نفسها... ثم قامت إلى البواب تظالعه بانبهار من يراه لأول مرة... حتى أتاها الشيخ عبد الكريم ليودعها فأوصته أن يدعو لها براحة البال... فدعا لها مما زاد من نحيبها... لا تدري لم تبكي... تشعر أن المكان يطهرها من الداخل فيخرج مع دموعها كل ما علق بروحها من شوائب الدنيا... مرت دقائق قليلة جففت خلالها دموعها وعدلت من هندامها وخرجت من البواب

لم تكن روحها فقط التي تتأثر بجلسات السماع، بل تطرب لها جميع حواسها، فترى الأنوار ساطعة براقه والأشجار ازدادت خضرة والسماء أصبح أزهى والورود ككرنفال ألوان يتصارع لجذب انتباهها، وتصير الأصوات أنقى وأعذب، وتبقى ابتسامة رضا على وجهها لا تمحوها وضاعة الدنيا لفترة.

ابتلع الظلام سيارة نادية هانم التي أفلتها إلى السراي، فيما خرج مصطفى من السمعمخانة إلى صديقه الذي كان يستند إلى جدار المقام يدخن سيجارة ملغمة... ما أن اقترب مصطفى منه وتبين عينه اللتين غطتهما شبكة من الشعيرات الدموية كادت تحيل بياض عينيه إلى حُمْرة الدم

- انت لحقت تطير يا ابن مصر

"ابن مصر" كما يدعوه مصطفى هو آدم السناري... صديق أيام  
الغربة في القاهرة، الذي أصر على اصطحابه إلى المظاهرات التي  
حبس مصطفى بسببها... هجر والداه القرية منذ فترة لكنه عاد إليها  
من جديد ليكتشف نفسه، فان بوهمي يعشق الفلسفة والدخان  
"خصوصًا إذا توافر الحشيش"... جمعت بين مصطفى الرفاعي  
وآدم السناري صداقة من نوع خاص... فهما طرفا التقيض في كل  
شيء تقريبًا، فالأخير هارب من القاهرة وضواؤها إلى هدوء  
القرية على خلاف مصطفى الذي يكره إيقاع القرية المحتضر  
ويتحرق شوقًا إلى القاهرة... كلما اجتمعا كان لهما نقاش طويل  
حول ذات الموضوع... وبالرغم من أن صداقتهما ترجع إلى أيام  
عمل مصطفى بالأوبرا حين كان يلتقي آدم على مقاهي الأزهر  
بعد العمل مع أصدقائه اليساريين من الفنانين والفنانات... إلا  
أن صداقتهما توطدت أوصالها منذ عودة مصطفى إلى باب  
الحجازي... توثقت حول جلسات السماع التي أصبح مصطفى  
يحرص على حضورها وما يتلوها من سمر يتحدثون فيه عما  
يجيش في صدورهم... تلك الجلسات التي تحولت مع الوقت  
إلى انتماء يُشعر صاحبه أنه مختلف عن البقية، وأنه مازال يُبقي  
للأحلام والأسئلة الكبرى مكانًا في قلبه.

توجها إلى جلستهما الخاصة ليطالعا النجوم ويدخنون الجوزة أثناء  
أحاديثهما الممتدة فوق سطح بيت عم آدم السناري، حيث يقيم مؤقتًا  
لبرعي أولاد عمه وزوجته ريثما يعود من سفره إلى ألمانيا لفعل الخير...  
بحسب طريقهما بين الركام وأعواد الحطب حتى وصلا إلى الحصرة  
المفروشة من جلستهما السابقة... أشعل آدم الفحم وقال لمصطفى وهو  
يحضر "الجوزة" بخبرة من لا يحتاج الضوء ليتم عمله

ألف لك سيجارة تجرب... الحشيش من عند المحمدي الم...  
معتبر

انت مبتزهقش. أنا مليش في الحشيش... كبيرى نفسين جوره  
وبعدين مينفesch النهارده بالذات حتى لو عايز... محتاج اذوق  
فايق

إيه... حيمسكوك الوزارة أخيراً وخايف تعك وانت بتفهم  
القسم... وراك إيه النهاردة يا فريد زمانك

ابنم مصطفى وقال

بعد العصر لما أخلص الشغل في العزبة... حاخذ أمي وأخواني  
نزور أبويا

حبكت تزوره بكرة... بقولك المحمدي متوصي بيا

بنحسه بالونس يا جحش... عقبال ما أجي أحسك بالونس كده

ضحك آدم الذي أنهى إعداد "الجوزة". وجلس يسحب النفس تلو  
الأخر فتوهجت الجمرات وتطاير الشرر وتعال ككرة الجوزة واستوى  
مزاج آدم الستاري فتجشأ كقبلة انفجرت قبل أن يقول

متخلي أخوك سعيد يقوم بالمأمورية دي

سعيد مبقناش نشوفه... لازق لشيخ من ميت الشوكة ويقى متبيل  
أكثر ما هو متبيل

ولما هو بتاع مشايخ مبشوفهوش معاك في جلسات السماع يعني  
لا ما هو مش بتاع الشيوخ دول... سيك منه... لو أبويا عايش جايز  
كان عرف يعقله



ت. آدم برهة أخذ خلالها نفساً عميقاً من الجوزة قبل أن يقول  
مان يخرج من فمه مع الكلمات

نعرف... الموت هو الحاجة الوحيدة التي تستاهل تعيش  
علسانها... الموت هو الحاجة الحقيقية الوحيدة... لحظة  
التويج... بس عارف يا واد يا مصطفى... الواحد لازم يموت  
موتة تليق به... مش يفارق الدنيا وهو يترعش ويهرب من  
الموت ومديله ضهره

نظر مصطفى إلى السماء التي بدأ يبرغ منها نور صبح جديد يشق  
الأمات الليل... وظل يتفكر في كلمات آدم

أنا نفسي أموت موتة أوبرالي

أفلتت ضحكة آدم الصاخبة قبل أن يتماسك ويقول

ودي تبقى إزاي

تجاهل مصطفى سخريته مجدداً وقال

مش عارف... موتة تحرك مشاعر الناس وتنقلها لمستوى ثاني...  
عارف يا آدم المكان الوحيد اللي خلني لحياتي معنى هو الأوبرا  
وموسيقى الأوبرا... نفسي أموت موتة أوبرالي... حياتي كانت  
حتفرق كبير لو الأوبرا متحرقتش

سحب آدم نفساً عميقاً آخر من الجوزة قبل أن يقول

مش حنطل تعيش في لو... لو كنت لسة في مصر... لو الأوبرا  
متحرقتش... لو مدخلتش السجن... لو أبويا ممتش... قرفتنا يا  
أخي... آه لو كنت معرفتكش

انفجر مصطفى في الضحك فاستطرد آدم بلهجة جادة

حتى لو كل ده محصلش كنت حتبقى تemis برضو... يا ابني  
خدها مني حكمة... إحنا خلقنا للتعاسة... ومن التعاسة تأتي وإلّا  
التعاسة نعود

انت مش فاهمني... قبل سفري لمصر وقبل ما اشتغل في الأوبرا  
كان دايمًا جوايا سؤال، هو الواحد مخلوق علشان يغرق في  
مشاكل البلد والدار... يا أخي العيشة هنا ضيقة لدرجة ممكن  
تطحن أحلام أي حد يفكر في أي حاجة أكبر من لقمة العيش...  
لحد ما اشتغلت في الأوبرا وشفت بعيني إن الأحلام الجميلة لها  
مكان... هناك حيث إن في حاجة أكبر مني ومنك... حاجة تأكد.  
لك إن الدنيا فيها حاجة أكبر من لقمة العيش... حاجة تخليك مش  
عايز الوقت يعدي عكس الخرا اللي هنا اللي خلّي الناس يتمنوا  
يدفنوا بالحياة... الأوبرا دي الجمال ذاته... تعرف أكثر حاجة  
بتبسطني لما فؤاد باشا يكلمني عن أيامها و..

قاطعته آدم بحدّة

متجيش سيرة الزفت الإقطاعي ده وأنا معاك

افلتت ضحكة أخري من مصطفى فأكمل آدم

علني كل حال أهني لحظات مسروقة وبعدين ترجع تأخذ اللي  
فاتك من التعاسة يا ابن الرضي

انفرجت شفتا مصطفى ليرد... لكن صوت عويل النساء الذي دوى  
في ساحة الدار لم يمهلها لينطق حرفًا.

### (١٣)

ما أن برزت الشمس من خدرها صباح ذلك اليوم حتى توالى الأحداث الجسام في العصف بباب الحجازي كزعابيب أمشير... البداية كانت تلك المصيبة التي حلت بابن الحلال الذي ذهب لفعل الخير مع الشيخ الخليجي، فبعد سفر الرجل إلى ألمانيا لإتمام العملية توفي في المك البلاد البعيدة وعاد إلى باب الحجازي محمولاً على الأعناق، ولم يكن ذلك الرجل سوى عم آدم... وأحد أبناء عائلة السناري.

خرجت البلد عن بكرة أبيها تشيع جثمانه في مشهد مهيب قابض... ١.١. الحزن جلياً على وجوه جميع أفراد العائلة، إلا أن وجه كبيرهم، الحاج محمد السناري، كان أكثرهم كمدًا... ظلت يدها ترتعشان من فرط الغضب طوال الوقت... وراحت النساء المتشحات بالسواد تنوح بينما الفت أرملة المتوفى نفسها أرضاً، تردد المقابر أصداً صراخها وهي تأخذ من أديم الأرض وتضع على رأسها في هستيريا وصلت إلى الأطفال فراح

بعضهم يبكي بلا سبب واضح... انضمت زينب إلى نساء القرية لمنعه من اللطم وشق جيها... مؤكدين لها أن ما تفعله يعذب المتوفى في قبره

بعد أن فرغ الإمام من إلقاء كلمة مقتضبة والدعاء على قبر المتوفى التقت عيناه بعيني زينب... وبرغم جلال مشهد الدفن الذي فرغ منه للتو وبرغم مرارة الرفض التي لاتزال عالقة بحلقه لكنه كان يتمنى منها نظرة رضا ليركع تحت قدميها... يركع تحت قدميها في التو واللحظة أمام أعين الجميع... لكن نظرة الرضا لم تأت... بل هي نظرات ناربه كوت ما تبقى من كرامته فأطرق أرضاً... ليم تكرهه زينب إلى هذا الحد. وهو الذي لم يحب أحدًا مثلما أحبها... غازل خياله رؤى جسد زينب الوارف وعودها الباسق وقدها الرقيق. إلا أنه استعاذ بالله من الشيطان واستحضر هية الموقف ليصرف تلك الصورة... أنه ضميره كثيرًا أن سمح لتلك الصورة الفاحشة أن تتكون في ذهنه أراد له أن يكون طاهرًا عفيفًا.

انشغل الإمام فور عودته إلى دكانه في قضاء حاجات الزبائن... راح يطالع الفتيات... سيتزوج مثله مثل غيره، وألف من تمنى نسه في القرية... حاول ترديد مقولة أن كل النساء سواسية فور إطفاء النور لعله يستريح... كل ما عليه أن يتقي من تصون عرضه... إلا أن صورة زينب عاودته الهجوم في ضراوة أسقطت حصون التمتع فترك نفسه لخيالاته التي تتلاعب بها غرائزه الجائعة... زحفت الرغبة فوق أسوار حصن مقاومته المحطمة كجيوش المغول تعصف بكيانه وتأتي على كل قواعده دفعة واحدة... لم يعد يستطيع أن يزيلها من خياله... أو لعله لا يريد، شعور جديد لم يألّفه من قبل، دبت الحياة في عروقه الخاملة، غمرته لذة الخيال فأذعن لها وتركها تعبت بجسده. لم يعد يرى بين حشود القرية سوى زينب... كيف صرفه الخوف من نفورها المحتوم عن التفكير في

المشاعر لعن جنبه ألف مرة... ر المطالبة من جديد بحقوقه  
الحب كإنسان.

أملن دكانه وتعمد المرور من أمام دارها لعل القدر يسمح أن يجتمع  
..هـ وجدها في إطار مشترك... وإن كان هذا الإطار هو شارع يفصل  
وما الناس والبهائم... كان يريد أن يحس بلهيبها يحرق خلايا جسده  
جديد... أحس أن القدر يستجيب له عندما لمحها تقود الحمارة تجاه  
المط... خرج اسمها من فمه دون وعي حقيقي منه... عندما التفتت إليه  
مر أن الدنيا تبسم له... عاوده ذلك الشعور الذي يدغدغ خلايا جسده  
..مبغيا... لكن ذلك الشعور سرعان ما تبخر عندما اكفهر ذلك الوجه  
المعبل

عايز إيه

إنت بتكلميني كده ليه يا زينب... أنا ضريرتك في حاجة يا بنت  
الناس... أنا كل ال..

شوف يا ابن الحلال... إحنا لا بنا ضرر ولا نفع... شوف سكة  
تانية غير سكتي

بس أنا..

قاطعة زينب

الله في سماه... تكون فاتح الموضوع إياه تاني أو حتى تكلمني  
لأكون مفرجة عليك كلاب السكك... فاهم

تلك الليلة، غطى الحزن والكآبة على كل دور باب الحجازي حتى بدا  
أن الصمت وصل إلى وحوش البراري فكفت عن النباح وكف الأطفال  
عن الصياح فلم يعد هناك صوت في القرية سوى صوت الفقيه الذي يتلو

ربع حزب تلو الآخر في عزاء أقيم بمنذرة السناري... زاد ذلك الم...  
الحزين من كآبة الإمام... وعقد العزم من جديد على الانتقام لكرامته من  
تلك العاهرة في أقرب فرصة، ليستأصل صورتها التي تشعبت في خلابة  
كالسرطان.

كان الحاج محمد السناري واقفاً على رأس العزاء عندما دخل الإمام  
المنذرة... نظر إليه الحاج محمد بعينين أحس فيهما الإمام بلهب الغضب

يرضي ربنا اللي حصل ده... حنفضل ساكتين لحد إمتى

تحسن الإمام كلامه

ربنا يصبرك يا حاج محمد

أشار الحاج محمد إلى آدم وأولاده المتوفين، الذي جلس بجوارهم  
مصطفى الرفاعي

العيال في قلبها نارح تحرق دار سيد خطاب وهو جواها

تلفت الإمام حوله داعياً الله ألا يكون قد سمع الرجل أحد... نسي كل  
ما يتعلق بزيب وشحد كل تفكيره فيما سيقول كي يتقي المشاكل

ربنا يصبر أهله والبركة فيك يا حاج

منين يجي الصبر... ربنا ميرضاش بالظلم

هكذا قال الحاج محمد بحسم من عقد العزم على أمر ما ولا يريد  
الاسترسال في الحديث فاتجه الإمام إلى أحد المقاعد الشاغرة ومر بسيد  
خطاب الذي جلس منزوياً في العزاء مع بعض أتباعه وأعوانه بينما تجنبه  
جمع المعزين على غير العادة... جلس الإمام مطأطئ الرأس بتظاهر  
بالاستماع في خشوع للمقرئ الذي جلس في واجهة القاعة، بينما عقله

سرعة جنونية... دخول عائلة الساري في مواجهة مع سيد خطاب،  
م ذلك، حتمًا سيفضي إلى تغيرات جذرية في غد القرية... لكن من  
... أن يبقى بعيدًا عن أي صراع محتمل حتى يتبين ما ستفضي إليه  
.. ما أن اهتدى إلى ذلك القرار حتى شعر بشيء من الطمأنينة وبدأ  
الاستماع إلى المقرئ.

عندما عاد الإمام إلى دكانه كان كامل المجدوب يجلس بجواره يمزق  
صًا من الخبز ويرميه لكلبته التي تلتهمه في نهم... بادره كامل قبل أن  
عح الدكان بقوله

سيد خطاب يقولك تحصله على الدوال بعد العشا

مرت تلك الساعة ثقيلة محملة بالاحتمالات السوداء... ما الذي يريده  
سيد خطاب... أكله الترقب حتى دخل الدوار فوجد سيد خطاب  
حالمًا مع ابنه الأكبر، جمال، وهو رجل أربعيني قصير قليل الكلام لا  
يرتاح له الإمام... أشار له سيد خطاب بالجلوس فجلس

الواحد زعلان أوي على اللي حصل ده... شوف يا أخي الواحد  
يروح يعمل خير يتقصف عمره

هكذا قال سيد خطاب في تأثر مصطنع ونظر إلى الإمام نظرة حادة  
اخرقت صدره ونفذت إلى روحه... أدرك الإمام أن الرجل يستنطقه رأيه  
ده قضاء وقدر يا حاج سيد... قضاء وقدر ومحدث يعترض على  
قضاء ربنا

ابتسم سيد خطاب وابنه في رضا فهدأ روع الإمام قليلًا وأدرك المراد  
من هذه الجلسة

- شوف يا حاج سيد... الواجب على المسلم أن يرضى بقضاء الله

تعالى، ويصبر لحكمه جل شأنه، ويعلم أنه تعالى حكيم يدمع  
الأشياء في مواضعها ويوقعها في مواقعها، والمؤمن الحق مهما  
أصابه، يصبر، ويعلم أن في صبره الخير الكثير، بل ربما كان هذا  
البلاء منحة من الله تعالى له لما يترتب عليه من حسن الأثر وعظيم  
الثواب... اسمع قول الله تعالى مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ  
وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ<sup>(١)</sup>... وكمان قال تعالى وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ  
مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ تُدْعَوْنَ لِتُؤْتُوا مِنْهَا شَيْئًا وَلَا تَسْتَكْبِرُوا فِيهَا لِيُنْزِلَ عَلَيْكُمْ  
أَنْزَارًا مِنَ السَّمَاءِ فَيَكْسِفَ بِهَا النَّجْمَ لِكُلِّ أَجْزَاءِ الْكَوْكَبِ<sup>(٢)</sup>... والكلام اللي  
انت قلته، قصف العمر وما شابه... دي وساوس شيطان... فاستعذ  
بالله منه يا حاج... أنت رجل مؤمن ومش أنت اللي تقول كده

هز سيد خطاب رأسه في رضا، وراح الخفر حوله يمضمصون الشفاه  
استحساناً للكلام الإمام... بينما ارتسمت ابتسامة سخرية على وجه جمال  
ابن سيد خطاب الذي قال

الله يفتح عليك يا مولانا... تصدق الواحد ارتاح كثير بعد ما سمع  
الكلمتين دول... عايزينك تريح أهل البلد زي ما ريحتني كده...  
إيه رأيك تبقى خطبة الجمعة الجاية عن موضوع الرضا ده... تقول  
فيها نفس الكلام المريح ده... الواحد عامل على أهل البلد بعدين  
يدخلهم الشيطان ويملا قلوبهم زي ما انت قلت... لازم تنور  
القلوب بعلمك الواسع

لعن الإمام سيد خطاب وابنه في خاطره وقال

أكيد يا حاج جمال... من غير ما تقول

---

رة التغابن - الآية ١١

رة الشورى - الآية ١٠



مرج الإمام من دوار سيد خطاب يلحن حظه العائر الذي وضعه في  
المرحلة وشيكة لا ناقة له ولا جمل فيها... برغم محاولاته المستميتة  
على الحياد لتجنب العاصفة حتى يتبين أي الطرفين سيندو  
سراً... إلا أن طلب ابن سيد خطاب سيضعه في مواجهة عائلة السناري  
...مهما الجموع الغاضبة من أهل القرية... لكنه قدر أن عائلة السناري  
...معين لن يقدرُوا على سيد خطاب... وأنه من الأسلم الركون إلى  
سيد خطاب.

مر يومان بعد تلك الجلسة ويرغم انتهاء العزاء إلا أن مندرة السناري  
أم تغلق على مدار الأيام التالية... لفيف من رجال القرية يذهبون ويأتون  
من المندرة التي أصبحت لا تفرغ... أيقن الإمام أن هنالك شيئاً يُعد  
وجنب حتى المرور من أمام المندرة كي يتجنب أن يراه رجال سيد  
خطاب بجوارها، لكنه كان يسترق الأخبار من رواد دكانه الذين أكدوا أن  
أولاد السناري لن يسكتوا وأنهم يعدون العدة لتقليم أظافر سيد خطاب.  
كما بلغه أن أبناء عائلة السناري وقفوا مع أحد الفلاحين ضد محمد أبو  
خطاب، وهو أحد أعوان سيد خطاب، واستردوا له قيراطاً من الأرض كان  
قد اغتصبه منه بإيعاز من سيد خطاب نفسه... ولم يبد أن سيد خطاب  
سيرد الصاع صاعين كما هي عادته.

انتشر أمل جديد على باب الحجازي... أمل معلق في الأجواء ينعش  
صدور الفلاحين بعد استرداد ذلك القيراط من بين براثن أبو خطاب...  
وعلى التقيض من ذلك أصبح القلق والتحفز بادياً على أعوان سيد خطاب  
ورجاله... حتى افتعل أحدهم مشاجرة مع أحد الفلاحين وانهاه عليه  
ضرباً ليثبت للأهالي، أو لعله يثبت لنفسه، أنهم لازالوا فوق الجميع.

لكن ذلك لم يفت في عضد الأهالي... فتجرأ بعضهم على الشكوى  
علانية من الظلم وأصبحت مندرة السناري تعج بهم ليل نهار... يكاد

الإمام يسمع الآهات التي كتمتها الصدور على مدار عقود ودفنها الفلاحون في الغيطان ورووها بعرق الظلم... يكاد يسمع ذلك الأنين يشق الأرض ويصم الأذان... ازداد عدد زوار مندرة السناري التي تحولت إلى مركز القرية وأهم بقاعها، يحج إليها كل مظلوم... يشكون للحاج محمد ولبعضهم البعض... يشجعهم صوتهم العالي وعددهم الذي يزداد بالبوح بما لديهم... بقول "لا" للظلم وإن لم يكن في وجه الظالم.

وخلال الأيام القليلة التي تفصل الإمام عن خطبة الجمعة، استشرت الحوادث والتراعات بين الأهالي ورجال سيد خطاب على ملكية الأرض الزراعية ثم تصاعد الخلاف على أولوية الري مع القائمين على فلاحة أرض سيد خطاب نفسه في سابقة لم تحدث من قبل... تحدثت عنها القرية طوال الليلة، بعضهم يستكر ذلك التحدي السافر لجيروت سيد خطاب وما سيجره من شر يطال الجميع... بينما البعض الآخر يراها مواجهة تأخرت كثيرًا قائلين في إيمان "ما ياخذ الروح إلا اللئى خلفها

جلس الإمام في دكانه يراقب العارة في توتر... يحاول أن يزن أموره وخطوته التالية التي ستحدد مصيره... هنالك ذلك الصدع الذي شق القرية إلى فريقين وعليه الاختيار... شيء ما تغير في الوجوه، أصبحت الظهور أكثر انتصابًا أم أنه يتوهم ذلك! فجأة أحس أنه يفقد صديقه الذي شاءت الأقدار أن تأتي الفرصة التي قد تمكنه من تحقيق هدفه بينما هو عازف عنها في ملكوت آخر... افتقد وضوح رؤيته وتصميمه على المواجهة... أكان سعيد الرفاعي على حق حين قال أن الرجال سيفنون في وجه الظلم... لكن من أين له باستشراف المستقبل... وكيف له أن يوقن أنه لن يُترك وحيدًا في مواجهة المدفع حين تحين لحظة الحقيقة... كيف سيتغلب أهل القرية على خوف رضعوه أطفالًا حتى أصبح من صلب تكوينهم... وكيف سيراه أهل القرية إن أصبح

إمامهم بوق سيد خطاب بتلك الفجاجة التي طلبها منه ابنه... هل سيحترمه أي منهم بعدها... كادت الأسئلة أن تقضي عليه... تعصر دهنه وتعصف بكيانه... يزداد رعبه كلما اقترب موعد تلك الخطبة التي سيرتبط بها مصيره.

## ( ١٤ )

يبدو أنه مع تمنع زينب تحولت رغبة الشيخ الخليجي إلى هوس...  
فعرض على سيد خطاب أن يكسو زينب من عنقها حتى قدميها بجذائل  
الذهب إن هي وافقت على "الزبيجة" تعجب سيد خطاب من ذلك  
العرض الغريب لفتاة لم يرها سوى مرة واحدة في حياته... "صحيح  
المزاج غلاب" هكذا ردد في نفسه، لكن "مزاجه" اليوم لم يكن رائقاً  
ليتفرغ لتلبية نزوات الشيخ، فهو في مواجهة غضب الناس... لم يكن  
الرجل يقلق من مواجهة كبرى أو ثورة تطيح به، لكنه لن يسمح بأي  
تبجح أيضاً يهدد ولو من بعيد استقرار مملكته... هو فقط في انتظار  
خطبة الإمام التي ستزع فيل الغضب ومن ثم يلحق كل من تجرأ من  
الرعاع درساً لن تنساه القربة بأكملها... لعن سيد خطاب اليوم الذي  
رأى فيه ذلك الفيل الخليجي الذي لم يأت منه سوى المصائب... "حقاً  
لا تأتي المصائب فرادى" ترددت تلك الحكمة في عقله وهو ينهي

مداده لحضور خطبة الجمعة... طمان نفسه بأن الإمام بارع في  
مربك مشاعر أبناء القرية وحتماً ستداوي الخطبة الجروح التي سببتها  
الحادثة.

جلس سيد خطاب في الجامع في مكانه بالصف الأول الذي لا يجرؤ  
أحد على شغله مهما تأخر، صلى سنة تحية المسجد في خشوع وجلس  
رَظْرَ بدء الخطبة بعد أن سلم عليه كل من حوله من أتباعه بحرارة حتى  
انفخ الإمام المنبر وبدأ خطبته

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة  
للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فقد خلق الله الخلق جميعاً لغاية واحدة... لعبادته وحده لا شريك  
له... وقد بين لنا - سبحانه وتعالى - كيفية العبادة، وفصل لنا أنواعها، فثمة  
عبادات الجوارح كالصلاة والصيام... وعبادات أخرى قلبية كالخوف من  
الله، والتوكل عليه، والرضا به، ومن هذه العبادات القلبية التي نتعبد بها...  
الثقة بالله، وصدق الاعتماد عليه، وحسن التوكل عليه، وتفويض الأمور  
إليه

ابتسم سيد خطاب في رضا عن اتجاه الخطبة... وأعجبه نعمة الرضا  
بفضاء الله التي ترن في جميع كلماتها فأخذ يهز رأسه في خشوع كأنما  
يؤمن على كلام الإمام الذي راح يقول

الثقة بالله صفة من صفات الأنبياء... فهذا خليل الرحمن إبراهيم -  
عليه السلام - حينما ألقى في النار كان على ثقة عظيمة بالله حيث  
قال: "حسبنا الله ونعم الوكيل" فكفاه الله كيد الجابرة، وحفظه  
من أن تصيبه النار بسوء، قال تعالى:

قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١) ... ولما فر نبينا - عليه الصلاة والسلام - من جابرة قريش فدخل الغار وقال "حبنا الله ونعم الوكيل"  
"حفظ الله نبيه من كيد الكفار، وحرسه بعينه التي لا تنام"

تصاعدت همسات الجمع بالصلاة والسلام على النبي... قبل أن يردف الإمام بصوته الجمهوري

إنها ثقة الحبيب - صلى الله عليه وسلم - العظيمة بالله، "حبنا الله ونعم الوكيل" قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (٢) ...  
ففي مثل هذه الأوقات العصية التي تعصف بنا كان حبيبنا محمد - عليه الصلاة والسلام - في ثقة عظيمة بالله. ونحن نعمل كقدوتنا...  
ففي أوقاتنا العصية نقول "حبنا الله ونعم الوكيل"

بدأ التوتريغزو أنامل سيد خطاب فراح يتأمل الإمام كأنما يحاول أن ينفذ إلى داخل صدره فيرى ما يخفي... أبحاول أن يمسك العصا من المتصنف حتى لا يبدو منحازًا في وجه غضب الناس فيفقد مصداقته أم أنه يضمر شيئًا آخر.

تأمل أخي الحبيب قول الله تبارك وتعالى وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (٣) ... أنت خليفة الله في أرضه، فكل ما في الكون خلقه وسخره الله لك... لك أخي

---

رة الأنبياء - الآية ٦٩.

رة آل عمران - ١.

رة البقرة الآية .

الفلاح الذي يشقى طوال النهار بحثاً عن رزقه... فهل تقبل على نفسك أيها الخليفة بعد ذلك أن تأكل الحرام؟

نكمن أهمية هذه الخطبة في أن الكثير من بلدنا، للأسف، يأكل الحرام ، امرؤون يتللمون للبشر ليحصلوا على رزقهم. أقول لهم جميعاً انظروا إلى اسم الله الرزاق في القرآن... يقول الله تبارك وتعالى **أَمَّنْ هَذَا الَّذِي رَزَقَهُنَّ إِنَّمَا رِزْقُهُمْ بَل لَّحَوًّا فِي عَنَتٍ وَنُفُورٍ<sup>(١)</sup>**... ويقول تبارك وتعالى **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي سِكِّينٍ مُّيَّنٍ<sup>(٢)</sup>** فكما سبحانه وتعالى لا شريك له في ملكه سبحانه لا شريك له في رزقه. ولا يكتمل إيمان مسلم إلا بيقينه باسم الله الرزاق.

تصاعدت أصوات البكاء من بعض الحاضرين فعم جوٌّ من الوجوم ملئ الجميع... نظر سيد خطاب خلفه نحو صوت النحيب فوجد بعض "أولاد الحلال" قد سالت دموعهم بلا تحكّم... بينما أخذت الجالسين حولهم حماسة الخطبة فراحوا ينظرون إليه شذراً.

وفي الحديث يقول النبي صلى الله عليه وسلم "إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها"... أتؤمن بذلك أم لا؟ فلن تموت ناقص نفس... لذلك أقول لكم مهما زاد عدد من يأكل الحرام فلا تكن منهم، وإذا كثّر عدد من يؤمن بالله الرزاق بالظاهر فقط، فكن أنت من يتغلغل اسم الله الرزاق في خلايا جسده، لأن الله لن يتركك بعد أن تكفّل برزقك... كيف لك بعد ذلك أن تأكل من حرام... وكلنا نعرف أن منا من يأكل من الحرام... عندما تباع لحمك فأنت

---

رة الملك - الآية ٢١.

رة هود - الآية ٦.

تأكل من حرام... عرفت كل الكائنات الله الرزاق من زرع وطير  
وبهائم... إلا أنت أيها الإنسان... أيها الخليفة، فماذا ستقول  
للرزاق يوم القيامة عندما يسألك عن أكل المال الحرام؟ فماذا  
سترد على الجبار يوم العرض!!؟ هل ستقول لم أكن أصدق أنك  
الرزاق؟

انطلقت كلمات سعيد الرفاعي من فم الإمام كالعواصف تهب أركان  
باب الحجازي وتعصف بروح سيد خطاب وتزلزل عروش مملكته...  
تحررت أخيراً كلمات خطبته الحبيسة منذ سنوات طوال

لن نكتفي بالكلام... بل نريد فعلاً وعملاً وتطبيقاً. يا عباد الله  
أشهدوا الله أن باب الحجازي لن تتاجر من اليوم فيما حرم...  
لن تبيع باب الحجازي لحمها بعد اليوم... واعلموا أن ليس كل  
الرزق مال فقط... فتمو زرعتك تحت الشمس رزق، والجار  
الصالح رزق والروح التي في جسدك رزق، والزوجة الصالحة  
رزق والصحة والولد رزق... فاحذر أن تسعى خلف المال الحرام  
فيأخذ الله منك كل ذلك.

تملك الغضب سيد خطاب حتى دقت شرايين عنقه كالأفاعي التي  
تسعي للتححرر من رقبة وتلون كل ما يراه بلون الدم المندفِع إلى مقلتيه...  
هب من جلسته فتبعه رتل من رجاله قبل أن ينهي الإمام خطبته، يدفعون  
في طريقهم الناس بأرجلهم حتى خرجوا من الجامع... أطلق ساقه للريح  
كما لو أن إبليس يطارده ليقتنص روحه. إلا أن كلمات سعيد الرفاعي  
يحملها صوت الإمام الجمهوري لاحتته كأنما تريد أن تقتنص روحه

أقول للجبايرة أن هناك أمواتاً تحت الأرض وأمواتاً فوق الأرض  
تفتنم في مص دمانهم واقتطاع لحومهم... أقول للجبايرة أنكم  
المسؤولون عن اهتزاز ثقة العباد في الرزاق... يا عباد الله إن الله  
- تعالى - قضى على نفسه أن من توكل عليه كفاه، وتصديق ذلك



في كتاب الله: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ<sup>(١)</sup> ومن استجار به  
أجاره... فلا تخشى في الله لومة لائم أو عتو جبار... اللهم اغتنا  
بحلالك عن حرامك واغتنا بفضلك عن سواك  
كان ذلك آخر ما سمع سيد خطاب من الخطبة قبل أن يغلق عليه بابه.

## (١٥)

كان سعيد الرفاعي يستمع بإنصات لدرس الشيخ محمود قطب الذي يلقيه بعد صلاة الجمعة مباشرة، عندما سرت مهمات وهرج ومرج بين الحاضرين على غير العادة في دروس الشيخ محمود حتى أنه لاحظ تغير وجه الشيخ... فقام أحد تلاميذ الشيخ من الصف الأول ومال على أذنه وسرعان ما انبسط أسارير الشيخ الذي قال

يعلم الجميع ما في القرية التي تجاورنا، والتي سميت على اسم ضريح، من شرك وكيانر تر تكب آناء الليل وأطراف النهار... يقول الله تعالى **وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**<sup>(١)</sup>... وكلنا نعلم بفسق كبيرهم الذي استباح التجارة في ما حرم الله

انقبض قلب سعيد... وأحس أن العيون كلها توجهت إليه فانكمش في  
... فيه في حين أكمل الشيخ

لكن من فضل الله علينا أنه مازال في تلك القرية صوت ينضح  
بالحق لا يخشى في الله لومة لائم... لقد أجرى الله اليوم الحق  
على لسان إمام الجامع بتلك القرية فحرم تلك التجارة الملعونة...  
والأخبار التي جاءتنا الآن أن تلك الخطبة لاقت استجابة طيبة من  
أبناء القرية... وذلك إن دل على شيء ف...

لم يعد سعيد يستطيع التركيز فيما يقوله الشيخ محمود... لا يمكن  
وصف شعوره في تلك اللحظة... إنه الحلم الذي عمل من أجله  
سنوات وسنوات... هاهو يتحقق... كم كان يتمنى أن يكون هناك بجامع  
الحجازي الآن ليرى بأمر عينه تلك الاستجابة الطيبة التي يتحدث عنها  
الشيخ... راحت أسئلة كثيرة تدور برأسه... ما الذي أفتح الإمام أخيراً  
بلقاء تلك الخطبة... وما رد فعل سيد خطاب... هل الإمام بخير... ثم  
ما لبثت تلك الأسئلة أن توارت خلف سعادة جامحة... سعادة الإنجاز...  
لم يتمالك سعيد نفسه ففاضت عيناه بالدمع حتى بللت لحيته التي أعفاها  
من الحلاقة على مدى الشهور الماضية... كان بداخله شوق لرؤية الإمام  
 واحتضانه... كان يود أن يطير إلى هناك... لكنه انتظر حتى انتهى الشيخ  
محمود من درسه واقترب منه وحكى له قصته مع الإمام وتلك الخطبة...  
لا يدري سعيد لم قص ذلك على الشيخ محمود... ربما لم يستطع  
الانتظار حتى العودة لباب الحجازي ليشارك الإمام في فرحته... ربما  
كان يحتاج أن يرى نظرة التقدير التي يراها الآن في عين شيخه... لا يدري  
لكنه حكى... ولم يمنعه تلغثه هذه المرة من الاسترسال في حكايته...  
وما أن انتهى حتى قال له الشيخ محمود

بارك الله فيك يا سعيد... بارك الله فيك يا ولدي... حكايتك  
تذكرني بقصة سيدنا موسى وهارون

صمت الشيخ محمود قليلاً وهو يربت على كتف سعيد

لكن الطريق لازال طويلاً يا سعيد... بلدكم يا ولدي بها من البدع  
والموبقات ما يركم أنوف البشر أجمعين

أطرق سعيد ولم يعلق... وأحس أن نشوة النجاح بدأت تسحب منه

تقول لي أن الإيمان بدأ يدب في قلوب الأهالي هناك

أوما سعيد

إذن هم مستعدون لتصحيح عقيدتهم التي طالها من البدع  
والانحراف ما طالها... معركتك التالية مع الباب يا سعيد... مع  
الباب وحارسه الفاسق

استدعى الشيخ محمود أحد تلاميذه وناولها مفتاحاً لمكتبة المسجد  
وسمى له بعض الكتب ليحضرها... ناولها لسعيد وقال له

اقرأ الكتب دي حتى أراك الجمعة القادمة

أخذ سعيد الكتب وعاد مهرولاً إلى بلدته... حتى وصل إليها فوجد  
جمع من الأهالي، أكثرهم من عائلة السناري، ملتفين حول الإمام بالقرب  
من مكانه... وما أن رآه الإمام حتى اتسعت ابتسامته واحتضنه ثم عاد  
للاتخبط في أحاديثه مع المحيطين به... لم يستطع سعيد الاختلاء بالإمام  
في تلك الليلة أو ما تلاها من ليال... أصبحت الخطبة موضوع حديث  
الرجال والنسوة في ليالي السر كما تحول الإمام نفسه إلى بطل شعبي  
واجه جيروت سيد خطاب وحده بلا رهبة، وتحولت خطبته إلى كلمات  
مأثورة بتداولها الأهالي وهم يمصصون الشفاه من حكمته وشجاعته...

ساحكون على منظر سيد خطاب وهو يخرج من الجامع مهرولاً،  
عبت الحكاوي عن أصول الإمام التي قال أحدهم أنه سمع أنها تمتد  
إلى النبي الكريم وأن الإمام من الأشراف... وانتشرت حكاوي أخرى عن  
أعماله الخيرية التي كان يقوم بها في السر ولا يدري بها أحد كي لا يفقد  
، كما أصبح للإمام مريدوه الذين يتبعونه أينما ذهب... تابع سعيد  
أن ذلك دون أن يتدخل ليصحح أو يعترض أو حتى ليأخذ لنفسه نصيباً  
من المجد.

وبينما الإمام ينعم بشعبته الجامعة ويكتوي سيد خطاب بسياط  
العضب المكتوم... انكفاً سعيد على قراءة الكتب التي أعطاها له الشيخ  
محمود قطب عن الصوفية... مرت أيام لا يكاد يقوم خلالها سعيد لقضاء  
حاجته... حتى أنهى مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية وتليس  
إبليس لابن الجوزي... ففقه الشرك البين الذي عاشه ويعيش فيه أهل  
الحجازي... والذي اعتاده القوم حتى صار أمراً مسلماً.

على مدار تلك الأيام التي استغرقها في قراءة الكتب... تغير فكر  
ورؤية سعيد الرفاعي كما يتغير منتج يمر بخط تصنيع ليبرز مغايراً للحالة  
الأولى... وبرغم ثبات كل ما يحيطه في باب الحجازي إلا أن شيئاً لم يعد  
كما كان في عينيه، عادات أهل القرية الجاهلية والاختلاط بين نساء القرية  
ورجالها والبيوت المفتوحة والأصوات العالية وفحش القول وإهمال  
البعض للصلاة والاستهانة بالمحرمات... إلا أن أشد ما أصبح يؤلمه هو  
مقام الحجازي، المقام والباب، رموز الشرك البين.

اشتدت غربة سعيد بين أهله ولم يعد يشعر بالألفة بين أحضان القرية  
التي شهدت صباه وشبابه.. بل صار تواقاً إلى الذهاب لأرض الإسلام  
الأولى... تلك الأرض التي عايشها في صفحات الكتب وعلى لسان  
الشيخ محمود... حيث كان الإسلام نقياً... حيث المجد الذي حققه

المسلمون الأوائل حينما نهلوا من النبع الصافي للإسلام... ساء ذلك التخيل في تشكيل فكرة في عقله لما ينبغي أن تكون عليه بلاد الحجازي... فهو إن لم يستطع الذهاب إلى بلاد الإسلام فإنه بلاشك قادر على نقل الإسلام إلى باب الحجازي... تناول سعيد قلمه وأوراه، وتفرغ لكتابة خطبة جديدة للإمام... خطبة تقطر كرهاً على المقام والبار، وترمي كل من يزوره بسهام الخروج من الملة.

فوجئ المصلون لدى دخولهم الجامع، في صلاة الجمعة التالية، بكم  
 ثير من البيادات الميري تبعثرت أمام المدخل... سرت همهمات بين  
 المصلين عندما تضاعفت المفاجأة بظهور شيخ أزهرى معمم كخطيب  
 جديد للجامع... الخطبة الأولى لذلك الشيخ الخمسيني شهدت حضور  
 رتل من عساكر المركز بينهم المأمور شخصياً، الذي كان له وجه خُلق  
 خصيصاً ليبدو غاضباً، حتى عندما يكون رائق المزاج يستشعر من حوله  
 أنه على وشك الفتك بهم. ارتقى الشيخ ذو العمامة الأزهرية المميزة  
 والجملة والقفطان والحزام الحريري المنبر بينما جلس سيد خطاب في  
 مجلسه بالصف الأول بجوار المأمور، إلى أن بدأت الخطبة... وما أن  
 انتهى الشيخ من حمد الله حتى طفق يقول

وقد نُهي عن الخروج على أئمتنا وولاية أمورنا، وإن جاروا، ولا  
 ندعوا عليهم، ولا ننزع يداً من طاعتهم، بل نرى طاعتهم من طاعة

الله عز وجل، وندعوا لهم بالصلاح والمعافاة... قال تعالى

يَأْتِيهَا الَّذِينَ مَأْمُونُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (١١)

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: من أطاعني فإني أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني. وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً حبشياً مجدع الأطراف. يا حبيبي يا رسول الله، فما الحال إذا رأينا ما يشبه في كونه معصية يصدر من ولاة الأمر... لا تسمعوا كلامي... اسمعوا كلام حبيكم... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات، فميتة جاهلية. كما قال حبيكم عن ولاة الأمر: ألا من ولي عليه وال، آه يأتي شيئاً من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزع يداً من طاعة. طيب يسأل سائل إيه الحكمة، والحكمة الجليلة هي أنه يترتب على الخروج عن طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يتنج من جورهم، بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الأجور، فعلى الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل... وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا بويع لخليفين فاقتلوا الآخر منهما."

اتسعت ابتسامة المأمور في رضا وربت على فخذ سيد خطاب الذي بادلته الابتسامة... جلسا ينصتان إلى الخطيب حتى قام المصلون للصلاة، لا يدرون أين الإمام ومن هذا الشيخ الذي أنهى الركعة الثانية من الصلاة بقوله تعالى: وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مَّصِيبِكُمْ فِيمَا كُتِبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا



... كثير<sup>(1)</sup>. وما كاد ينتهي من السلام حتى قفز العساكر إلى باب الجامع ،  
وآمدوا ينتقون بعض الرجال يقتادونهم إلى سيارة الترحيلات التي وقفت  
... دار الجامع كخزيت جائع يلتهم أبناء القرية.

عدد غير قليل من عائلة السناري أخذ مع من أخذ... لكن كبير العائلة،  
الحاج محمد السناري لم يمس... كان سيد خطاب أفطن من أن يفسد  
الأوزن الدقيق لموازين القوة في القرية... وهو لا بد سيحتاجه عندما  
يهي الأمر إلى التفاوض المحتوم... كما أن الإمام شخصياً لم يمس،  
مام الأهالي منه فيما تلا الخطبة أنه أخبر صبيحة ذلك اليوم بإيقافه عن  
الخطابة في الجامع... هكذا أبلغ رسمياً بخطاب من وزارة الأوقاف  
على يد أحد عساكر المركز بعد أن أعد خطبته وارتدئ ملابسه... بلا  
مفدمات... الغريب أن الجامع لم يكن وفقاً لدئ الوزارة... اعتكف  
الإمام في داره وأغلق الدكان وأغلق معه فمه... إلا أن الفم الذي لم يغلق  
ثان فم آدم السناري ومعه مصطفى الرفاعي اللذين راحا يحثان الناس  
على عدم الخضوع للأمر الواقع.

اعتقل كل من سولت له نفسه تحدي سيد خطاب أو أحد رجاله...  
أخذ وراء الشمس كما قال الأستاذ عبد الحميد في شيء من الشماتة  
الظاهرة بينما يحدث بعض الرجال الغاضبين عقب الصلاة

إيه يا جماعة... أغلب اللي اتأخذوا حرامية ولاد كلب... والله  
بساهلوا أكثر من كده

أجابه أحد الفلاحين في احتداد

يا أستاذ عبد الحميد في عيال كثير من دار السناري اتأخذوا... دول  
كمان حرامية!

بلاش حرامية... مش متريبين يا جماعة... وبعدين إنتم قلفاء،  
ليه... اللي جتاخد غلط أو التحقيق يظهر أن معلوش حاجة..  
حيطلع تاني... واللي على راسه بطحة هو اللي يخاف... الناس  
لازم تعرف إن في حدود

نظر إلى الرجل وأكمل في ما يشبه التهديد

وفي حدود للكلام... ساعات الكلام ممكن يضر أكثر من  
ضرب الفاس... يا رجاله البلد دي من غير الحاج سيد خطاب  
متواش... كلنا عارفين كده... هو اللي عمل لنا قيمة وسط البلاد

قال الرجل في احتداد

قيمة إيه... بأمانة المية اللي مش مكفية الأرض... إحنا لونا قيمة  
صحيح كان البحار ارتجع

أيده آخر قاتلا

إحنا خلاص بنعض في الأرض

فقال ثالث

وبعدين الراجل قال كلام ربنا... والحرام مينمش

والشيخ الأزهري ده قال كلام أمه... مهو كلام ربنا برضو... وده  
شيخ أزهري... يعني متعلم مش زي الثاني اللي محدش عار  
بيجيب كلامه منين

هكذا قال الأستاذ عبد الحميد الذي ظل يهرب ويرغب فيمن حوله.

لم تخل جلسة من جلسات المساطب من تلك النقاشات... وظل  
الشيخ الأزهري الجديد يخطب في الناس... إلا أن هنالك حدود للقوة

ذلك ما بدأ يدركه سيد خطاب في أعقاب خطبة الإمام  
..ملت تلك الفتوى المصيبة... لمس ذلك في نظرات الناس...  
وودهم التي اختلط بها الاحترام الظاهر في الألفاظ بالاحتقار  
..نزاز المبطن في النظرات وتعبيرات الوجه... واعتذار ثلاثة من  
الاد الحلال" عن "فعل الخير" بلا إبداء أسباب ظاهرة... حاول سيد  
عالم ممارسة الإغراءات المادية لكنها لم تجد سوى مع شذمة قليلة  
١٠١ ، سريعاً مع تائب الأهالي لهم على فعل "الحرام" ذلك الفعل  
ابن كان منذ أيام يسمى "فعل الخير"!!

## (١٧)

لم يطل اعتكاف الإمام في داره... طارده الزائرون والمريدون كالذباب... لكنه كان يدرك أن ذلك الذباب هو الذي يوفر له الأمان... هو الذي حال دون اعتقاله مع من ذهبوا وراء الشمس... لم يكن يفصل بينه وبين غدر سيد خطاب سوى ذلك الجدار الرقيق من المردين... لذا فقد عمل على توسعته... ولم يكن بحاجة إلى الكثير من المجهود... فقد انصرف الأهالي عن الخطيب الجديد المندس عليهم وظلوا يستمعون إلى الإمام في الغيطان وعلى رؤوس الشراع وفي البيوت... حتى تحول دكانه الصغير إلى حلقة علم، يتربع في عمقه كشيخ العامود حوله حلقة لا تنفض إلا برحيله... تتناقل كلماته بين الناس لتصل إلى الجميع.

ظل الإمام يتابع جمهور المردين وهو ينمو، يكبر... يتنافسون فيما بينهم للحظوة بمكان أقرب إليه... رويدًا رويدًا حتى عاد التحدي والثقة إلى النفوس... ذلك التحدي الذي أدرك الإمام أن مصيره معلق به... ومع

ي عاد إليه بعض الاطمئنان ووجد نفسه تواقاً لمزيد من السلطة...  
السيطرة... استشرى ذلك النهم في نفسه حتى أصبح يعد الوجوه التي  
مجلسه... يتشي بكل وجه ذي شأن ينضوي تحت عباة.

على النقيض من شعبية الإمام المتنامية فقد حُمل سيد خطاب أوزاراً  
أوزاره فأصبح في ذهن الأهالي هو والشيطان سواء... حتى أن  
الأسعار بعد توقف المساعدة - العربية لمصر عقب زيارة السادات  
إسرائيل تحمله سيد خطاب... فسرت إشاعات في البلد بأنه من تسبب  
في الغلاء انتقاماً منهم... كان الإمام يستمع إلى تلك الإشاعات ويتشي  
بمكانة سيد خطاب المتأكلة.

في تلك الأثناء كان سيد خطاب يحاول جذب الشيخ عبد الكريم  
إلى صفه لتوازن الأمور لكن الشيخ اعتذر بجفاء... هكذا أحس سيد  
خطاب... كما تملكه شعور بأن جميع الأبواب تُغلق في وجهه فلجأ إلى  
الباب الوحيد الباقي له... ذهب إلى المقام وأخذ يدعو... دعا كما لم  
يدع من قبل... وخلال الأيام التالية ساءت حالته النفسية كثيراً... وأصبح  
منقلب المزاج عكر الوجه يصرخ فيمن حوله بلا توقف... ثم اعتزل في  
حجرته ولم يعد يخرج حتى للصلاة فعم التوتر باتباعه.

ذات ليلة دخل عليه ابنه الأكبر، جمال، غرفته ليجده جالساً بجوار  
الهاتف ملتصقاً بالحائط على أريكة بلا ظهر... تنحج جمال لितبه والده  
الذي كان شاردًا لوجوده قبل أن يقول

الرجالة بدأت تقلق من عدم وجودك... والسؤال كبير والكلام  
انتور بابا

الناس مفيش وراها إلا الهم

هكذا أجاب سيد خطاب دون أن ينظر إلى ابنه الذي قال بعد تردد

وانت إيه اللي جابرك على الهم بابا... نروح نقعد في المهندس...  
نراعي المعرض ونشوف أشغالنا في مصر وإسكندرية... ملعوا،  
أبو دي بلد مجلتاش من وراها إلا الهم

نظر إليه سيد خطاب وهو يجاهد لأخذ أنفاسه

عايزني أسيب بلدي يا جمال... عايزني في السن ده أهرب.  
وعلشان إيه، عيل جربوع افكر نفسه شيخ... أنا اللي عملته شيخ  
وأنا اللي فاتح كل بيوت البلد دي، أنا اللي بنيت الجامع وعملت  
للباب قيمة... وتقولي أمشي... دي بلدي، أنا اللي بنتها وحموت  
وأندفن فيها... بيعاقبوني على إيه... أكونش بضربهم على إيديهم  
علشان يعملوا الخير وينفعوا نفسهم وغيرهم... إيه الحرام في  
اللي عملته... واحد مريض ربنا يريد يكتبه عمر جديد على  
إيدي وواحد ابن حلال يساعده وياخدله قرشين ينفع بيهم نفسه  
وأهله... كفرت أنا كده... البلد كلها نسبت لما كانوا يترجونني  
أفضيلهم مصالحهم... متمرش فيهم الخير... كلهم ولاد قحبة

ثم أردف فيما يشبه الصراخ

علي الطلاق ما أنا سايبهم... وبكرة يعرفوا إن الله حق... كلها كام  
يوم ونخلص من ابن الهرمة اللي صدق إنه شيخ

أشار إليه سيد خطاب ليتركه وحيداً... فخرج دون أن يستفسر عما  
يدبره للخلاص من الإمام... وجلس هو وحيداً يجتر همومه... الآن  
فقط أدركه عمره الذي تعدئ الثمانين... بدأ يدرك أنه قد هرم ولم يعد  
الزمان زمانه... لم تعد له تلك الهيئة التي كانت تكفي لإرهاب الرعا  
وإيقافهم عند حدهم... شيء ما تغير في باب الحجازي بينما كان هو  
في غفلة من أمره... كيف لم يتبه إلى حجم الإمام الذي أخذ ينمو حتى

كيف تجرأ محمد السناري عليه فجأة... كيف تحولت جميع  
...ات الأمان التي كان يعتمد عليها لإحكام قبضته على البلدة إلى  
، نريد أن تقتصر روحه... يعيش كابوسًا يخنقه بينما لا يقوى حتى  
، حريك أطرافه... أحس بضيق وجبل يرسو على صدره فجاهد  
أنفاسه... يتساءل لم يعن القدر الملعون في ذبحه حتى وصل  
... إلى شغاف القلب!

كان يوماً قررت فيه جهنم أن تطل على باب الحجازي... لم يكر الهجير يأتي من السماء فقط، بل قررت الأرض التضامن فأصبح تنفت حممها سخونة لتصهر جثث الموتى الأحياء السائرين في طرقات البلدة حينما جاء رتل من عساكر المركز في سيارتين للشرطة، ركب إحداهما المأمور بنفسه... هبط المأمور بوجهه الجهم في هدوء وأخفى صلته بقبعته بينما قفز عساكره من السيارتين... هرع الرجال والنساء يلتقطون أطفالهم... يسوقونهم إلى داخل البيوت جزعاً من وجوه العساكر المتحفة... بإشارة من المأمور اخترق العساكر في خطوات سريعة إحدى الطرقات الضيقة التي عمزت سيارات الشرطة عن دخولها واقتحموا أحد البيوت وسط عويل النساء من الدور المجاورة... خرجوا في أعقابها يقتادون الإمام في ملابسه الداخلية وقد ارتسمت على وجهه أعتى أمارات الارتياح... اقتادوه عبر الطريق الضيق ومنه إلى سيارة الشرطة... حاول أحد أتباع الإمام اعتراض طريق العساكر فتكتل عليه



مع منهم وطرحوه أرضًا وانهاالوا عليه ضربًا وركلًا في غلّ حيواني...  
أنا لهم المأمور باشمزاز فحملوه وألقوا به إلى جوار الإمام في سيارة  
الشرطة التي ما لبثت أن أطلقت صفارتها وانطلقت تشق طريق العودة  
إلى أن كادت تدهس بائعة الفجل البدينة الجالسة بجوار "الرشاح" على  
دخل القرية.

ما أن استقر الغبار في القرية حتى بدأ الناس يستوعبون الصدمة...  
اهمهم سيل من رجال القرية على مندرة السناري حتى ضاقت بمن فيها  
وتعالت وتداخلت الأصوات الغاضبة

المركز في جيب سيد خطاب

حسيبوا الراجل يتخطف من وسطينا كده

المأمور بيقبض من سيد خطاب وكلنا عارفين كده

وقف الحاج محمد السناري في وسط هذا الغضب الجامح لا يملك  
إسكاتهم أو تقديم حلول فاكفئ بالمراقبة... الرجال يتصايحون فيما  
بينهم فيزيد الهياج من الغضب... حتى ارتفع صوت آدم السناري قائلاً

عايزين نفكر بالراحة يا رجالة

هدات الأصوات قليلاً فأردف

أنا ح أخذ مصطفى ونروح المركز نشوف إيه التهمة اللي  
حشيلوها له

ارتفع صوت من آخر الجمع

متناش الراجل الغلبان اللي اتاخد في الرجلين معاه

ذهب كل من مصطفى الرفاعي وآدم السناري وبعض الأهالي إلى

مركز الشرطة... بينما بقي الرجال في جمعهم بالمتندرة حتى صلاة العصر  
ثم انفض الجمع بالتدريج... وبرغم انصراف الجمع، إلا أن وجوه الرجال  
المكفهرة في الطرقات كانت تنبئ بأن البركان المكتوم يكاد يتفجر ويقذف  
بحممه في وجه الجميع... وهكذا شهدت الفترة الفاصلة بين العصر  
والمغرب العديد من التحرشات بين رجال سيد خطاب والأهالي... لكن  
الأهالي هم من كان يبدأ التحرشات هذه المرة... أصيب أحد رجال سيد  
خطاب بشج في رأسه بعد أن تجمع عليه الأهالي يخرجون فيه غليلهم  
وخوفهم من المجهول الذي يتظرهم... نعم ذلك إلى علم سيد خطاب  
فأحاط دواره من جميع الاتجاهات بالخفر وبقي هو وأهله لا يرحون لها.

بحلول المغرب عاد مصطفى وآدم من المركز إلى متندرة السناري...  
وما أن رأهم الرجال حتى تجمعوا من جديد... توسط مصطفى الجلسة

المأمور مرضيش يقابلنا... لكن احنا عرفنا من الكاتب إن في  
محضر متقدم بيتهمة بتكدير السلم العام... والكاتب قالنا إنه  
ممكن يتحول للمدعي العام الاشتراكي تحت بنود قانون العيب

هكذا قال مصطفى فبهت الرجال لما سمعوا... لم يكن معظمهم  
يستوعب تلك التفاصيل، وإن كان ذكر اسم المدعي العام الاشتراكي  
كفيل لإشعارهم بوقع المصيبة

دلوقتي يا رجالة إحنا عارفين مين اللي ورا العملة دي

هكذا قال آدم السناري وهو يقلب ناظره في وجوه الرجال

ميقاش فيكي راجل يا بلد لو واحد من النهاردة اشتغل في أرض  
سيد خطاب

بهت الجميع ولم يعلق أحد فيما بدا الرعب واضحًا على بعض  
الوجوه... فعدد العاملين بالأجرة في فلاحه أرض سيد خطاب كبير...

، اءاعهم بترك مصدر رزقهم سيكون ضرباً من الخيال.

انصرف بعض الحاضرين في هدوء حذر بينما بقي مصطفى وأدم ، بعض الشباب المتحمسين لتلك الفكرة، بالإضافة إلى مردي الإمام ، من هبت في نفوسهم المروءة من وقع الإهانة... لم يأس شباب ربة وظلوا يتجمعون كل ليلة بمنذرة السناري... يتأسون بعددهم ، الذي يزداد بانضمام المزيد من أهل القرية إليهم... يتباحثون الحلول ، ويطردون ما يتسلل للنفوس من اليأس. نظموا أنفسهم فخرجوا في البداية ، يحاطبون أقرانهم من الشباب ثم توجهوا إلى البيوت التي وقع عليها ظلم سيد خطاب ورجاله من قبل... كان الخوف ميطراً على النفوس التي اعتادت تلقي الصفعات في صمت ذليل... وبرغم المقاومة فقد تزايد مدد من انضم لمصطفى وأدم على مدى أيام فأخذوا يطوفون بدور البلدة ، يستحثون الفلاحين على مقاطعة العمل بأرض سيد خطاب عقاباً له... يستحثون بهم النخوة ويذكرونهم بالمظالم المتراكمة التي اعتادتها باب الحجازي حتى تحولت إلى "سلو البلد" وألفها الرجال حتى لم يعودوا يلتفتوا إليها... الاستجابة كانت ضعيفة... لازال الخوف يسيطر على القلوب... قال البعض أنهم على استعداد لترك العمل إن توحد الجميع على ذلك، لكنهم لن يتركوه فرادى فيقعوا فريسة سهلة تحت أنياب رجال سيد خطاب.

في المقابل تصاعد تحرش رجال سيد خطاب بكل من يعلمون بانضمامه إلى منذرة السناري... ذلك الصباح استل شيخ خفر سيد خطاب طنجته العتيقة... أخذ يأرجحها بين يديه الغليظتين وهو سائر في رتل من الخفر إلى دار أحد المتغييبين عن العمل أمام أعين الجميع... عندما وصل إلى دار الفلاح كان الأهالي قد تجمعوا بالفعل حولها... أحاطت الأجساد بالفلاح وامراته من جميع الجهات فور خروجهم من الدار

الشغل مش بالعافية... والله الغني عن فلاحه أرض سيد خطاب

نظر شيخ الخفر حوله إلى العيون المتحفزة

الإيد البطالة نجسة... حتااكل عبالك منين يا بهيم

تعالّت الأصوات المحتجة وبدأت الاحتكاكات بين الخفر وبين الأهالي المتجمعين حولهم فحسم شيخ الخفر أمره وانسحب يس الجميع بأفزع الألفاظ وهو لا يزال شاهرًا طنبجته في عداء واضح.

قرر آدم التصعيد فور علمه بما صدر من شيخ الخفر فذهب تلك الليلة على ضوء الكلوبات في وفد من الشباب إلى أرض سيد خطاب... تعمل صفوف من النساء والرجال في مكافحة دودة القطن التي كادت أن تأتي على المحصول... راح الشباب يتغلغلون بين الصفوف وسط احتجاجات رجال سيد خطاب... يحثون الفلاحين والفلاحات ذوي الظهور المنحنية على الرحيل وترك العمل... على التوحد في وجه الظلم... اعتلت بعض الظهور... بعضها رحل وبعضها عاود الانحناء من جديد... لكن في صباح اليوم التالي كادت أرض سيد خطاب أن تخلوا من الفلاحين.

وعلى مدار أيام قليلة... وبالرغم من التريغيب والترهيب للعودة إلى الزراعة... تسلح الفلاحون بالجمود في وجه رجال سيد خطاب وتحول الأمر إلى امتناع عائلات بأكملها عن العمل بالأرض... يتكفل كبار كل عائلة بإقناع جميع أفرادها بالكف عن العمل... ويتكافل أفرادها مع من تضرر من قرار العائلة ليقي بيته مفتوحًا لا ينقصه شيء... وهكذا، تحولت أرض سيد خطاب إلى وصمة عار تنال عائلة من يعمل بها.

مع تعطل العمل في الأرض جاهد مقالو الأنفار تحت وعيد سيد خطاب لجلب فلاحين من القرى المجاورة للعمل... لكن الفلاحين

استطاع تدييرهم لم يكونوا بالعدد الكافي لفلاحة الأرض  
أسعة... وكانت الدودة أسرع من تلك الأيادي القليلة التي استماتت  
العمل... وهكذا تبخر محصول سبعين فدان من الذهب الأبيض دفعة  
ومني فريق سيد خطاب بلطمة أذهلته وأذهبت ما تبقى له من  
، وبشت في قلوب أهل باب الحجازي ثقة وفخر لم يعهدوه من قبل.

، انعدام ظهور سيد خطاب أو ردود فعله على ما حل بأرضه، تحول توتر  
اله إلى حسرة على عز ولي... وأصبح الأتباع الذين كانوا ملء السمع  
، ا هريتحاشون الأهالي... واختفت جلساتهم على المساطب وتقوقعوا  
، انفسهم مع تعامل الأهالي معهم كواباء يرجون الخلاص منه... إلى  
دوي صريخ سيارة الإسعاف لأول مرة في باب الحجازي... ترددت  
اله في الشوارع الضيقة وخرج الجميع يفقدون المشهد القريد...  
السيارة تقف بجوار دوار سيد خطاب... وسرعان ما خرج ممرضان  
مهم طيب شاب يحملون سريرًا نقالًا استلقى فوقه جسد سيد خطاب  
اله بل بلا حراك

نصاعدت همهمات المحيطين

ربنا على المفترى

آدي أخرة الحرام

دي دعوة المظلوم

يمهل ولا يهمل

حسبنا الله ونعم الوكيل

نظر إليهم جمال خطاب شذرًا ولم يعلق، وتبع سيارة الإسعاف التي  
محمل أباه بسيارته الخاصة... لم يعلم أهل باب الحجازي ما الذي ألم

سيد خطاب لكن أشيع أنه أصيب بجلطة تركه مشلولاً لا يقوى على النطق... لم يُخف الكثير من الأهالي شماتهم... وأصبحت المعظام التي صبر عليها الأهالي لسنوات طوال هي مسار الحديث في البلدة يتعجبون فيما بينهم كيف طال صبرهم عليها كل هذا الزمن.

وهكذا باتت باب الحجازي ليلتها وطرفا الصراع الطاحن مغيبان عن المشهد... لكن ذلك لم يفت في عضد أهل باب الحجازي الذين قرر بعضهم الاحتفال برحيل سيد خطاب... ربما أرادوا أن يزرعوا داخلهم ذكرى ذلك النصر العزيز كي لا تغدر بهم الأيام ويفعل بهم الزمان أفاعيله فيُخرج لهم سيد خطاب جديد... لكن تلك النشوة تبخرت صباح اليوم التالي عندما انتشرت في البلدة إشاعة بأن سيد خطاب قد أمر المركز بإطلاق زبائنه على باب الحجازي... استبد القلق والخوف بالناس... وسرعان ما تحول الغضب إلى هياج حتى اضطرب بعض رجال سيد خطاب إلى مغادرة البلدة خوفاً من أن تطالهم نيران ذلك الغضب... لكن شيخ خفر سيد خطاب، لم يحالفه الحظ بالخروج بهدوء من البلدة... ارتعشت شفتا الرجل عندما لمح الشر في أعين بعض الشباب المتوتر الذين اعترضوا طريقه، فأخرج طبنجته العتيقة وهددهم بها إن اقتربوا منه... أخذت يده ترتجان حتى تحققت أسوأ مخاوفه... خرج عيار طائش من الطبنجة التي لم تستخدم يوماً فأصاب أحد الشباب الذي سقط وهو يصرخ... كان الهلع البادي على وجه شيخ الخفر كافيًا بشله لكنه وجد طاقة هائلة تندفق في سرايئه... فترك كل ما بيده وتمكن من الهرب بأعجوبة... لم يتوف الشاب... أصاب عيار الطبنجة ساقه وحُمل إلى مستشفى المركز... لكن الغضب الذي فاض من نفوس الشباب تحول إلى وقود للنار التي أحرقت دوار سيد خطاب.

تجمع الأهالي حول دوار سيد خطاب التي يتصاعد منها دخان أسود

باب الحجازي... وقف الجميع في ذهول كأنما لا يصدقون أن  
...ستطيع أن تأكل الدار الوحيدة المبنية بالطوب الأحمر في البلدة...  
...ون كيف واتتهم الشجاعة، أو التهور، لإحراق دوار سيد خطاب...  
...مرك أحد لإطفاء الحريق الذي وحّد الصفوف وألقى بالجميع، حتى  
...إن مترددًا، في خندق واحد... ومع تنفيث الغضب لم يتبق سوى  
...القاتل مما ستحملة الساعات القادمة.

صاح اليوم التالي أفاقت باب الحجازي على إشاعة جديدة بأن  
...أبور قرر ترحيل جميع المحتجزين في سجن المركز، بما فيهم الإمام،  
...إلى سلخانة معتقلات العاصمة انتقامًا منهم. فخرجت جماعة من مريدي  
...الإمام مع العديد من أهالي المحتجزين تجاه المركز، متسلحين بالعصي  
...والمؤوس... كان مشهد زحف الناس على المركز مهيبًا بكل ما تحمله  
...الظلمة من معاني... أذهبت كثرتهم ودفء أجسادهم المتلاحمة عنهم  
...الفلق وبث بهم ثقة نادرة.

لم يكن المأمور حاضرًا عندما حوَصر المركز... لكنه حاول أن يتخيل  
...ذلك الحصار عندما جلس صباح اليوم التالي يستمع إلى الضابط الذي  
...وقف يتلجلج أمامه في محاولة لتبرير اضطراره لتحرير أسر المساجين...  
...أخرج المأمور جام غضبه على الضابط المسكين وأحاله إلى محاكمة  
...عسكرية... لكنه عندما اختلى بنفسه، جلس طويلًا يتخيل ذلك المنظر  
...الذي بدا له ضريبًا من ضروب الخيال... الأهالي يحاصرون المركز...  
...يقذفونه بالحجارة ويهددون باقتحامه بينما يتمترس العساكر داخله ترتعش  
...الأسلحة في أيديهم أمام صياح الرجال... أطلق من صدره نفسًا يحمل  
...لهيب الغضب... ولم يعترف لنفسه أنه شعر بالارتياح لعدم اضطراره  
...لمواجهة الأهالي تلك الليلة... أدرك أن الأساليب القديمة لم تعد تجدي  
...مع واقع القرية الجديد... كان شبح فكرة خيثة يتجسد في عقله، لكنه كان

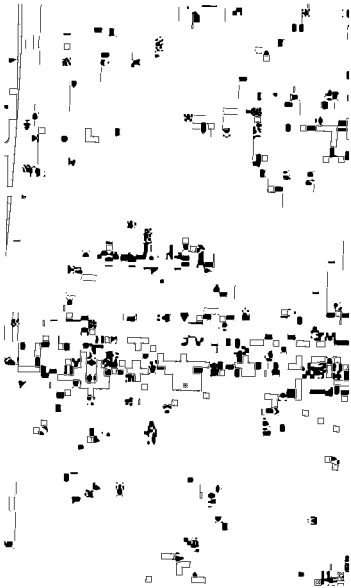
في حاجة لمشاورة تلك الفكرة مع صاحب الشأن قبل التنفيذ.

حملة التفيتش التي تلت تلك الواقعة كانت واهية... وبدأت شكلية إلى حد مضحك... لم يجد العساكر الذين كانوا يتحاشون الاحتكاك بالأهالي أي أثر للإمام أو من هرب معه... ولم يعاود المأمور البحث عنهم... ومع اختفاء العساكر وذهاب القلق نسيًا من النفوس خرج الأهالي الذين عاودتهم النشوة إلى ساحة الباب والشوارع... يتحدثون ويضحكون. وأبدع كامل في تقليد الضباط المرتاعين أمام جيروت الأهالي أثناء موقفه المركز.

لا يتذكر أحد من بدأ ذلك الأمر... لكن مندرة السناري تحولت إلى مركز يحج إليه الرجال والنساء على السواء... كل يحمل ما تيسر من زاد أو كساء... لم يتخلف أحد برغم ضيق الحال... حتى تكومت أرغفة الذرة والحبوب والملابس فبعث الحاج محمد السناري بآدم ومصطفى مع آخرين يدورون بالدور الأكثر عوزًا في القرية في جنح الليل يدقون الأبواب التي كانت تعتمد على فلاحه أرض سيد خطاب وتلك التي كان يخصص لها دخلًا من وقف الباب... يدخلون الطعام والحبوب التي تسد جوع البطون... ويشرق معها ذلك الأمل الوليد في قلوب عز الزمان عليها بالحلم بغد أفضل.



## الفصل الثاني



## (١)

في ليلة صافية جميلة، سبقها ليلتان للحنة، ارتفعت الزغاريد تقاطع  
الفناء الخارج من إحدى دور السناري المتلاحمة كبيت عملاق ذي  
أبواب عدة تلتحف بأكوام الحطب والقش فوق الأسطح، كانت النسوة قد  
انهين من إعداد الطعام الذي حُمل على الرؤوس في طابور أمام المنذرة  
المقابلة بينما يعلو صوت الصبايا من الدار

وسطي بيوجعني من إيه ١؟ وسطي بيوجعني من رقص إيمبارح

يااللي ع الترعة حودع المالح

وشوف الحلوة اللي عودها سارح

أشار الحاج محمد السناري إليهن بإدخال الطعام بعد أن أعدت الحصر  
في المنذرة... وضعت الفتيات الطعام ثم عدن إلى الدار حيث تحزمت  
الأرداف بالطرح وأخذت بالاهتزاز يمنا ويسرة... تنطلق الضحكات

كطيف شفاف وسط الرجال فانفطر قلبها إشفافاً عليه .

توقف الغناء باضطراب عند دخول شاب جاء مهرولاً ليشير للـ  
بالهدوء فور اقتراب الإمام من المنذرة .

شوفي مين اللي شرف... صدق اللي قال... الدنيا زي الغزبة  
ترقص لكل واحد شوية

هكذا قالت أمها وهي تشير إلى الإمام الذي دخل في رهط من أتباعه  
إلى المنذرة وعائق الحاج محمد السناري... لم تمض بضع دقائق حتى  
استأذن مع أتباعه وأدار ظهره ليعود من حيث أتى... إلا أنه رفع عينه  
قبل أن يختفي عن ناظريها... ولو هلة شعرت زينب أن سهم تلك النظرة  
أصابها... شيء ما في عينه يشع طمعاً، نظرة تاجر جشع يسيل لعابه  
لبضاعة يراها زهيدة الثمن... كاد وقع ذلك السهم أن يثير غيبتها... إلا  
أن تصفيق النسوة الذي عاد ليرتفع من جديد برحيل الإمام شتت انتباهها  
فجلست شاردة بينما إحداهن ترقص وسط دائرة من صديقاتها

بس الوله يجي... بس الوله يجي

يجي عالمحطة... وادبعله بطة

يجي عند دارنا... وادبعله حماما

واشاورله يجي... يجي عالتسريحة

وأحطله ريحة

في المنذرة، تلقى مصطفى وصول آدم السناري، الذي أصبح مقيماً  
بدار عمه منذ وفاته وعزف عن العودة إلى القاهرة، بابتسامة عريضة...  
سريعاً ما استقر آدم بجواره بعد أن انتهى من مصافحة الرجال المشغولين  
في الأكل... لم تمض أكثر من ساعة حتى بدأت علامات الاضطراب

عليهما... أشار آدم إلى ساعته قبل أن يعيل مصطفى على أخيه

أنا رايح الجلسة يا سعيد

أعقد حاجبا سعيد وتكدر وجهه فابتسم مصطفى قبل أن يسجبه  
... به من زحام الفرح وسط استكار الأهل... لكن برغم الاستكار إلا  
... الجميع يعلمون أنهما لن يتظرا أكثر من ذلك... فلن يحول شيء بين  
... مبة وبين جلسات السماع.

مصطفى الأورالي لابس جلية بلدي... أنا بحلم يا عالم

الجلية مريحة أكثر يا ابن مصر

والله انت اللي شكلك بعث مصر بالرخيص واشترت باب  
الحجازي

لم يعقب مصطفى واكتفى بالابتسام في رضا... فقد نفذت باب  
الحجازي إلى روحه وتوقف عن بناء عوالم زالت ولن تعود كتلك التي  
نعج بها حكايات الباشا... عاوده معنى "الدار" الذي كاد ينساه... لماذا  
لم يكن ذلك المعنى جلياً من قبل... أم أنه تاه في خضم صخب حياة  
العاصمة وزحامها. في باب الحجازي الأهل جميعهم في دار واحدة...  
والجميع يعرفون بعضهم البعض على نقيض القاهرة المتنافرة، المكونة  
من مجموعة من الغرباء النازحين من كل حدب وصوب، لا يجمعهم  
شيء.. بينما هنا، حتى المقابر لا تفصلها أسوار عن الأحياء من الأهل  
والأقارب... يُقرئون الأموات من الأهل السلام في غدوهم ورواحهم،  
يجتمعون في المحيا والمعات قبل أن يلتم الشمل من جديد في الدار  
الأخرة. ما يخزيه أنه أدرك ذلك بعد فراق والده.

تناهى إلى سمعيها صوت الصبايا المرح الذي بدا خافتاً وهن يبدآن  
وصلة جديدة من الغناء

اندحرج واجري يا رمان

وتعالي علي حجري يا رمان

دانا حجري حنين يا رمان

يخلك ويميل يا رمان

ذكره مرح الفتيات بالقبح الهاجم علي باب الحجازي... الإمام لم يعد له هدف يوجه له سهام الكراهية سوى الباب وعادات أهل البلد. "الجاهلية"... يعتمر بكلماته قلب القرية ليفرغه من كل معاني البهجة والجمال القليلة الباقية للمساكين... تذكر في تلك اللحظة حريق الأوبرا التي عشقها يوماً... أكلما وجد نفسه في شيء احترق... لم يكن يدري وهو يسير صوب الباب أن الإمام لا ينطق سوى بكلمات أخيه الذي تركه للتو.

انضم مصطفى وآدم إلى السميعة علي حصيرة السمعخانة، بدأ الشيخ عبد الكريم الإنشاد بصوته العميق، ترتل خلفه جوقة الدراويش مع إيقاع الدفوف والربابة... مع ذكر النبي الكريم تناسى مصطفى ما يقبل به... خارج عالم الحضرة هناك الباحثون عن السعادة وهناك المتقنون عن الهموم... أما داخل عالم الحضرة فهناك هؤلاء القلة الذين كفوا عن البحث فاهتدوا إلى السكينة.

انتابته صحوة ذات مذاق خاص، حوله تتغير أبعاد القاعة لتصبح أرحب... تباعد الجدران حتى لا يكاد يراها، ويصبح المكان أكثر إضاءة... تزداد حرارة الإنشاد ويعلو الصوت حتى يسمعه نابغاً من أعماقه، وتتمازج وجوه السميعة لتصبح ذات ملامح واحدة نورا... ثم تحلق الأرواح لتنظر إلى سماء زرقاء زهرية بلا غيوم... وبلا حدود... يشعر أن تلك السماء ألقت صدره بعضاً من رحابتها فيختفي ذلك الضيق الذي

ما عليه... يتنفس بعمق، يسمع الهواء يملأ صدره عن آخره ليترخي  
مع كل نفس ومع كل كلمة ذكر ينطق بها. ثم هنالك تلك الرائحة التي  
الرائحة... رائحة كأنما تبعث من أعماق ذاكرته، لا يستطيع تحديد  
ها، إلا أنها تحمل عبق طفولته. ألقى التفكير في الرائحة وراء ظهره  
إلى لجناحيه العنان مع ترتيل "البردة" حتى انجذب، تبدد المكان  
مع الزمان وذاب في الحضرة، يروي روحه المشتاقة إلى الحبيب،  
من الأجساد مع دقائق الدفوف التي راحت تهز القرية حتى جذورها.

محمد سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب ومن عجم

بيننا الأمرُ الناهي فلا أحدٌ أبر في قول لا منته ولا نعم

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته لكل هول من الأهوال مقتحم

دعا إلى الله فالتمسكون به. متمسكون بحبلٍ غير منقسم

فاق النبيين في خلقي وفي خلقي ولم يدانوه في علمٍ ولا كرم

وكلهم من رسول الله ملتمس غرقاً من البحر أو رشقاً من الدير

وواقفون لديه عند حدهم. من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

فهو الذي تم معناه وصورته ثم اصطفاه حبيباً باري النسم

منزلة عن شريك في محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم

دع ما ادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

فإن فضل رسول الله ليس له. حدٌ فيعرب عنه ناطق بضم

في تلك الليلة، وبعد أن انتهت الفرح وبينما السميعة في عالمهم  
الخاص، استيقظت باب الحجازي بعد أن آوى كل حي إلى داره على  
صوت شجار عنيف... فُتحت الأبواب الخشبية وخرج الرجال والنساء

متفخي الأعين يحملن صغارهن على أيدهن إلى مصدر الصوت...  
خرج سعيد الرفاعي تحت أثر خدر النوم ليجد كامل المجذوب بهر  
عليه

الحق خالك ملاته حتخلص عليه

عندما وصل إلى دار خاله، خليل الورداني، كانت زوجته تصر  
في وجهه... تصيح في هتيريا بأنه صرف آخر قرش لديهم في جلد  
القهوة... جرته من شعره في الشارع وأخذت تضربه بنعلها وهي تصر  
فيه بأن أولادها سيموتون من الجوع... الزاد لم يدخل الدار منذ تبهر  
عمله في أرض ميد خطاب. تصرخ المرأة وتردد الطرقات الساك،  
صرخاتها... كل الدور تشكو مر الحال... وكل النساء يتفهمن ما أقدم  
عليه رغم شذوذه... بينما الرجال يعطون العذر لخليل المشعث الشعر  
الذي استند إلى جدار طيني متهدم في استكاته، بعد أن نجح الناس في  
التفريق بينه وبين زوجته... يوزع نظراته الزائغة على من حوله... كيف له  
أن يبقى بداره ليل نهار يحدجه الجوع من أعين أطفاله. لم ينجح الظلام  
في إخفاء وجه خليل المنكسر... ولم تغط أصوات المتجمعين على  
صوت المرأة التي خارت مقاومتها وجلست على باب الدار تولول بقولها

مشتهه ليه يا كفرة

للمحطات، تناسى سعيد شعوره بالتشفي في خاله، الذي جاء ذات يوم  
وسيطاً لبيع عرض اخته، ورأى فيه ذلك الرجل المنكسر فرق قلبه لحاله  
وأخذ يهدئ من روعه

مشتهه ليه يا ولاد الكلب

هكذا صرخت زوجة خاله فانقبض قلبه... الجميع يعلم من تقصد...  
سراً، وإن لم يجزؤ أحد على التفوه بذلك، يتحسر البعض على أيام



مطاب... يسترجعونها في خاطرهم بالكثير من الحنين... الحنين  
المألوف حتى وإن كان مرًا كالعلقم... فهو لن يكون أمرًا من انتظار  
... هول... فرحيله لم يخلف وراءه سوى تلك الأرض البور... كل من  
... شخصية سيد خطاب ويعلم كيف يعمل عقله لم يستغرب ما فعل...  
... معجب من قراره بتبوير أرضه إمعانًا في إفقار الفلاحين الذين تجرءوا  
... كان عليه أن يتنقم منهم وإن كلفه الانتقام آخر نفس له في حياته...  
... استطع أن يرحل بهذه البساطة، فزرع بذور الموت وترك البيوت تدفن  
... ركام الفقر.

كما أن مصيبة بوار أرض سيد خطاب لم تقتصر على العاملين بها، فمن  
... يمتلك بعض القرارات البسيطة تأثر حاله بمغالة البحار في الاستقطاع  
... نصيب باب الحجازي من مياه الري... ولم ينجح الإمام، الذي  
... واجهة البلدة منذ عودته، في تغيير ذلك... تأثرت بذلك الانحدار  
... حتى لهو الأطفال لم يسلم منه... فتحول لهوهم من  
... الغميضة والعبث بالتراب، إلى الضرب وتعذيب الحشرات.

لم يعد لكثير من الرجال مشوى من مطالب العيال التي لا قبل لهم  
... سداها، سوى القهوة المطلة على الترفة، التي أصبحت تعج بالعاطلين  
... العمل، بعضهم يحدوه الأمل في الخروج في تلك الأعمال المتقطعة  
... مع مقالو الأنفار، بينما فقد البعض الآخر الأمل واكتفى بالهروب من  
... الدور الفارغة إلى القهوة تعلق وجوههم غمامة عابسة وتغطيهم أتربة  
... الهموم.

مشثوه ليه يا كفرة

هكذا أخذت تردد المرأة، يشق صريخها صمت الليل، تضرب على  
... صدرها وتلطم الخدود في نوبة هستيرية جديدة.

لم يحسم النزاع ولم يتمكن خليل من دخول داره تلك الليلة سوى بحضور الشيخ عبد الكريم الذي عاتب المرأة على ما فعلته بزوجها وانتحى بها قليلاً ثم ذهب إلى خليل الذي قبّل رأس الشيخ عبد الكريم ودخل داره.

## (٢)

مساء اليوم التالي قطع سعيد المسافة الفاصلة بين باب الحجازي وميت الشوكة عدواً. عند وصوله إلى مسجد الشيخ محمود قطب كان عرقه قد امتزج بالتراب فتحول طيناً يغطي وجهه، إلا أن الطين لم ينجح في أن يطمس تلك السعادة البازغة من عينه والمرسمه على تقاسيم وجهه... لم يبق سوى دقائق على آذان العشاء والمسجد خال إلا من بعض رجال تناثروا في زواياه يستندون إلى الجدران الصفراء بقرب الإضاءات الخافتة يقرأون القرآن. جلس سعيد في ركن المسجد ينتظر قدوم الشيخ محمود لأداء الصلاة... كان يلهث من فرط الترقب والإثارة، يتخيل وقع الأخبار التي يحملها على أذن شيخه.

ما أن هدأت أنفاسه من أثر العدو حتى عاوده التساؤل الذي حاول أن يتجاهله طوال الطريق... لِمَ لم يكن على نفس القدر من الحماسة لثقل تلك الأخبار إلى الإمام... منذ خروجه من السجن لم تعد علاقتهما كما

كانت... هنالك ذلك الحاجز الذي بزغ بينهما... يرفض سعيد أن  
أن ذلك بسبب رواسب رفض زينب للزواج من الإمام... ويرجع  
من ذلك الحاجز إلى مكانة الإمام الجديدة... وذلك التعالي... لا  
تعالياً، بل وقار فرضه الوضع الجديد على الإمام... فهناك حدود للثبات ما  
بين الراعي والرعية... والإمام الآن راع بلا شك... لكن الدافع الآن  
وراء ذلك الحاجز هم بطانة الإمام الجديدة ممن ساعدوه على الهروب  
من الحبس... الذين يهمسون في أذنه بأنه لا يجب أن يُرى كثيراً مع  
المموس" وذلك ما تم منذ عودة الإمام للظهور بعد توقف ملازمه  
المركز... وما تلاها من تغير موازين القوى... فقد أضفى خروج الإمام  
بتلك الطريقة نكهة النصر الإلهي... وتبدلت أحواله تماماً... فتحول من  
بطل القرية إلى كبيرها الذي يعود له الكثير من الأهالي في باب الحجاز،  
في كل أمورهم.

انتزعت من أفكاره الأصوات العميقة التي خرجت من الساعة العملاقة  
المعلقة بجوار المنبر... وشرد عقله قليلاً في مصدر تلك الساعة ذات  
البدول الضخم التي تصرخ تافراً مع بساطة المكان لكنه سرعان ما  
أعاد ذهنه إلى الخبر الذي يحمله... هناك نقاط في حياته، لا يزيد عددها  
عن أصابع اليد الواحدة، يرى أنها أوصلته لحيث هو الآن، ساهمت في  
تشكيل حياته وكونت شخصيته بشكل أو آخر... لكن ليس هناك أغرب  
من أن تتحول حياته لخبر سمعه، وقع على بعد آلاف الكيلومترات في  
بقعة بجهل مكانها على الخريطة... لكن ذلك بالتحديد ما حدث معه  
اليوم... فمنذ ما يقرب من عام وبينما هو في غفلة تامة عما يدور في  
ذلك البلد البعيد... وفي عشية رأس سنة ١٩٧٨ على وجه التحديد...  
وقف الرئيس الأمريكي جيمي كارتر مرتدياً بذته كاحلة السواد ورابطة  
عق حمراء ليلقي كلمته في ختام زيارته لإيران... أثنى عليها في وجود  
الشاه، الذي ظل يتابعه بقلق لم تفلح نظارته السمكية في إخفاءه، قائلاً أن

جزيرة للاستقرار في وسط منطقة تموج بالمتاعب، وأرجع كارتر إلى قيادة الشاه الحكيمة وحب الناس له... أتلفت تلك الكلمات الملك وسُلطان السلاطين وظل الله في الأرض، الشاه محمد رضا، الذي أنهى الزيارة بقرع كأسه بكأس الرئيس كارتر ورسم ابتسامة على وجهه، ممنيًا نفسه بإنهاء القلاقل التي تجتاح بلاده بدعم... لكن لم يكن مقدر لتلك الابتسامة أن تدوم، ولعل الشاه اعتبر الرئيس كارتر فيما بعد نذير شؤم.

نحلت تلك الجزيرة المستقرة إلى بلد يشله المظاهرات والاحتجاجات من فساد وديكتاتورية الشاه... وأشعلت كلمات كارتر الشوارع، تلك الكلمات التي حفرت في ضمير كل إيراني، وأكدت نبوءات آية الله الخميني، أن أمريكا تريد احتلال إيران بينما يفض الشاه نظره... فقد تزايد عدد الأمريكيين على الأراضي الإيرانية لصيانة وتدريب الجيش على السلاح الأمريكي الذي أنفق الشاه كل أموال البترول عليه... وهكذا خرج الإيرانيون باليون بإسقاط الشاه، خرجوا من جميع الأطياف والألوان والمشارب كل يحلم بإيران العدل والمساواة والرخاء والحرية.

وسقوط الشاه في أوئل ١٩٧٩... احتفل الإيرانيون، البعض تسكرهم النشوة بلا خمر... والبعض الآخر احتفل بفتح أرقى الخمور الفرنسية المعتقد... ولعلها كانت آخر خمور فرنسية تدخل البلاد بطريقة شرعية... فبعودة الخميني إلى إيران أعلنت جمهورية إيران الإسلامية وأخرست أصوات رفاق الثورة المحتجة.

لم يكن سعيد على علم بأي من تلك التفاصيل حتى صباح اليوم، لكن كعادة الأخبار في باب الحجازي، دائمًا ما ترشح بطرقها الخاصة، فقد حمل ساعي البريد اليوم "مكروب" ابن عمه الذي يعمل عامل محارة بالعراق إلى أهله في القرية... يشكو لهم التوتر الذي خيم على المغتربين

هناك بعد الإشاعات عن قرب قيام حرب بين الرئيس صدام حسين، الذي حرص على ذكر لفظ الرئيس خوفاً من المتاعب إن وقوع الخطاب في أيدي المخابرات العراقية، وبين النظام الجديد في إيران بقيادة الخميني.. ذلك الخطاب أخوه مصطفى... كما أنه علم أن الأستاذ عبد الحميد علام راح يتغنى بقرار السادات الحكيم بإستضافة الشاه المنفي في مصر. أم يكن الأستاذ عبد الحميد يدري في واقع الأمر أن السادات يرد الجميل للشاه... فمذ ستين، وفي لهيب الاحتجاجات التي اعتقل فيها مصطفى الرفاعي كانت طائرة السادات رابضة في مطار أبو صوير استعداداً إلى الفرار به إلى طهران إن حتمت الأمور ذلك عقب المظاهرات التي كاد تطيح بنظامه... كان الشاه في استقبال أصدقائه دائماً مما حتم رد الجميل عندما تبذلت الأدوار.

بالرغم من شهرة إيران منذ زواج الشاه من الأميرة فوزية أخت الملك فاروق... لكنها بدت أرضاً بعيدة لا تستدعي أحداثها الاهتمام... ولم يكن للخبر صدئ في باب الحجازي، فلم يعرفها من لم يكن له أقارب في العراق أي اهتمام... إلا أن أذن سعيد الرفاعي أطربها وقع كلمة "إسلامية" جمهورية إيران "الإسلامية"... ما أجمل نغم تلك الجملة الساحرة على أذنه... لم تعد الماركسية أو الشيوعية أو الرأسمالية هي الدواء لألم الشعوب ومصدر طلب العدل والتقدم...! الإسلام... ما أحناه وما أعظمه من دين... إذن فقد صدق الشيخ محمود.

ما أن وصلت أفكاره إلى الشيخ محمود... وكان خاطره قد ناجاه... دخل الشيخ الهزيل في جمع من مرديه مرتدياً جلبابه الفضفاض وسرعان ما انهمك في سنة تحية المسجد قبل أن تتاح له فرصة الحديث معه... لم يستطع سعيد أن يخشع كعادته في الصلاة هذه المرة... تتخاطفه الخواطر والأحلام... وبمجرد فراغه من الصلاة قادته قنماه إلى مجلس الشيخ

...ود... لا يدري ما قاله للشيخ ولا كيف قاله بعله لسانه... لكنه رأى  
• على وجه الشيخ محمود الذي أشرق وراح يتمم بالتكبير وحمد  
• تكاثف رواد المسجد حول الحلقة التي تكونت لرؤية دموع الشيخ  
...ود تهمر بلا تحكم بينما يشهرهم بالخبر الذي حملة سعيد... حتى  
اسبح للجوامع الصغير ذي الإضاءة الخافتة روحه الخاصة به... ينبض  
أشوة ويصدر منه أزيز كأزيز النحل بينما ينساب الخبر بخروج الرواد  
• ملقون كالرصاصات إلى أرجاء القرية.

بانت ميت الشوكة ليلتها ولا حديث على مساطبها سوى قيام الدولة  
الإسلامية... البعض لم يتذكر اسم الدولة التي قامت بها، لكن ذلك  
ام يكن المغزى من الحكاوي... كل ذلك على الهامش... أما صلب  
الحكاوي فكان عن تصور حال الناس في تلك البقعة من العالم...  
• صورونها جنة رغداء تفوح منها روائح المسك والعنبر بينما ترتفع  
أها المآذن تصارع عنان السماء... شرع الله مطبق والناس في نعيم  
• سعادة... تعلوا وجوههم النضرة وضحكاتهم المليئة بالرضا بعد أن  
• فتح عليهم المولى بركات السموات... كما تطرق الحديث إلى تأثير ذلك  
• عليهم وهل سيقوي ذلك من عضد الشيخ محمود الذي كان يحلم بذلك  
المشروع ويشهرهم به منذ زمن... هل ستعود دولة الخلافة كما حدثهم  
عنها الشيخ!

انفعل سعيد بنياً قيام الجمهورية الإسلامية إلى حد الهذيان... وعلى  
مدى أسابيع طويلة منذ سماعه الخبر، لم يستطع إخراج تلك الخيالات  
التي راحت تجتاح عقله، في صحوه وفي منامه... يرى باب الحجازي  
شرق بنور الإسلام... ذلك الإسلام الذي سمعه في كلمات الشيخ  
محمود الذي راح يشهره بقرب فتح الله على عباده المخلصين، وإقامة  
دولة الإسلام واسترجاع الخلافة... وكان لا بد من وجود نقطة لانطلاق

تلك الدولة... يجب أن تطبق تلك الدولة حكمها ولو على أصغر فرد،  
تسيطر عليها، ومن ثم تتوسع حتى تغمر سطح البيضة كما بشر الرسول  
الكريم.

لم يستطع سعيد الرفاعي انتزاع تلك الخيالات حتى في مجلته في  
جامع الحجازي... شغلته عن الاهتمام بحقيقة أن جماعة الإمام أصبحوا  
في الصف الأول حيث السجاد الجديد الذي تفوص به الأقدام بينما هم  
قايح في الخلف حيث الحُصر القديمة... شغلته تلك الخيالات حتى عن  
متابعة الوجوه من حوله كعادته ليتابع أثر كلماته عليهم... جلجل صوت  
الإمام من فوق المنبر بأن المقام والباب شرك بالله... وأن الفقر الواقع  
عليهم ماهو إلا غضب من الله لن يُرفع إلا بالخلاص من ذلك الباب،  
النجس... كان سعيد حاضرًا بجسده فقط بينما عقله وروحه يطوفان في  
باب الحجازي الجديدة التي يريدونها... ذلك المركز الذي ستطلق منه  
الدعوة وتشر في ربوع المحروسة.



### (٣)

كانت الشمس قد انتصفت في كبد السماء عندما توقفت سيارة نادية  
مام بالقرب من ساحة الباب التي لم تعد تتسع لدخولها... كادت الهانم  
١. تتعثر في إحدى اليائعات المرابطات حول الباب... تأففت عندما  
٢. حمت أنفها رائحة الدواجن المختلطة بروائح الجلود المصبوغة  
٣. العطور الريفية... أخذت تتحسس موطئ قدميها حتى دخلت إلى الفناء  
٤. باب... لم يكن الوضع بهذا السوء في البداية حين انتشر بعض  
٥. سوء بعد رحيل سيد خطاب لبيع الحصر والمنسوجات البسيطة... ثم  
٦. انتشر في  
٧. الوضع بانضمام المزيد من بائعي الفخار والخصوص... ثم انتشر في  
٨. مكان باعة السجاجيد والجلود المصبوغة وقطع زخرفية يدوية مع بعض  
٩. الآيات القرآنية على شكل الباب كانت تباع للمريدين من المدن وبعض  
١٠. السانحين العرب قبل اختفائهم... لم تكن الحياكة متقنة لكن تأثير الباب  
١١. والمقام على المريدين جعلهم يتعاونون أي شيء يذكرهم بلحظة الصفاء

التي عايشوها عنده... وسرعان ما تحول المكان إلى سوق خضر ١٠٠٠  
بجوار الباب أخذت في النمو مع تزايد النسوة اللاتي يتصارعن من  
المكان المميز... كل يعرض بضاعته التي يقل الطلب عليها يوماً  
ضاق حال البلدة.

كانت باب الحجازي تذبل كما تذبل أهلها... انحدرت الأحوال -  
لامست الحضيض... لم تعد القرية تلك المساحة الشاسعة من المرء  
الخضراء بعد بوار أرض سيد خطاب... وبغزوف أهل الحظوة والكبار  
حضور المولد وحلقات الذكر توقفت الأموال عن الهطول في صناديق  
وقف الباب، الذي كان يتصرف فيه سيد خطاب ليساعد المحتاجين  
أهل البلدة.

زادت الأزهار الذابلة في العمر المؤدي إلى السمعمخانة من حرس  
نادية هانم، القبح والبأس لم يرحم شيئاً. لم يكن بإمكانها رؤية كل ذلك  
والبقاء صامتة، كان عليها فعل شيء... أي شيء.

وضعت "الإشارب" على رأسها ودلفت إلى السمعمخانة حيث كان  
الشيخ عبد الكريم يجلس القرفصاء. جلست في صمت، تطالع الأرض  
القنطرة وملابس الدراويش المهلهلة التي علفت على حبل في طرف  
القاعة حتى انتهى الشيخ من الذكر ونظر إليها فقالت بلا مقدمات

يا مولانا... انت ليه سايب الوضع كده

أشارت في اتجاه الخارج وصمت كي يسمع صوت البائعات يصرخن  
على بضائعهن

سامع!! المكان باظ من الريحة وصريخ الستات... فين الصفا بتاع  
زمان

البي آدم أهم من المكان يا بتي

م في مرارة قبل أن يكمل

أهم ببشيلوا الزبالة اللي بقت تترمي قدام أولياء الله

أبك حاجباها الدقيقان وهي تقول

كله من الخطب اللي بتكفر كل اللي يقرب من الباب والمقام...

إمام الجامع بتاعكوا ده اتجنن... إيه اللي رجعه وفين الشيخ

الأزهري وليه المركز سايبه بعد ما هرب

أطرق الشيخ عبد الكريم وقال

إرادة المولى

لم تعجبها تلك الإجابة المبهمة فاستطردت

سمعوا أفكار وعقول الناس لحد ما اتجروا على أولياء الله

سمعوا قلوبهم... اللي هم فيه ده مش مرض عقل... ده مرض

في القلب... القلب اللي قال عنه المولى "وسعني قلب عبدي

المؤمن"... لكن القلب القاسي يطرد الإيمان

تنهدت الهانم وقالت

هم ليه بيكرهوا الجمال وعايزين يقضوا على كل اللي مش عاجبهم

محدث يقدر يكره الجمال... الجمال ده صفة من صفات

المولى... الحبيب المصطفى يقول إن الله جميل يحب الجمال

أشارت إلى الباب بعصية وقالت

إزاي يا مولانا... دول عايزين يقضوا على أجمل حاجة في البلد

لو قضاوا على الباب يقين طمسوا فيض الجمال اللي تجلى مر  
حسه... لكن الجمال باقي

كانت نادية هانم تلهث من فرط الانفعال أمام هدوء الشيخ عبد الله  
الذي أحست لأول مرة أنه مستفز... أو لعلها تلك اللامباله التي تصد  
الدرأويش... لم تشأ أن تدخل معترك فلسفي لن يفضي إلى شيء فقال  
وهي تكظم غضبها

طيب أعمل إيه يا مولانا... قلبي أقدر أساعد إزاي

فوضي أمرك للكبير المتعال... العمل من عنده

أنا مش حقف اتفرج يا مولانا... كلمني بالعقل شوية...  
وقت زهد ودروشة

إحنا بنزهد في القليل الزائل

قليل زائل

هكذا صرخت

انت مش حاسس باللي بيجرئ حواليك... المكان كله حيض...  
دا انت حتى مبقتش تصلي في الجامع الكبير من كتر الشنايم  
اللي بتزل عليك وعلى الباب وكل اللي يقربله... حاول تبص  
حوالك... محدش عارف بكرة ممكن يعملوا إيه... الباء  
اتقسمت خلاص وكل يوم يسموا عقل جديد طول ما المنبر  
تحت إيدهم واحنا بنعملش حاجة

لم يهتز الشيخ عبد الكريم أمام هياجها وقال بهدوء

عارفة ليه زعايب أمشير لما بتهجم على بلدنا مبتدخلش تراب في  
البيوت؟

نادية هانم للسؤال وفتحت شفتيها لتكلم لكنها أبطقتها من  
فقال الشيخ عبد الكريم

الطينة اللي في الأرض ماسكة نفسها... جدور الزرع ماسكة  
حبات الطينة مع بعض... حتى المطر لما ينزل... أرضنا تاخذ  
منه اللي يفيدها وترتوي... ولو المطر شديد والسيل جري على  
الطين... الأرض مفرطش في طيتها... ولو الريح أو المطر  
شال حاجة فيشيل القش والزرعة الميتة... وبعدها الأرض تبقى  
أنصف وأقوى... واحنا زي طين أرضنا ماسكين في بعض يا بتي  
وهم زي السيل مسيرهم يمشوا بعد ما يفتكروا إنهم غرقوا الأرض  
انت ازاي مطمئن كده

سم الشيخ عبد الكريم

انقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله... بكرة لما المولى يشاء  
والحكمة تستوفى، الهم يتزاح من حيث لا تحسبي

دا أنها لم تقتنع

أنا عارفة الناس دول كويس... رجعين

قالت الكلمة الأخيرة بأشمتزاز ثم استطردت

يجبوا كلام شيوخ من قرون فاتت وعابزين يحشروه في زور  
الناس بالعافية

أوما الشيخ عبد الكريم برأسه وقال

هم درسوا العلم لكن نوره مدخلش قلوبهم... بيهاجموا الباب  
وأهل الله وسيدي الحجازي ويرمونا بالكفر... ناسين العبد

الصالح اللي فتح عليه المولى بمقام نوراني عالي وأمر موهبه  
النبي يتعلم منه... ولا حينكروا القرآن... بس هم قلوبهم مقفوا  
غلقتهم لحظة من الصمت جالت خلالها بنظرها في أرجاء السموات  
التي نال منها الإهمال هي الأخرى... وغرفة الخزين التي بدت فار

الدرابيش كمان بقوا كسالى

الأيادي قلت

خسارة

انحدرت الدموع ساخنة من عينيها

خسارة اللي بيحصل ده

شوفي يا بتي... المولى بيقول من عادئ لي وليا فقد آذ  
بالحرب... لكن الصبر على البلاء منهاج العارفين

عندما انصرفت نادية هانم ابتم الشيخ وأخذ ينظر إلى الباب بينما  
صوت جدال النسوة يرتفع خلفه... ثم عاود الإنشاد في هدوء بصوت لا  
يسمعه سواه في ضوضاء السويقة.

## (٤)

عندما دخل مصطفى غرفة التدخين بسراي فؤاد خيرى، صباح اليوم التالي، كان الباشا منغمس مع نادبة هانم في نقاش بدا له جادًا حتى أنهما لم يلتفتا إليه، فجلس بهدوء يتابع النقاش على استحياء من السؤال عما يريد الباشا الذي أرسل خفير العزبة في طلبه.

عبثت نسائم الصباح المتسللة من الشرفة بشعر نادبة هانم التي جلست تستمع إلى الباشا في تحفز واضح

في نهاية الأربعينات كانت الصحف بتهاجم الملك بضراوة...  
كان في حرية صحافة

هكذا قال الباشا في فخر فابتسمت نادبة هانم في سخرية وقالت  
والصحفيين اللي كان بيتقبض عليهم بتهمه العيب في الذات  
الملكية... ده تسميه إيه؟

قال الباشا بهدوء بدامتعمداً

استثناءات وكان يفرج عنهم بسرعة... قارني ده بالوضع ده، و  
وبعدين كلميني عن الحرية والانفتاح  
قالت نادية هانم وهي تقضم على أسنانها

السادات بيواجه مد يساري وناصرى مش مخليه عارف يتحرك  
المد اليساري كان في الجامعات والصحف من أيام الملك  
لكن السادات فآكر أن اليساريين والناصرين والمثقفين أعداءه  
وطالقت عليهم وعلينا الرجعيين دول... انتِ عارفة إني ضد الفكر  
اليساري... لكن حله ميكونش بالترويج للرجعية اللي حتحرق  
الكل

نفث الباشا دخان سيجارته ثم استطرد قائلاً أن الحسنة الوحيدة للملك  
اليساري أيام الملك الذي كان يصل إلى الطلبة في جامعتهم والعمّال في  
مصانعهم ولا يكاد يترك باباً دون طرقة... أنه كاد أن يقضي على الرجعية  
المسترة في الدين... إلى أن مُد الرجعيون بشريان الحياة من حيث لا  
يحتسبون بإنشاء إسرائيل عام ١٩٤٨ ليجدوا فيها القضية التي سوف  
تبقّهم على الساحة... ومع حرب فلسطين ومع انكشاف الجيوش العربية  
والهزيمة النكراء تم التأمّر للقضاء على كل الحركات التقدمية لصرف  
النظر عن الكارثة والهزيمة التي لم يصمتوا عنها، واستُخدم أيضاً اليمين  
الديني حينها... أشار الباشا إلى مصطفى قبل أن تتغير لهجته لتحمل مرارة  
واضحة وهو يقول

المصيبة الأكبر لما شباب زيه يشوف كل الهدم والانحطاط ده  
وكل قيم الجمال بتروح ويحل علينا القبح والندالة وكل الشيوخ  
والحكام يقولوا إن ده أحسن مجتمع... بلمتلك مش دي حاجة



نجنن... بيوظوا فطرة الإنسان السليمة

امانق الباشا نفًا من السيجار يحمل لهيب غضبه بينما هجم تروي،  
الباشا، على القاعة يتبعه الخادم الذي وضع بعضًا من الكيك أمام  
طعن وصب الشاي لكل من الباشا والهانم... داعب الباشا تروي وهو

المصريين تصحروا لدرجة إنهم نسيوا إزاي يبقىوا بني آدمين  
محترمين... والبلد مبتتش دولة... بقت عزبة بيديرها ناظر...  
وكل اللي شاغل أهلها المطالب الدونية وما دامت ماشية محدش  
يسأل الصح فين... وطول ما كل اللي بهمهم هو الستر ومحدش  
يفكر في قيم الجمال والحضارة يبقى البلد لسه حتخرب أكثر ما  
هي خربانة... عايزين نقضي على النوع ده من البشر، بتغير الثقافة  
يا هانم، زي ما قولتلك... عايزين أتاتورك مصري، أو إسماعيل  
باشا جديد

مشكلتك إنك فقدت الإيمان بالناس لدرجة إنك مش قادر تتصور  
إنهم ممكن يغيروا من واقعهم من غير المستبد المستير اللي بتحلم  
به ليل نهار... أنا عن نفسي مؤمنة إن التغيير حييجي من الناس...  
جائز ياخذ سنين... جائز يهلك أجيال... لكن حيحصل... ثم أنت  
ناسي أن الخديوي إسماعيل دّين مصر وجابلها الاحتلال يا باشا

احتقن وجه الباشا فشغل نفسه في مداعبة تروي حتى هدأ ثم قال

التغيير في بلدك بييجي من فوق... الناس بتقدس اللي في السلطة  
واللي في السلطة بيتمحك في المقدس علشان الناس تقدسه...  
وتاريخنا مفهوش غير طغاة إدوا الناس بالجزمة فمشوا كويس...  
علشان كده إحنا عايزين أتاتورك مصري

صمت ثم أشار إلى صورة الخديوي إسماعيل وأضاف في ء

أو إسماعيل باشا جديد

تابع مصطفى النظر إلى صور أسلاف الباشا وأقاربه التي تراص  
الجدران فيما يشبه شجرة العائلة بجوار صورة الخديوي... علم بعد عام  
خلال فترة عمله بالعزبة أن الكثير منهم تبعثروا خارج مصر منذ  
التي بصر الباشا على تسميتها بالانقلاب.

ازاي بتقول كده... إحنا عندنا تاريخ يكفي العالم كله...  
نبتت أقدم حضارات وعلما الناس الفنون والأدب ومر على  
كل الغزاة من أول سارجون والإسكندر وقصر لحد الإنجليز.  
بلادنا عدت عليها الرسالات السماوية الثلاثة...

هكذا قالت نادية هانم في شيء من الحدة

دي حضارة المكان مش الناس اللي فيه... أي مكان يبقى فيه  
كان حيقى مركز حضاري... المصريين حظهم إنهم موجودين  
في المكان ده... لو رعاك كانوا فيه كانوا حيقوا أحسن منهم..  
ومتقلقيش، كل التاريخ ده يموتوه بإيديهم... يقضوا على كل ده  
بخسة لا تضاهى وغباء ملوش حد

انت ليه بتكلم كأنك مش مصري

أشاح الباشا بيده في استخفاف فاستطردت نادية هانم

متغالطش نفسك، دي حضارة الناس... النيل بيعدي على دول  
المنبع والحوض والمصب... لكن مفيش غير مصر واحدة،

مفبش غير حضارة فرعونية واحدة... بلدنا كانت منورة الدنيا كلها  
باساسها وعقولها

والباشا بعناد

ده مايمنعش إن التغيير في مصر بيتفرض على الناس... عمرك  
شوفتي شعب غير دينه ولغته ٣ مرات في أقل من ألفين سنة

ام تعلق نادية هانم فتابع الباشا وقد بدا من نبرته أن تحمس لكسب  
الجولة من الجدل

أقولك الناس أد إيه سلبية... آخر مرة كان المصري بيحكم بلده  
بنفسه كان أيام الفراعنة، من ساعتها وانتي محتلة واللي بيثيل  
الاحتلال احتلال ثاني بياخد مكانه، الفرس خرجهم الإغريق،  
وبعدين شالهم الرومان، وبعدين جه العرب وبعدين جه العثمانيين  
وبعدين شالهم الفرنسيين وشال الفرنسيين الإنجليز

ثم قال الباشا عابثاً وهو يشير إلى مصطفى

وبعدين طب عليهم احتلال الإمام

خفق قلب مصطفى بعنف فيما أكمل الباشا

المثاليات متنفعش مع مجتمع واصل للقاع... جاتز تنفع مع  
مجتمع عدل إنه يقين أحسن... لكن المجتمع المهترئ يلزمه  
واقعية بحتة... إحنا مش محتاجين تغيير يا هانم... إحنا محتاجين  
القضاء على المصريين علشان نقذ مصر منهم... كوليرا جديدة  
تخلص البلد من الدود اللي ملا بطنها

التفت الباشا إلى مصطفى الذي ظل صامتاً منذ دخوله

وعقبال ما ده يحصل لازم نحافظ على الثقافة والنضافة الفأراء،  
للبلد لحد ما أهلها يفوقوا أو يتغيروا... الحاجة الجميلة اللي مر  
بلدكم حتضيع يا مصطفى... الهانم طلعت قرار من هيئة الأثار،  
الباب والمقام مكان يتبع الوزارة وده يخليه تحت حماية الدولة  
وفي نفس الوقت حاولت أنا أخلي الشرطة تدخل بس المأمور  
مبيتحركش... واضح إنه بيتجنب أي خلاف مع الإمام بتاعكم.  
أنا عايزك تساعدني أحافظ على الباب

أساعد حضرتك إزاي يا باشا

تبادل الباشا ونادية هانم نظرة ذات مغزى قبل أن يستطرد

انت عارف بلدكم النهارده كام واحد؟

بدت الدهشة على وجه مصطفى من السؤال المباغت قبل أن يقول

حوالي ١٠٠

أيام الخديوي كانوا كام ٧٠٠ نفر... عايشين في خضرة وزرع  
بيوتهم القليلة بيدخلها هوا والنور وعيونهم على مدى ما تجيب  
زرع أخضر من أول الباب لحد المقابر اللي كانت بره البلد،  
النهارده الناس عايشة جوه المقابر، زي السموات... ده حتى  
الميت له كرامة... فالحين يخلفوا عيال ويقولك بييجوا برزقهم...  
أهم كلوا رزقهم ورزق أخواتهم وقاعدين جعانيين لحد ما حيكلوا  
بعضهم... مصر بقت أربعين مليون يا مصطفى

قالت نادية هانم

تخيل إنك ميت من الجوع في داركم مع أمك واخواتك وقدامكم  
أكل انت عارف إنه يكفي خمسة... ح تاكل لحد ما تشبع ويمكن

لما تشبعوا توزع الباقي على الغلابة

أوما مصطفى برأسه وهو لا يدري إلى أين ستفضي تلك المقدمات  
أما لو كنتم عشرة والأكل يكفي خمسة كل واحد ح يركز في أكله  
ومحدث ح يبات شعبان

الباشا

ولو كنتم مية؟... حتموتوا بعض يا مصطفى... وده اللي يحصل  
قريب... ضيف على ده الجهل، مش بس حتموتوا بعض، حتموتوا  
القيم والحضارة معاكم... حيقى مجتمع كله حقد مبيقدسش غير  
القوة... وده مكان مينفضش يقى فيه حاجة جميلة زي الباب

عايزين تنقلوه؟

هكذا قال مصطفى بدهشة ما لبثت أن تحولت إلى استكار عندما قال

الباشا

عايزين نشتره ونحافظ عليه

نشتره إزاي... ومن مين

نشتره من أهل البلد... نحط مبلغ كبير تحت تصرفكم توزعوه  
عليكم زي ما انتم عايزين... الجعان ياكل والعريان يلبس

وحتودوه فين

حنحافظ عليه... الباب محتاج اللي يقدره

لماذا يهتم هؤلاء المنعمون بالحجر أكثر من البشر... يقولون أن أبناء  
القرية سيأكلون بعضهم البعض وكل ما يشغلهم هو إنقاذ الباب... إلى  
هذا المدى يعتبروننا حشرات... وهم في مهمة لإنقاذ الثقافة من أيدينا

القفرة... هكذا تصاعد الحنق داخل نفس مصطفى وأحس أنه يرغب في  
المغادرة

الباب اللي عايزين تشتروه ده حته من البلد... حته منا

حته منكم تقوموا ترموا زباله قدامه... انت عارف إن في ناس  
عايزين يحرقوه... مش قالوا عليه كفر

أيوه لكن ده كلام... محدش يقدر يقرب للباب

جايز يكون النهارده كلام... احسبها كويس يا مصطفى... انت  
قدامك اختيار من اتنين... يا تحاول تقنع الناس إنهم يبيعوا الباب  
ساعتها تبقى حافظت على الباب وهم استفادوا... أو تسيه للهمج  
يولعوا فيه... ويبقى دمرت الباب والناس مكبوش غير الدخان

حتى لو اتكلمت... محدش يقدر يبيع حاجة من المقام... الناس  
تخاف يا هانم

اخترقت ضحكة الباشا الصاخبة أذنه

انت فاكّر الحجازي ده والي بجد ولا إيه

استطرد الباشا عندما لم يبد أن مصطفى قد فهم مراده

الحجازي كان حرامي آثار... العيال ولاد الكلب في العزبة  
كانوا يحفروا يطلعوا آثار، في الأول مكنوش فاهمين فيها وكانوا  
يبخافوا من التماثيل اللي بيلاقوها، فاكربنها شياطين وعفاريت  
مسخوطة... لحد ما فهموا وبقوا يبيعوا الآثار للأجانب اللي  
يبهبوها برا... الحجازي بقى كان متخصص يسرق منهم الآثار  
دي على الجاهز بعد ما يطلعوها، والباب ده سرقة من سرقته،

متفهمش عجبه ولا حب يخوف أهل البلد بيه علشان محدش يقرب لبيته بيانه يطلع أساطير حوالين إنه موصول بأعمال وسحر وكلام من ده... وطبعًا الناس صدقت الأساطير وكبرتها يوم بعد يوم وجيل بعد جيل وخطوا شوية تحايش من الدين عليها من الكرامات والمعجزات لحد ما الراجل مات وفضلت الناس تعبد أساطيره... لكن هو في الحقيقة حرامي

توترت جميع عضلات جسد مصطفى وشعر بجفاف حلقه... لا بدري لم تذكر عبارة آدم السناري أن الباشا ماهو إلا إقطاعي لآ يشعر بمن دونه، أو لعله لا يراهم من الأساس... والآن يسخر من معتقداتهم وبشكك فيها... بل يسفها نسفًا... لا بد أنها إحدى ألعبيه لينزع القدسية عن الباب الذي يريد أن يشتريه كبضاعة رخيصة يرمي ثمنها للمساكين... لا بد أنه سيزين به مدخل غرفة نومه في السراي الكبيرة... تصارعت أفكاره فأخذ يفمغم

إيه الكلام ده يا باشا... .. محدش..

الكلام ده محدش يقوله علشان اللي عارفينه أجبن من أنهم يتكلموا... خايفين من رد فعل الناس لما تهز حاجة هم مؤمنين بيها... لكن الفلاحين في بلدكم عارفينه وساكتين... والفلاحين في عزبة كامل اللي سرق الحجازي منهم الباب عارفين أصله... حتى لحد النهارده العيال كل فترة يحاولوا يرجعوا الباب ومش عارفين

## (٥)

استلقى مصطفى الرقاعي وآدم السناري على الحصيرة المنفرة...  
بسطح منزل عم الأخير، بعد أن قص عليه ما سمعه من الباشا... ظل يتأمم.  
بنصف انتباه، أسراب الحمام المحمول على نسائم المغرب... عانداً.  
رحلة البحث عن الرزق الطويلة إلى عشته بعد أن أوشك الضوء...  
الانحسار أمام هجوم الظلام... سقطت روح مصطفى صريعة رواية الباشا  
عن أصل الحجازي... لا يفارق عينه مشهد الأوبرا المتفحمة والدخان  
المتصاعد منها كلما تذكر التهديدات التي تطل الباب بحرقه...  
يشله التفكير فيما يجب فعله حتى أصبح التقاط أنفاسه عملاً مضنياً.

إقطاعيين ولاد وسخة... لو طالوا يقلعوك جليتك مش حيتأخروا

هكذا كرر آدم واسترسل في سب الباشا الذي لم يذق طعم الجوع..  
لم يبت ليلته يحلم بما يسد رمقه ومع ذلك يستنكر على الناس مطالبهم  
"الدونية"



عارف بكره فيه إيه... مش يمكن الإقطاعي ده يكون الوحيد  
اللي بقدر يحافظ على الباب

١١٠ أعمال مصطفى فانتصب آدم وحدجه بنظرة غاضبة

الحال قطران... وحيفضل قطران طول ما الناس مسلمة روحها  
امرها يتحكم فيها... إمبراح سيد خطاب والنهارده الإمام وبكره  
الإقطاعي اللي عايز يشتري ويبيع فينا... النهاردة قطران وبكره  
معره ما حيكون شهد طول ما انت فاكتر إن الباشا بتاعك هو  
الوحيد اللي يقدر يحافظ على الباب... انت بقيت ضعيف لدرجة  
نرف

سب مصطفى بدوره وقد انعقد حاجاه

أنا كل اللي باخده منك كلام... عيش معنا على الأرض شوية...  
فلي فين المصلحة... الناس هنا راضية بدور البهايم في الساقية،  
حاكمين الغمامة على عينهم ورفضين يشوفوا إنهم يتحركوا في  
دايرة مرسومة لهم... بقولك الحجازي نفسه ممكن يكون حرامي  
والباب البلي انت عامله قضية ممكن يبقى ولا حاجة

وممكن يبقى كل حاجة... الحاجة بتكتسب أهميتها من إيمان  
الناس بقيمتها... متحولش تضحك على نفسك... وبلاش خوفك  
يخليك تستسهل تقول إن الباب ملوش قيمة... الإمام وجرايعه  
مش دايمين... انت لحقت تنسى اللي الناس عملوه في سيد  
خطاب... الظلم والقهر مييدومش في بلدنا مهما طال

المره دي مختلفة... ده بيطلع يقول قال الله وقال الرسول... مين  
اللي جيعترض على كلام ربنا... الواحد قرف ونفسه في حياة تانية  
مش الحياة دي

اتكأ آدم على الحصيرة من جديد وعاود التطلع إلى السماء وهو يقول  
البلد دي محتاجة جرعات مركزة من التصوف ومجالس السماع  
علشان تعيش في وسط القرف اللي نازل عليها ده

مين عارف بكرة حيقى في جلسات سماع ولا لا... يا أخي أنا  
بكره نفسي لما افكر إنني كنت يوم من الأيام في صف الغبي اللي  
عايز يقلب حال البلد علشان تمشي على مزاجه... إحنا بلد اتكتب  
عليها الهم، نخلص من سيد خطاب يجلسنا هم جديد

شعر مصطفى أنه لا يقوى على مواجهة ما ينهال عليه من متاعب  
فاستسلم للهم، وازدادت رقعة القتامة العالقة بنفسه... لم يكن قادرًا على  
تحمل رؤية احتراق شيء يحبه من جديد... تمنى تلك اللحظة أن يخوض  
في التربة كما اعتاد في طفولته فتسليخ عنه همومه وبأخذها الماء إلى  
القاع فتفرق بلا عودة

أنا حكلم جدي الحاج محمد السناري... هو كبير البلد وهو اللي  
يشور علينا نعمل إيه

مع انحسار النور، تجمع الرجال أمام مندرة السناري حول الحاج  
محمد بعد أن فرغ مصطفى الرفاعي من رواية كل ما دار بينه وبين الباشا  
فيما عدا ما يخص أصل الحجازي

اللي قاله الباشا ده عيب في حق أهل البلد يا مصطفى يا ابني...  
إزاي نبيع قلب بلدنا... وربنا يرضى عنا بعدها إزاي

اندفع آدم يقول بحده

ياأبا الحاج الإمام بيطلع على المنبر يكفر كل اللي بيزور الباب...  
الخطبة اللي فاتت دي قال إن لازم نمنع المولد وننصف البلد من

الشرك... وقال في الشيخ عبد الكريم كلام ميقش

رم الحاج محمد شفته وبدا الأسى جلياً على وجهه

لا حول ولا قوة إلا بالله... أنا ميقش أصلي في الجامع الكبير...

بروح الزاوية اللي بيصلي فيها الشيخ عبد الكريم... مين يصدق

الراجل بتاع ربنا يتشم... ومن على منبر الجامع اللي اتبنى ببركة

المقام والباب

قال مصطفى بلهجة حاسمة

لو مش حنفرط بجد في الباب يقنى لازم تروح تكلمه يابا الحاج

وتوقفه عند حده

بالمشيئة

قام الحاج محمد السناري وترك الشباب يكملون سمرهم على

المسطبة... سرعان ما نقتت فيل اللمة الجاز فجلسوا على ضوء نيران

الحطب وقوالح الذرة التي سترسو منها قطع على الجوزة بعد قليل...

صمت ثقيل خيم على الجلسة، يكاد مصطفى يرى الأسئلة تقفز من أعين

الحاضرين

إزاي يبقى الباب تحت حماية الحكومة ويعرضوا علينا يشروه

لم يمهل آدم مصطفى للإجابة وسارع بقوله

هم عملوا موضوع وزارة الأثار ده علشان لو حد منا قربه يتاخذ...

والقانون مييطقش على الباشاوات اللي حطوه... القانون يجي

على الجعان مييجيش على الشعبان

تداخلت الأقوال وتشابكت الآراء بينما أنهمك آدم في إعداد الجوزة

بس الباب مش آثار

يا ابني الباب أثري عشان السياح كانت بتصوره... فإفكر أيام ١٩١٠  
بيجي أجانف وعرب

هكذا قال أحد الجالسين

لا مش أثري... السياح بيصوروا أي حاجة... دي حركة ١٩١٠  
الباشا بسلامته علشان محدش يقرب للباب.

إحنا مولودين في البلد دي وعارفين طول عمرنا أن الباب أثري  
أمال... يا اخونا ده من زمن الفراغنة وموصل بأعمال سفلية  
طب خلي حد يقربله وشوف حيحصل فيه إيه

قال مصطفى متهكمًا

انت بتصدق الكلام ده برضو

السحر مذكور في القرآن يا مصطفى

صمت الجميع، في حين رفع رجل خمسيني قصير طرف جلبابه وأراح  
قدمه إلى طرف المطبة وحسم الخلاف صوته الغاضب الذي علا قائلاً

آثار ولا... آثار إحنا محدش بيأل فينا... إحنا خلاص بنعض  
في الأرض... لو حيخلصوا من الباب يبقى يتباع وينوبنا من تمنه  
حاجة... وكان الآثار أهم من البني آدمين اللي حيدفوا بالحيا

نظر الجميع إليه بدهشة واستنكار... فتنحج رمضان زوج فاطنة  
العابثة، الذي أصبح أحد مريدي الإمام

مينفعش يتباع... لأنه حرام والفلوس اللي تيجي من بيعه حرام  
برضو

لم يلتفت أي من الجالسين لقوله في حين قال أحدهم

البيوت اللي بقتى لها شهور مدخلهاش الزاد دي لو اتهدت على  
دماغنا مش هيزعلوا علينا، هيزعلوا على الباب عشان آثار... والله  
ليهم حق يقولوا على الحكومة كافرة... هو في كفر أكثر من إنك  
نسب العالم نموت من الجوع... الفقر قرين الكفر

بحكمة تطل من عينيه وصوت هادئ، قال آدم السناري بعد أن انتهى  
،، اعداد الجوزة

إحنا لا محافظة بتسأل فينا ولا حكومة... مفيش غير الباب ده  
هو اللي كان ييسد حاجة الناس... اتنولحقتوا تنسوا وقف الباب  
والخير اللي كان بيدخل كل دار فيكي يا بلد من ورا الباب... لكن  
هو بوز الإخص ده من ساعة ما خرج من السجن ومعاه شوية  
العصبية بتوعه والفقر خيم على البلد... واللي عايز يحط راسه  
في التراب وميشوفش الحقيقة هو حر... الباب بركة البلد... ولو  
مستوا حاجة الأوليا حيكون مصيرنا سواد... يا اخونا إذا كان  
العيش في البيت بيقى المش شبرقة

انتفض رمضان في غضب ظاهر

انت بتبقي نايم علي ودنك في الخطب ولا إيه... ولا شكلك  
مبتركعهاش من أصله... الأوليا والكلام ده شرك بالله... وهم  
سب الفقر اللي عتش في دور البلد... ده غضب من ربنا...  
وبعدين بوز الإخص ده هو اللي خلصكم من سيد خطاب

قلّب رجل نحيل ضامر الوجه ذو شارب كث يعمل في الجمعية  
الزراعية الصغيره بالقرية شفته في استنكار

- فين أيامه سيد خطاب... نص البلد بترحم على أيامه... وبعدين

زعلت أوي من آدم علشان قال على صاحبك بوز الإخص  
طيب يا سيدي... ده حمار، وآدي ديله

ضح الحاضرون بالضحك فقام رمضان وهو يقول بحدة مضاعفة

مقولش نص البلد... كل اللي بيكرهوا الإمام هم رجالة سا  
خطاب اللي راحت عليهم... وانت فاهم قصدي كويس... وأنا  
مقعودش في جلسة يتشتم فيها أهل العلم

ضحك الرجل وسخر من رمضان بعد أن اختفى

يروح يتشطر على مراته مدام عملنا تقي أوي كده

استمر الحديث المستعر، لا يدري لم رأى مصطفى كلام الباشا  
منعكسًا في حديث الجالسين المتناحر حول مصير الباب... سيأكل الناس  
بعضهم... هل كانت أيام سيد خطاب حقًا أفضل مما هم فيه الآن... ظل  
بلا إجابة شافية حتى انتهى الحديث باحتضار النار التي أكلت الحطب  
وتركت القرية في دياجى الليل الذي ابتلعها.

مرت ليلتان منذ تلك الجلسة حتى ذهب الحاج محمد السناري مع  
وفد من أهله ضم آدم ومصطفى إلى دكان الإمام الذي كان في انتظاره منذ  
أن نقل له رمضان أحاديث المسطبة ونية الرجل في الحضور... كان الإمام  
في حلقة من جماعته ضمت سعيد الرفاعي... تعتمد ألا يقطع حديثه، الذي  
ازدادت وتيرة حماسه وسط آهات الاستحسان من الشباب حوله... راح  
يُحدِّث الجمع بأن المسلمين قد جربوا التشبه بالغرب واستوردوا عاداتهم  
وتخلصوا من تقاليد الإسلام ووصموها بالرجعية، أسقطوا رموز الدين  
لنبتق رموز جديدة تدعوا إلى العلمانية الغربية وتشدق بالقومية العربية  
كهوية على حساب هويتنا الإسلامية على وعد بالتقدم والازدهار...  
وقرطنا في أخلاقنا فانتشر البغاء والسفاح وضاع الدين... أضعنا ديننا

حصل على ديانا فخرناهما سوياً... لكن الفساد لم يكن مقصوداً  
وان انحلال الغرب بل هناك فساد في العقيدة ابتلينا به من الداخل... وأن  
ان العودة إلى النبع الصافي والتخلص من كل ما شاب الدين من بدع  
و سلال لتقوم الدولة الإسلامية من جديد

إنها الصحوة يا شباب

هكذا أنهى الإمام حديثه وقام إلى الحاج محمد السناري الذي انتحن  
ه جانباً

شوف يا ابني... انت عارف إنك فوق راسنا كلنا... بس اللي  
انت ماشي فيه ده ميرضيش ربنا... مينفعش نحارب أولياء الله  
الصالحين اللي بتبرك بيهم  
ده شرك مش حنصح بيه

متخليش لسانك عدو قفاك... نقي كلامك وانت بتكلم جدك  
الحاج

هكذا صرخ فيه مصطفى الرفاعي فارتج الإمام، تكوم الغضب في  
باطنه ككتلة جمر تصهر أمعائه، قبل أن يتظر سعيد شذراً لأخيه ويقول

هووو... ... اللي ينقي... ككك... كلامه مع أهل العلم

اخرس انت يا سعيد... لو أبوك كان عايش كان زمانه اداك بالبلغة  
احتفن وجه سعيد حتى كاد ينبثق دماً وتمتم ببعض عبارات غير مفهومة  
قال آدم السناري

الحاج محمد كبير البلد وكلامه حيمشي ع الكبير قبل الصغير

قفز أحد الشباب من جماعة الإمام إلى قدميه

كبيرك انت... إحتنا كبير اتنا أهل العلم

فصل بينهما الإمام الذي نظر إلى مصطفى وآدم شذراً حتى قطع الـ  
محمد الصمت المشحون بقوله

يا ابني دي عوائد أهل البلد من جدود جدودك

ياأبا الحاج محمد... لو عوائد أهل البلد دي عمل من أعمال الـ  
يبقى لازم نمنعه... وتبقى انت أول واحد يساعدنا في منعه.  
دي الأصول يا حاج

قال الإمام الكلمة الأخيرة بحروف مضغوطة وابتسامة مصطنعة

المولد حيتم في معاده... واللي يحب يحضر أهلاً وسهلاً  
واللي مش عاجبه يلزم بيته... هي دي الأصول

أنهى الحاج محمد حديثه وانصرف في غضب... تاركًا الإمام يتصـ  
عرقًا وقد تحول وجهه إلى جمرة متقدة وسط شباب الصحوة.

انت كده بتناصر المعصية يا عم الحاج

هكذا صاح أحد أنصار الإمام فلم يلتفت إليه أحد من الوفد الـ  
مضى

ده صوفي من أهل الضلال والبدع

هكذا صاح آخر بينما قال ثالث في حذر

مش لازم نحط راسنا براس الحاج محمد السناري... ماين أمور الـ  
معاه

أخذ الإمام عدة أنفاس عميقة، حاول أن يجعلها منتظمة كي لا يتفـ



١٠ ار يظهر الغضب الذي يقضم أحشائه فيما عاود الشاب الغاضب

مش حيقوملنا قومة في البلد طول ما الرجل ده موجود... الناس  
مش حتسمع كلام ربنا ويرتجعوا عن الحرام لو حسوا إن في حد  
أكبر من الشريعة... ولمسه لحد النهارده في ناس بتروح للشيخ عبد  
الكريم... ولو طاطيت للحاج محمد حير كبتنا

بماشى الإمام النظر في أعين مرديه... لكن ذلك زاد من تاجج  
اعر التي راحت تنتقل كالعدوى بينهم فيما أكمل الشاب

الحاج محمد والسارية بقوا يقعدوا كثير مع رجالة سيد خطاب  
اللي طلع لهم حس بعد ما كانوا بيقلوا يا حيطة داريني

ام بنس الإمام بيت شفة ولم يتحدث كثيرًا منذ ذلك اليوم لكن النار  
تستعر تحت الرماد.

## (٦)

صباح المولد أُنشِحت أم سعيد بالجلابية والطرحة السوداء وسقت الرجال إلى التُّرب، إلى جوارها سارت زينب تحمل فوق رأسها سِتًّا عملاقًا، تداعب نيمات مخضلة برائحة الزرع جسدها الوارف، العجيب كيف جادت أرغفة الذرة التي لا تغني على زينب بجسد لين كالعجين الخمران. منذ الصباح لم تنطق أم سعيد بكلمة قبل إلقاء السلام على زوجها الراقد في قبره ووزعت الفطير والقرص والخبز على الفقراء والفقهاء الذين حضروا خصيصًا إلى المقابر في انتظار مجيء النسوة ذلك الصباح "بالرحمة" تتمم "رحمة على روح علي ابن زبيدة" مع كل قرص توزعه على الفقهاء الذين راحوا يقرأون الذكر الحكيم بصوت جهوري متمرس. وضعت زينب جريدة خضراء أمام التربة وسقت الصبار، بينما انتشرت النسوة في الترب، يفوح من ثيابهن عبق دخان الفرن البلدي الذي قضين ليلتهم أمامه في خييز "الرحمة".

في طريق العودة، كانت الشوارع قد كُنِست ورُشَّت بالماء، الرجال  
، مسون بكسوة جديدة عِوضًا عن الجلابيب التي أبلأها عرق الكدح بين  
الطين والتراب، يرحبون بالمريدين الذين توافدوا من القرى المجاورة  
مطالبين المدد من سيدي الحجازي في مولده، بينما يهرول الأطفال في  
مبات القرية حاملين رايات المولد الخضراء... مرت أم سعيد بفاطنة  
و قد انحنت، تعتصر ضرع الجاموسة داخل الزريبة التي تعمدت ترك بابها  
مفتوحًا، بينما برز ردفها من الجلاب

ستك لبن يا أم سعيد

بعودة الأيام يا فاطنة

ما أن مرت أم سعيد حتى قالت لزيب

شوف الولية... طيزها حتغطي قرص الشمس... تقوليش أردبين  
قمح

ضحكت زيب بصفاء، وسارت أمها تقص عليها حكاية فاطنة  
عندما أمسكها الحاج محمد السناري وأحد الشباب يعبث بها... قاطع  
امترسألها نعيق غراب، فتجهم وجه أم سعيد وتكدر مزاجها

اللهم اجعله خير... ينعق بالخراب

شرعت أم سعيد فور دخولها الدار في قراءة آية الكرسي بينما سبأتها  
مرتفعة، تدور بها في حركة دائرية لتشير إلى حدود الدار، طلبًا لحمايتها  
من الشرور ثم بخرت كل الأركان.

كان المولد تلك الليلة غريبًا، لم يكن احتفاليًا كعادته، علت الوجوه  
كآبة مسيطرة لم تنجح مواويل الرابطة في دفعها. كما أن الوجوه التي كانت  
نحضر المولد تغيرت، ودُفع البعض إلى عدم الحضور. وزاد من الهم

غياب المنشد توفيق العروسي لأول مرة عن مولد سيدي الحجازي.

لم يذهب مصطفى إلى المولد وعزف عن حضور الإنشاد وحلقات الذكر واكتفى بالتكع على المسطبة مع آدم حتى انقضى المولد وعاد إلى داره... ما أن دفع باب الدار الغارقة في الظلمة حتى فوجئ بلمطة على وجهه بددت صمت الدار ودفعته تجاه الزير الذي احتضنه وهوى به أرضاً. دوى صوت تحطم الزير في أذني مصطفى وضاعف من الآلام التي انتشرت في جسده... قفز عليه ذلك الظل الذي لطمه وجثم فوق صدره يستعد لتوجيه ضربه التالية، حاول بكل ما يملك من قوة مقاومته، قام بدفعه غريزياً، إلا أن وزنه حال دون ذلك ومنعه من تحاشي اللكمة التي استقرت في صدغه دافعة جرعات جديدة من الألم إلى وجهه وبعث مذاق الدم في فمه.

أضاء الساحة نور مصباح الكيروسين الذي حملته زينب وأمه الآتين عدواً من الغرفة الداخلية... ارتعدت عضلات وجهه وتشنجت تقاسيمه عندما تبين سعيد فوقه يلهث... يلتقطه من تلافيف جلبابه ويهم بضربه بقبضته من جديد، فارتمت زينب بجسدها تحول بينهما بينما ارتفع عويل أم سعيد فتوافد الجيران على الدار، يحولون بين الأخوة وهم يممصون الشفاه في تعجب وحسرة على ما يحصل في دار علي الرفاعي التي لم يُسمع لها حسٌّ من قبل

الناس سرها في صندوق إلا احنا سرنا في السوق

هكذا جلست أم سعيد في ركن الدار تولول وتنعي حظها، بينما راح الرجال الذين فصلوا بين الأخوين يحاولون تبين سبب الخلاف... أخذ مصطفى يمسح أطراف الدم الذي سال من خدوش عدة بجوار عينه بينما سعيد لا يزال يلهث من فرط التوتر قبل أن يستجمع قوته ليقول صارخاً في مصطفى ليصله صوته فوق صوت حديث الرجال

... ارتحت لما ننتن... نصبوا صصوان الكفر

نظر إليه مصطفى وقد قارب أن يجن جنونه ثم صرخ فيه

أنت عيط ياله؟

يا ابن الكلب

سكنت جميع الأصوات في اللحظة التي خرجت آخر حروف تلك  
الكلمة من فم سعيد... وكأنما توقف الزمان... ليرتفع صوت أمه صارخاً  
له

إطلع بره داري... لا انت ابني ولا أعرفك

نظر سعيد إلى عينيها الجامدة... وقف لحظات يستوعب ما سمعه من  
أمه، تسلطت خلالها كل الأنظار عليه، ثم خرج يتحاشى نظرات الناس  
إلى أن ابتلعه الظلمة فعادت الأصوات تقطع السكون وعادت أم سعيد  
تتحب

فينك يا علي تشوف ولادك

ربت فاطنة عليها قاتلة

دي عين وصابتكم يا أم سعيد... دي عين وصابت البلد كلها...  
شيطان دخل ما بينا... حتى المنيل رمضان عامل فيها شيخ  
ويقول مادري إيه وأبصر إيه

بعد أن انفض مولد الحجازي في الخارج، انفض مولد الفضائح في  
دار علي الرفاعي وعاد كل حي إلى داره، تاركاً الصمت يغلف الدار،  
انحب الطفلان إلى السرير الذي كان يضم سعيد إلى جوارهما... بينما  
بقي مصطفى يراقب أمه التي ظلت تتحب في صمت.

ليه كده يامه

الكلب يشتم أبوه، مش مراعي عضم التربة

صمتت قليلاً ثم أردفت كمن يحدث نفسه

الشجرة اللي ما تضلل على أهلها يحل قطعها

قبل الفجر، ومع فجور الصقيع، قادتة قدمان ثقيلتان إلى مسجد ميت الشوكة... ارتمنى سعيد على عتبة المسجد، يقتله إدراكه أنه أصبح طريداً بلا أهل ولا مأوى. كانت فورة الغضب قد تبددت وحلت لعنة الندم، تعصف زعايب أمير داخل صدره المكتوم، والندم خليل الذكريات... لم يره أحد طبيعياً منذ وُلِد... حتى أمه... لازل يتذكر عندما قادتة خفية مع زوج من البط في أعقاب صلاة الجمعة إلى قرية ميت الشوكة... عقدت جلبابه من الخلف وقبلته قائلة "دي تحميك" قبل أن تضعه فوق الحمار... كان بعد طفلاً، لكنه يتذكر البط الذي راح يصرخ طوال الطريق حتى دار الكودية، التي سبق أن استقبلت "أتره"... قالت له أمه أن الكودية نامت على طايقته الصغيرة ليلتان لتتعرف في المنام على الأسياد الذين يلبسونه حتى تستطيع طردهم من جسده.

عندما دخل إلى دقة الزار شاهد امرأتين في وسط الدائرة ترقصان بحركات هستيرية... تتحرك أجسادهن بعنف... طمأنته أمه حينها بقولها أن الأسياد دائماً ما يكونوا في حالة غضب في بداية الزار، لكنهم لا يلبسونه أن يهدأوا... لم يطمئن سعيد إلى أن أغشي على الفتاتين وحينها فرغت له الكودية بعد أن قالت أن الأسياد رحلوا عن المرأتين وحن دوره... جاءته... أجلسه فوق كرسي ونحرت البطة التي ظلت تصرخ طوال الطريق إلى جواره، فوجئ بها تلتطخ ثوبه بدمها فراح يصرخ بهستيرياً... كأنما لبسته روح البطة... كانت الكودية التي تقود الزار تخاطب قريبه

وأخته وأخوه اللذين تحت الأرض... إلى أن هدأت نفسه فراحت الكودية  
بقول أن جنية حشية كانت تلبسه... وأنها قد رحلت عنه الآن فاستبشرت  
أمه خيرًا وقالت لها

يعني حيقئى طبيعى

أومات الكودية فى ثقة.

سأل سعيد فى طريق عودته إلى باب الحجازى عن معنى القرين فقالت  
له أمه أن القرين هو توأمه المتطابق... يولد بمولد صاحبه، يرافقه أينما  
ذهب حتى يموت... وهو أبدًا على شاكلة صاحبة فى كل شيء، طويل  
إن كان طويلًا، سمين إن كان سمينًا، أحول إن كان أحول... يسير معه فى  
حياته يرئ ويشعر ويمر بما يمر به صاحبه من تجارب... لا يتركه كظله...  
نمئى سعيد فى تلك اللحظة أن يكون لقرينه بيت يأويه... لكن أكثر ما  
كان يتمناه فى وحدته لم يكن البيت... تمنئى أن تكون توأمته، زينب...  
الشخص الوحيد الذى لم يعامله يومًا على أنه غريب أو ممسوس، لاتزال  
تنفهم ما دفعه إلى تأديب مصطفى.

بعد صلاة الفجر، وبعد أن ذهبت دهشة الشيخ محمود قطب لرؤية  
سعيد بعد أن قص عليه ما حدث، قال له الشيخ مواسيًا

إذا كان أهلك لا يقدرونك حق قدرك، فنحن نراك لما أنت عليه،  
لما فى نفسك من عظيم العزم والصبر والظهر. أنت بيننا كبير  
لإيمانك... كبير بذاتك ولذاتك

## (٧)

بحلول الخريف، تساقطت أوراق الأشجار، في بداية استعداد  
لتغير حلتها القديمة بأخرى جديدة، لكن القدر كان يحيك حلته الخاصة  
لباب الحجازي... نسيجها الغضب الذي ملأ صوت الشيخ محمود  
قطب من فرط الانفعال وهو يحمد الله في بداية خطبة تلك الجمعة...  
جاهد الرجل للسيطرة على انفعاله حتى كاد ينبثق من وجهه الدم...  
قبض على المنبر بعنف كي يمنع ارتعاش يديه... لم ير سعيد الرفاعي  
الشيخ غاضباً مثلما رآه ذلك اليوم... لم يكن بجديد على الشيخ محمود  
هجاء السادات... لكن الخطبة اليوم تعدت الهجاء... بل تعدت السادات  
شخصياً، الذي وصفه بعبد أمريكا بعد أن ترك عبادة الله، لتطال النظام  
والدولة التي عاهدت ووالت اليهود... استرسل فيها بكلمات تقطر غضباً  
عن اتفاقية كامب ديفيد التي وقعتها السادات عميل الصهاينة منذ أيام مع  
الكيان اليهودي المعتصب لفلسطين، أرض الإسراء والمعراج... أولى



أهـ ابنين وثالث الحرمين... انفعل الشيخ حتى أشفق سعيد عليه... لكنه  
أم به خطبته حتى كُفر النظام الخائن لله ورسوله والمؤمنين وأعلن فساد  
التعامل معه... وأعلنها حرباً صريحة على جهالة البداوة و جهالة  
المدانة و جهالة السلطة.

التوت أحشاء سعيد من هول غضب الشيخ في تلك الخطبة... وما  
أث أن نقل ذلك الغضب وتلك الأفكار كالعدوى إلى باب الحجازي في  
مطبته التالية التي ألقاها الإمام في جامع الحجازي... حتى تكاد تسمع  
مشرجة أنفاس القرية المتسارعة... كان لابد من متنفس لذلك الغضب  
الذي عم النفوس... فوجهه الإمام وجماعته نحو الدولة الفاسدة مما زاد  
من عزوف أهل باب الحجازي عن الذهاب إلى المركز الذي لم تخطه  
قدم في عهد سيد خطاب... ومنذ رحيله ظل هناك فراغ كان الإمام سعيداً  
باحتماله أخيراً وإحكام السيطرة عليه.

ظلت الأحداث في تسارعها المحموم في القريتين إلى أن أتى ذلك  
الصباح الذي أمل الجميع أن يهدئ من الجنون المسيطر... جرت  
الاستعدادات على قدم وساق في مسجد ميت الشوكة وجامع الحجازي  
لاستقبال حدث عظيم، قرن هجري كامل قد انقضى وأهل قرن جديد...  
نعنوا أن يحل بكرم الله ويسطع نور الدين من جديد بعد أن خبت جذوته  
بتفريط العباد. كان سعيد في مسجد ميت الشوكة يستمتع بدروس الشيخ  
محمود قطب وصحبة إخوان المسجد الذين عوضوه عن أهله... جلس  
بين صفوف مرتلي القرآن يقرأ معهم فيما تحلق البعض في جلسات العلم  
يراجعون بعض المسائل الفقهية استعداداً لطرح ما يُختلف عليه على  
الشيخ محمود قطب.

لكن الأجواء الإيمانية لم تلبث أن شابها بعض التوتر وبحلول  
الظهيرة توقف الترتيل تماماً... في البداية كان الأمر همساً لم يتبين سعيد

محتواه... لكنه كان همساً محمومًا مليئًا بالغضب... صرح الشيخ محمود بعد صلاة العصر بما سمعه عن احتلال بيت الله الحرام فهوى قلب سعيد. الرفاعي بين قدميه وأحس بجزء من روحه ينزع منه... مرت أيام انتشر فيها الحديث أن الأمريكيين هم من احتلوا المسجد الحرام بمكة... غلا الدم في عروق سعيد وعم الغضب أنحاء ميت الشوكة وخرج الأهالي إلى الشوارع لا يدرون ماذا يفعلون وخرج معهم سعيد والأخوة يهز صوتهم طرقات ميت الشوكة... البعض يحمل الفؤوس والعصي في تحفز كأنما ينتظرون أن يروا أمريكيًا على رأس الشارع ليقنطروه انتقامًا لما حدث... الحناجر تشقق والعيال تجري فرغًا تحت أقدام الأخوة الغاضبين... لم يعد هناك ما يستوجب السكوت.

تحولت دروس الشيخ محمود إلى وصلات سب في الحكومة الخائنة المنصاعة كعبد ذليل لأمريكا حتى بعد انتهاك العرض والشرف والدين... الأنجاس يدنسون بيت الله الحرام بمكة بينما السادات يهادنهم في أمريكا... نوات أخبار إحراق مبنى السفارة الأمريكية في العاصمة الليبية... ثم السفارة الأمريكية في باكستان... ثم احتجاز رهائن في إيران وردود فعل غاضبة في أنحاء العالم الإسلامي... بدأ أن العارذ الإسلامي ينهض، توحده الفاجعة... النصر قريب ولا بد للشيطان الأمريكي من خضوع... امتلات النفوس بالأمل وظن سعيد أن فجر الصحوه على وشك البزوغ... ثم توقف كل ذلك فجأة... بلا مقدمات... ذهب الحماس وعاد الهمس البغيض من جديد.

جاهد سعيد حتى تبين ما يقال... لم يكن الأمريكيون هم من احتل المسجد الحرام... بل احتله أخوان لنا في الدين... هكذا سمع سعيد... بُهت عندما تحدث الأخوة عن خروج المهدي المنتظر واعتصامه في المسجد الحرام وطلبه البيعة من المصنين بعد أن أخرج السلاح من

عروش أدخلت للصلاة عليها في المسجد، لكنها كانت معبأة بالذخيرة...  
١١٠ الأمر كضرب من الخيال أو قصة سيرة الإخراج... رفض سعيد  
صديق الأمر برمته... رفض تصديق الأجواء الاحتفالية التي عمت  
المسجد والقرية... ألم يكن الجميع منذ أيام يسب ويلعن فيمن احتل  
بيت الله الحرام ودنس حرمة... لم يفلح الانسحاب إلى عالمه الخاص  
الذي جعله من اللونين الأبيض والأسود... لم يفلح الانسحاب بعد أن  
سيطرت على المشهد تلك الرقعة الرمادية القميئة من عدم الفهم... من  
التباس الحق بالباطل، المشهد ضبابي ولا يستطيع تفسيره، مهد الإسلام  
وجوهرة التاج وبيت الله محتل! ومن مسلمين يدعي أحدهم أنه المهدي  
المتنظرا

لكنه لم يستطع تكذيب أذنيه عندما سمع الخطبة التي ألقاها الرجل  
عبر مآذن الحرم وملاها بصراخ يصعب معه تبين ما يقول، والتي بثها  
الإذاعات العربية والعالمية التي تَنَقَّلَ بينها ليتابع الأخبار بلا انقطاع...  
خيل صداها يتردد بين جبال مكة وشعابها حيث خطا النبي الكريم  
وصحابته... يدنس جلال أطهر بقاع الأرض بصراخه الوقع... انهمرت  
دموعه بلا تحكم كاعتذار عاجز عما يحدث في بيت الله الحرام... سمع  
دعوات الرجل تخترق أثير الإذاعة إلى أهل مكة والقوات التي تحاصر  
الحرم للتوبة ومبايعة المهدي... لم يعد هناك مجال للإنكار... غرق  
في بحور الحيرة والشك وعاد إلى التلثم مع تدافع الأفكار كالصواريخ  
الموجهة إلى لسانه، كيف يطلب من يحتل بيت الله إقامة شرع الله!

إلى أن انتهى الكابوس بعد انقضاء أسبوعين مخلفاً وراءه مئات  
المنلى ومئات الجرحى في ساحة الحرم وشتات كيان سعيد الذي تمزق  
مع تلك الفاجعة التي هزت العالم الإسلامي برمته... لم يشاطر الأخوة

حزنهم المكثوم عندما علموا بإعدام المتبقين من رجال المهدي بعد أن  
قسموا إلى أربع مجموعات في ساحات أربع مدن رئيسية في أطراف بلاد  
الحجاز.

عندما اختلى سعيد بالشيخ محمود بعد صلاة العشاء تلك الليلة الفوق  
بهمومه على عتبة حكيمته... يرجو إجابة شافية تعيد إليه يقينه وتذهب  
عنه حيرته التي شلت لسانه... أخبره الشيخ بهدوء أنهم يعيشون عصر  
الجاهلية المعاصرة... وسط حكام كفره فرطوا في الدين حتى شابهه  
البدع وضل العباد واضطر المجاهدون إلى طرق أبواب الحلول الجذرية  
وإن بدت متطرفة وعصية الفهم بعد أن عنت الحلول التقليدية عن الإتيان  
بشمارها... والغاية في النهاية هي إعلاء شرع الله من جديد.

طواغيت هذه الأرض لن تزول إلا بالسيف يا سعيد

هكذا قال الشيخ بحسم فجاهد سعيد لإخراج الحروف أسيرة لسانه  
ليقول أن هؤلاء المجاهدين قتلوا الحُجَّاج وسفكوا الدماء في أطهر  
بقاع الأرض قبل أن يُقتلوا في النهاية بلا نصر من الله وبلا جدوى من  
موتهم... فقال له الشيخ أن هؤلاء الحجاج يُعثون على نوابيهم وأنه لا بد  
للحرب من ضحايا... صعفته تلك الإجابة التي تحمل في طياتها قسوة بلا  
حدود... لاحظ الشيخ ذلك التردد البادي على وجه سعيد وعينه اللتين  
بدأتا تزوغان فأمسك بكفيه ونظر مباشرة في عينيه

إن كان المجاهدون قد استشهدوا فإن الفكرة لم تمت يا سعيد...  
نحن لها... الإجماع عند أهل العلم هو أن الطائفة الممتعة عن  
بعض الواجبات الإسلامية الظاهرة وجب قتالهم وإن تكلموا  
بالشهادتين... يقول الله تعالى: **يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ**  
**وَدَرُوا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٥ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ**

اللَّهِ وَرَسُولِهِ<sup>(١)</sup>... فما بالك بمن أحل الربا وأجاز الخمر وحرم  
الجهاد وفرط في الجزية... يا سعيد هؤلاء باغون... اعتدوا علينا  
بتعطيل الحدود وإهمال شرع الله

هكذا قال الشيخ في هدوء متعمد... لكن رده كان شديد اللهجة عندما  
أبى سعيد نفوره من العنف وسفك الدماء وتفضيله الدعوة بالحسنى  
: ما فعل في قريته حتى امتنع الناس عن بيع لحمهم... أخذ سعيد في  
النعاش وهو يستمع للشيخ الذي تحول حديثه إلى صراخ

هل ستقيم المنابر الدولة الإسلامية يا سعيد... لا تكن ساذجاً...  
تلك منابر خاضعة للدولة بالأساس وإن تجاوزنا خطوطهم التي  
رسموها أغلقوها واعتقلونا... يقول رسول الله: من لم يغز أو  
تحدثه نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية... كيف تنجح الدعوة  
وكل منابر الإعلام تحت أيدي الفسقة الكفرة، أنت تدعو عشرة  
وهم يدعون الملايين... فلا تشغل عن الجهاد بالدعوة... أم  
تريد تعطيل ونسخ فريضتي الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن  
المنكر... استقم يا سعيد

توقف الشيخ لالتقاط أنفاسه والسيطرة على انفعاله مع الارتباك البادي  
من سعيد

الإسلام صالح للتطبيق في كل زمان ومكان... وصالح لتسيير حياة  
الجميع... من المسلم صحيح العقيدة إلى الفاسق والكافر... وإن  
تعاش القوم مع أحكام الكفر فما بالك بأحكام الإسلام التي بها  
من الخير والعدل ما يكفي أهل الأرض والسماء ويفيض... كل

ما هنالك أن الفطرة السليمة قد فسدت واستمرأ القوم المعصم، حتى لم يعودوا يعرفون مصلحتهم ووجب علينا تقويمهم ليعودوا إلى فطرتهم السليمة... كيف يخرج شباب طيب في هذا الحـ الذي أفسده وسائل الإعلام بما فيها من فحش القول وانحراف العقيدة... لذا وجب الاستحواذ على تلك الوسائل... وإذا تم لنا التمكين من تلك المنابر تحقق النصر... الناس كالأواني الفارغة تنتظر ما يملؤها ومن ثم يملكها ويحركها

تكرر سماع سعيد لتلك الكلمات خلال الأسابيع التالية... ثم تحولت كلمات الشيخ محمود قطب من مجرد خطب إلى واقع ملموس بينه سواعد وألسنة أتباعه الذين راحوا ينشرون الفكرة في القرية، واشتدت شوكتهم بانضمام المزيد من الشباب إلى لواء الشيخ الذي أخذ منهم البيعة على المنشط والمكره... يكرر على مسامعهم الحديث الشريف

من أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ الْإِمَامَ فَقَدْ أَطَاعَنِي...  
عَصَايَ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ عَصَى الْإِمَامَ فَقَدْ عَصَايَ

ابتلع سعيد الرفاعي نفوره المتزايد وسار في الركب كي لا يخالف الجماعة... لكن بداخله شيء لم يعد كما كان... يقدم قدمًا ويزعم الأخرى في بناء رؤية الشيخ محمود للمجتمع الفاضل.

بحلول الشتاء كان هناك واقع جديد في باب الحجازي يماثل ميت الشوكة... في البداية اقتصر الإمام على تغير شيخ الكُتَّاب بشيخ جدي. من ميت الشوكة ليعلم الأطفال صحيح الدين... ثم ظهرت دار بسطة البناء، بداخلها لافتة صغيرة كتبت بخط متعرج تعلن أنها مقر "الدعوة الشرعية بباب الحجازي". يجلس بين جدرانها التي يغطيها اللون الأصفر قاضي شرعي للبت في أمور أهل القرية... حرص الإمام بإيعاز من سعيد الرفاعي أن يكون القاضي من ميت الشوكة، وهو رجل خمسي

... رشح الشيخ محمود قطب بنفسه، ليكون ملماً بالفقه الإسلامي  
في المسائل التي يحكم فيها... هناك يستمع ذلك القاضي لشهادات  
... في النزاع وللشهود، يدلّه مساعدوه من باب الحجازي على من عرف  
هم بشرب الحشيش، أو اشتهر بالسمعة البطالة، ليشتي شهادتهم...  
... يشرون عليه ليستمع لمن عرف عنه التزامه الديني... كان الرجل  
... من شهادة من لا يقيم الصلاة ولا يقبل شهادة النصراني إذا كان طرفي  
... اراع مسلم ونصراني، وفي النهاية يصدر حكماً شرعياً ملزماً لجميع  
الاطراف... أما تنفيذ تلك الأحكام فقد آل إلى شباب من جماعة الإمام  
اطاق الفلاحون عليهم "الفواعلية"

طل دور الفواعلية محدوداً حتى أتى ذلك الصباح الذي أمسكوا فيه  
أما وأوسعوه ضرباً في قارة الطريق... لم يعترض أحد من المارة على  
... ضربة الضرب... بل ارتفعت أصوات تقول "يتساهل أكثر من كده"  
... على مدى الأسابيع التالية تكرر المشهد وتعددت الجرائم وبدأت العيون  
... مناد مشاهد ضرب المجرمين... تعناد عويل الرجال يرتفع كخوار عجل  
... مع عندما ينهال عليهم الفواعلية بخرزاناتهم... يتمزق نسج صراخهم  
... أنفاسهم المختلطة بأديم الأرض... لم يقاوم من وقع عليه العقاب  
... ملحقاً في تخفيف حدة الضرب... وهو ما راعاه الفواعلية... فمن يلتزم  
... الطاعة يعامل بالرفقة في الضرب... ورويداً ورويداً تسلسل ذلك المشهد  
... أصبح جزءاً من الحياة الطبيعية لباب الحجازي ولم تعد مشاهد الدماء  
... تسيل من الظهور تؤذي العيون.

ومع اقتراب موعد المولد في ذلك العام خيم على باب الحجازي  
صمت مقبض ولم تستعد القرية كماداتها لاستقباله... وهذه المرة لم يفتح  
الحاج محمد السناري أو أي من الأهالي فمه... كان منع المولد وطرد  
السوة المرابطات أمام الباب تحت بصر وسمع الجميع علامة فارقة في

تاريخ باب الحجازي... تعاظمت من بعدها سلطة الإمام والقواعلية...  
كل تنازل وغضة بصر من الأهالي على تدخلهم في كل أوجه الحياة  
يوصلون التقدم نحو الهيمنة المطلقة، يمهد طريقهم خوف الناس  
المتنامي... وبدا أن البلدة تسبح في عالم مواز... بلا تدخل من المرزوق  
الذي بدا أنه يبارك بصمته ما يتم.



## (٨)

كان الإمام جالسًا في إحدى حلقات العلم التي لا تنفض في دكانه  
منما دخل عليه رجل غريب عن باب الحجازي... برغم نحولته  
الشديدة، إلا أن أول ما لمح الإمام كانت تلك الندبة البيضاء التي تشق  
فوده... عدل الرجل من وضع نظارته ذات الإطار الدائري قبل أن يخبره  
أن الأمور بنفسه هو الذي بعث به إليه مؤكدًا أنه سيجد طلبه لدى الإمام  
أهلاً وسهلاً بكل اللي يبجي من ناحية العامور... نشرب شاي

### الأول

قام الإمام لعدة الشاي في زاوية الدكان بعد أن انفضت حلقة العلم  
لبختلي الإمام بضيفه... صب له الشاي من إبريقه النحاسي وعاد للجلوس  
محسوبك فتحي... تقدر تقول إني الدراع اليمين لرجل كبير أوي  
مال فتحي إلني الإمام ونظر في عيني الإمام مباشرة كأنما ينفذ إلى  
أعماقه

الراجل ده ليه طلب والمأمور قال لي إن الحل والربط في البك  
مولانا

ابتسم الإمام في رضا... لم يكن يستوعب ذلك الوضع الغريب الـ  
جمعه بالمركز منذ هروبه من السجن لكنه لم يكن ليعترض

اللي حيقدرنا عليه ربنا حنعمله إن شاء الله

عاد فتحى بظهره إلى الخلف قبل أن يقول

أنا متأكد إن ربنا حيقدرك يا مولانا... المأمور يقول إن العشم اللـ  
بنكم بخليك مترفضلوش طلب... والراجل اللي أنا شغال عاه  
حبيب المأمور وحيز عل أوي لو طلبه متفدش... أمالو إتفدش بـ  
فتحة خير لك وللبلد كلها

تابع الأهالي بفضول فتحى الذي ظل في ضيافة الإمام حتى اقتربت  
الشمس من الغروب وقام الإمام يودعه... مر في طريق عودته بالترعه  
حيث اصطف الأطفال تتلئ أقدامهم فيها... يمسون بالصناير البوص  
القصيرة، يجاهد كل منهم لإيجاد سمكة حتى وإن كانت أصغر من كفه  
الدقيق... لم يتبه فتحى إلى النسوة المصطفات على جانب الترعة...  
إلا أن زينب، التي كانت تراقب أخويها الصغيرين وهما يتشاجران مع  
أقرانهما حول الموقع الأفضل لصيد السمك، لمحت يرحل في صحبة  
أحد الفواعلية.

لم تعر زينب ذلك الوجه الغريب اهتماما وشرعت في غسل الأواني مع  
رفيقاتها في مياه الترعة يعلو صوتهن بالضحك الرائق والتميمة المحببة...  
إلى أن هدر صوت خشن

اتحشمي يابت منك لها

إن ذلك صوت الفواعلي الذي عاد لتوه من توصيل فتحي... عدلت  
من ثيابهن وخيم الصمت على الفور ولم يبق سوى صوت  
ما ذاك آية النحاس التي تقاوم النظافة في مياه التربة.

إلهي تنطس في قلبك يا بعيد

هكذا قال كامل بعد أن اختفى الرجل فانطلقت ضحكات الفتيات  
ديد، وعاد هو لتطيف قلبه التي أوشكت أن تفقد شعرها في الماء  
كانت زينب قد قاربت على الانتهاء من الأواني عندما جاءت  
فاطمة تلهث بالأخبار الواردة من ميت الشوكة... روت بصوت مرتعش  
أمامات متقطعة ما سمعت من زوجها رمضان أن حد الجلد قد طبق  
في ميت الشوكة على أحد الفلاحين... لم تعلم ماهي جريمته لكن أزيز  
السيوط على ظهر الرجل مع صرير تمزق جلده الذي حملته كلمات فاطمة  
سم أذان النسوة على التربة وملا الأفتدة بالرعب... اصفرت الوجوه  
ومدما روت ما قاله رمضان عن نية الفواعلية في الاحتذاء بميت الشوكة  
مع من يخالف الشريعة في المستقبل.

عندما عادت زينب إلى الدار كان الخير قد سبقها إلى أمها... باتت  
باب الحجازي وليس لها حديث سواه... إلى أن علم الجميع صباح اليوم  
التالي أن المركز قد اعتقل بعضاً من رجال الشيخ محمود قطب مع تهديد  
صريح للشيخ ذاته إن تكررت تلك الأفعال... أثلج ذلك الخبر صدور  
الأهالي الذين باتوا ليلتهم تؤرق مناهم كوابيس ما سيفعله الفواعلية  
بهم إن أمسكوا سوط الشريعة يلهجون به الظهور بلا رقيب... برغم تنفس  
الجميع الصعداء إلا أن قلب زينب وأم سعيد انفطر قلقاً على سعيد،  
المقيم في ميت الشوكة، إلى أن أكدت فاطمة أنه لم يكن بين المعتقلين.

برغم ما شاب علاقته بأخيه من توتر ونفور... إلا أن مصطفى تنفس

الصعداء بدوره عندما علم أن أخاه لم يُعتقل... استلقى على سريره، يستنشق عبق القرن الذي أشعلته أمه لطرود البرد... تلك الليلة انهم المطر بلا توقف... كان الحبس بين أربعة جدران وتقييد الحرية هو أسوأ مخاوف مصطفى بعد أن عاش تلك التجربة العصية في المعتقل لشهور طوال بلا أمل في الخروج... شعر بالشفقة على من اعتُقل من ميت الشوكة عندما تذكر آثار التعذيب البادية على أجساد رفاق المعتقل من الشباب أمثالهم الذين يتخذون من أبي الأعلى المودودي إمامًا ومن سيد قطب شهيدًا ويريدون قلب النظام الكافر لتكون الحاكمة لله... خاصة أولئك المساكين ممن لا يتمكنون إلى تنظيم كبير يفاوض الحكومة لإخراجهم... أصبح يشعر أن القرية ذاتها تحولت إلى سجن كبير يضغط على صدره... وعاوده ذلك الإضطراب الذي دفعه يومًا إلى ترك داره والذهاب إلى عالم القاهرة المجهول... استلقى على جانبه وأخذ يراقب بقع الرطوبة تنتشر في جدران الدار... يحاول جاهدًا صرف "عفريت مصر" كما أسماه أبوه قديمًا.

لم يكن يعيش في عالم بكر مليء بالفرص التي تلهب حماس شاب مثله وتجعل كل الاحتمالات والأحلام ممكنة بعد أن تحولت قريته الصغيرة إلى مكان يحضر يتهافت عليه أكلة لحوم الميتة والمترميمين في منظر كرهه... لا يدري لم تذكر أبيه... كم يفقده... يعلم أن زينب تكثرت من زيارته منذ اختفاء سعيد، كأنما تعتذر له عما بدر من توأمها... يعلم ذلك عندما يذهب لزيارته ويجد التربة لاتزال رطبة من أثر سقاها... مات جزء من زينب بموت أبيها. يعلم مصطفى ذلك جيدًا، فأبوه لم يعاملها كأنثى ضعيفة، بل كشخص كامل يعتمد عليه، ربي بها الاستقلال... يرجع مصطفى جزءًا من ذلك بسبب سفره، فبقاء أبيه وحيدًا مع سعيد القابع في عزلته، اضطره للاعتماد عليها... أحس بمرارة حقيقية عندما احتل سعيد فكره... كل المصائب التي حلت بسعيد ترجع إلى تقربه من الإمام...

فرارة نفسه، راح يلعن الإمام الذي لم تر القرية خيرًا منذ أن ظهر على  
أرضها.

عندما أشرقت شمس يوم جديد على باب الحجازي كانت السماء  
أفرغت ماءها... أقيظته زقزقة العصافير في سقيفة الحطب... مر في  
طريقه إلى عزبة فؤاد خيري بتجمع غفير، بعض الصبية يركضون حول  
مل يقدفونه بالحجارة ويضربونه بالعصى... لم يتبين مصطفى وجهه  
ما يقفاده القواعلية إلى الساحة الكبيرة أمام الباب... فيما وقف بعض  
الصبية يتراهنون على قدرة الرجل على التحمل، وهل سيتوسل للفواعلية  
لإيقاف الضرب ومتى سيفجر باكياً.

لم يتوقف مصطفى لرؤية المشهد البغيض أو حتى ليتبين ما جريته  
وأسرع الخطأ، يطارده صوت الرجل الذي أخذ ينخر ويلهث كالمحتضر...  
ملاحقه أصوات بعض حناجر النوبة تتمزق تحت وطأة العويل ككلاب  
معمورة عقدت العزم على اقتناصه... في العزبة كان الفلاحون يتناقلون  
الأخبار... قال أحدهم أن الرجل شوهد في خلوة غير شرعية مع فتاة

يتاهل ابن الصرمة... مبقاش في خشى

ماقالوش مين البت اللي مسكوه معاها؟

لا ماقالوش

تراهن إنها البت فاطنة... حتى تلاقى رمضان جوزها كان يبضرب  
الوله بغل

ابتسم الرجل حتى بدت أسنانه التي أهلكتها الكيوف، ونغز الآخر في

جنبه

البت الصراحة مربربة وزى لهطة القشطة

احنا حنفضيها حكاوي ولا إيه... اللي حيرفع راسه من خط القطر  
حتخصم يوميه

هكذا صرخ فيهم مصطفى فسارعا إلى الأرض... لا يدري لم أصبح  
مزاجه عصبيًا حادًا... أهى البلدة التي أصابها الجنون أم أنه هو الغريب...  
أم أن تلك العصبية أثر انقطاعه عن جلسات السماع منذ أن فقد الرغبة في  
الذهاب بعد رواية الباشا عن الحجازي... بعد ذلك الشك الذي أذهب  
كل معنى ارتبط بالمكان وكثُر عليه صفاء تلك الجلسات... لم يكن كل  
ذلك مهمًا بعد أن منعها الفواعلية على الجميع فور صدور فتوى اللجنة  
الشرعية بحرمة تلك الجلسات... عاود لعن الفواعلية وإمامهم في نفسه  
قبل أن ينهمك في العمل.

بعد صلاة المغرب جلس مصطفى محني الظهر على مسطبة السناري  
بينما يتندر الحضور على كامل المجذوب الذي يتراقص مع كلبته...  
حاول أن يسري عن نفسه... جاهد ليشارك الجمع في لهوهم لكنه لم  
يستطع فاستأذن وانصرف... عندما دلف إلى داره فوجى بأخر وجه  
يتوقعه... في صحن الدار وقف الإمام ساكنًا... يطالع مصطفى... يؤكد  
سطوته وحضوره قبل أن يبدأ في قول ما عنده.

## (٩)

أخرج سعيد الحُصر من الجامع بعد صلاة الفجر وانهمك في تنضيفها  
بعناية... عندما أشرقت الشمس فاحت رائحة الزرع المخضلة بالندى  
وملات صدره بينما يرتل أبو حسين الديك القرآن بصوته الجميل،  
فيما يردد بعض رواد المسجد "الله الله الله" هل سمي الديك بذلك  
لحلاوة صوته، أم لأنه دائم الترتيل عقب صلاة الفجر... لا يهم، فترتيل  
اليوم مبهج بشكل خاص... بهجة تليق بيوم زفاف الشيخ محمود...  
نخيل وجه شيخه فرحًا بعد طول توتر بسبب الأحداث المتلاحقة التي  
لا تدع لمن يعيش في هذه السنوات الملتهبة مجالًا للتنفس... أسعدته  
الفكرة، فابتسم بينما يجمع الحُصر.

بحلول القيلولة حاول أن يجد وضعًا مريحًا على أرض المسجد  
الصلبة بعد أن انتهت من سُنَّة الظهر، اتكأ في مكان نومه بجوار الجدار  
وأغمض عينه... لم يدركم انقضى من الوقت حتى أيقظه وكز في كتفه...

فوجى سعيد بمصطفى يقف فوقه فجفل للحظة قبل أن تهدأ نفسه ..  
جديد... لم يكن رائئ أياً من أهله منذ طرده من الدار... شعر بغصة من  
حلقة عندما تذكر ذلك اليوم ولعن الشيطان في خاطره... انتحى الأخوان،  
جانباً من الإعدادات التي تسير على قدم وساق للحفل الذي سيبدأ ،  
صلاة المغرب... أعدت أواني الحلوى والمشروبات التي ستلونها وليلة  
العرس بعد صلاة العشاء.

صاحبك اللي ضربتني وشمتم أبوك في تربته علشانه عايز بيع  
أختك... وانت عايش في عالم ثاني... الراجل الخليجي اللي  
جابه خالك دلوقتي مشغل صاحبك خاطبة... وعايز يشتري لحم  
أختك بفلوسه

أخذت الكلمات بضع ثوانٍ حتى استقرت في عقل سعيد الذي كاد  
ينصهر... أراد ألا يصدق... أراد أن يبكي حرقه... أراد أن يصرخ... أراد  
أن يموت قبل أن يصدق ما يقوله أخوه... لكن عيني مصطفى التي تخترق  
صدره لم تدع له مجالاً لذلك

ابن الكلب ده مش ناوي على خير... أنا شفت الشر في عينه...  
قال إنه لسه بيدور على البت اللي كانت مع راجل ضربوه امبارح  
علشان اتقفش معاها، وإن في كلام داير عن زينب... بيلمح  
يا سعيد إنه ممكن يرمي بلاه علينا... ده ممكن بيع أمه علشان  
مصلحته

قطع الحديث دخول بعض الرجال بشياهم الجديدة إلى المسجد  
استعداداً للزفاف... يهتئون العريس الذي حضر لصلاة المغرب مبكراً...  
زادت تلك البهجة التي تملو الوجوه المحيطة من وضوح الهم الذي حملة



..مصطفى، الذي خفض صوته وهو يقول

محدث عارف يقف في وشه... الحاج محمد السناري مباحث له  
كلمة والشيخ عبد الكريم حبيب البلد ويطفش الليلة... وكله من  
تحت راس الفقر اللي انت مصاحبه

اسسكت

انت له ليك عين تتكلم... أختك حتضيع وأمك حتموت من  
قهرتها

انصهر سعيد تحت لهيب نظره وتصيب عرفاً

حج... حيعمل... كك... كك.. كده ليه

أكيد حينوبه من الحب جانب... مش بيع اللحم حرام يا شيخ  
سعيد... ولا ده حلال في عرفكم... أنا مش عايز منك حاجة،  
وأمك لو عرفت إنني جتلك كانت قطعت خبري... أنا جاي بس  
أعرفك الوقعة المهيبة اللي وقعنا فيها من ورا عميلك

ظل سعيد صامتاً، وظل مصطفى يتحدث... لكن سعيد لم يعد  
بصفي... لم يعد يسمع سوى صوت الدماء الفائرة في عروقه

بات سعيد تلك الليلة في ظلام المسجد وحيداً... تنغزه أصوات  
الأخوة التي تعلقو بأناشيد العُرس في فرحة وسرور بلا حدود... أخذ يفكر  
فيما ألت إليه حياته.

نكاح شرعي... سرت قشعيرة باردة في ضلوعه عندما تذكر تلك  
الكلمة التي راحت تكرر في إجابة الشيخ محمود... ذهب إليه يستجده  
في يوم زفاف ابنته عل قلبه يرق لينفذ زينب من أن يفرسها كهل... ذهب  
بخاطب فيه الأب الذي يفرح لابته... كل ما أرادته منه هي كلمة... يتعلق

بأمل أن يقول أن تلك زيجة حرام... يقول أنها دعارة مقننة والدين معها براء... فإذا به يقول أنها مسألة فيها خلاف بين أهل العلم... والأكثر دواعي جواز ذلك ما دامت نية الطلاق ليس فيها مشاركة بين الرجل وبين الزوجة أو أهلها فليس هذا من باب المتعة... قال أنه نكاح شرعي صحيح عند جمهور أهل العلم... وكونه يتوي الطلاق في المستقبل عند سفره فهذا شيء مباح له... ظل صوت الشيخ يطن في أذن سعيد حتى انبلح الفجر وفتح باب المسجد للمصلين الذين ناموا ليلتهم بعد أن امتلأ بطونهم من وليمة الزفاف... كان حاضرًا بجسده فقط في صلاة الفجر بينما عقله في مكان آخر... لا بد أن أمه ظلت تسب فيه طوال الليل. تخيلها وهي تقول أن لا خير فيه... يعلم أنها عبيدة لا تلين وتبحث عمن يحمل الذنب دائمًا... لكنها محقة إن لامته هذه المرة، فالحقيقة أن لا ذنب لأحد غيره في ما سيجري لزينب... توأم البطن الواحدة وأعز مخلوقة لديه في الوجود... احتلت صورة الإمام مخيلته، ذلك المتزلف المرتزق... كل مقهور هو قاهر تحت الطلب... كيف لم ير ذلك... لكنه لن يبقى مكتوف اليدين بينما أخته تضيع بسببه... وكما يقول المثل، بعد حرق الزرع لا معنى للجيرة... هكذا راح يتردد داخله وهو ينهي صلاته.

اقتحمت زينب عليه خلوته... تعلو وجهها ابتسامة واثقة تشع عبثاً... لم تكن ترتدي الأسود كالعادة... بل ارتدت جلباباً أبيض كفساتين الزفاف، بدا الجلباب ضيقاً عند الخصرة... لكن الإمام سرعان ما حول نظره عن تلك المنطقة المحرمة من جسدها... جالت بخاطره تلك القنعة الراسخة التي وثقتها السنوات أنه محصن ضد غواية النساء. أفاق من ذلك الخاطر على نبض قلبه المتسارع عندما وقفت زينب أمامه مباشرة، خصرها في مستوى عينه، شيء ما في وقفها، في مشيتها... شيء ما أنبأه أن هذه ليست زيارة عادية، وأنه أصبح كالراعي يحوم حول الحمى بوشك أن يقع فيه... تسارعت أنفاسه حتى اعتقد أن لهائه أصبح مسموعاً ونسربت الرغبة الملتهبة تغزو جسده، لسبب ما قرر أنه لن يقاوم... ربما أراد أن يرى إلى أي مدى سيفضي ذلك الأمر... ربما تمنى أن يقع ما لا يمكن تخيله... سيرضى بالذي تسمح به زينب... فالحقيقة أنه يريد أن يتهل من نبعها

## أنا جاية استفتيك

قالتها بصوت يقطر عهراً محبباً... تنحنح الإمام ويبحث عن كاهلها...  
يقذفها لكنه لم يجد، فاتسعت ابتسامته زينب وعلم أنها تدرك أنه...  
تحت رُحماها، الغريب أنه استمتع بذلك الشعور، استمتع بالوقوع نه  
سقوطها تتلاعب به كالدمية... رفعت زينب جلبابها حتى بان فـ...  
وجلست على حجر الإمام وجهاً لوجه، تلتفح وجهه حرارة أنفاسها  
شعر الإمام بروحه تنساب، تنزع من صدره مزعاً حتى لم يعد قادراً...  
التنفس

هو أنا لوركب الحمار كده يبقى حرام!

لم يميز الإمام الكلمات، فقط رأي شفاهها تتحرك... يلسعه  
جسدها حينما يشعر بالاحتكاك الأثم بين فخذيها... لم يدرك الإمام بيده  
التي انغرستا في لحم ظهرها تدفعها نحوه... يدفن وجهه بين نهديها،  
وهو يشهق شهيقاً... لم يعد يفكر في مكانته أو يخاف من دخول أحدهم  
عليه في مثل ذلك الوضع... لم يكن بيده كبت جماحه، لكن زينب قام...  
كالمسوعة من فوقه فاتسعت عيناه في ارتياح... لم يستطع عقله تتبع ما  
يحصل... هل حدث ما حدث أم أنه يتوهم... اللعنة... وقفت زينب أمامه  
متصبّة تنظر إليه بغضب هادر... أفاقته تلك النظرة الغاضبة فأخذ يحدث  
نفسه بأنها من بدأت، هي من جلست عليه حتى أذهبت عقله... حاول  
الكلام لكن كل ما خرج من فمه كان غمغمة غير مفهومة.

أفاق الإمام من ذلك الحلم وقد بلل فراشه... فقام واغتسل بماء الشتاء  
البارد قبل أن يخرج لصلاة الفجر... كان قد اعتاد مثل تلك الأحلام التي  
تزايدت وتيرتها مؤخراً... لكنه كان يحاول إقناع نفسه بحقيقة أن ز  
لن تكون له... وأن ما سيحل بها هو عقاب عادل على عندها وتكبرها...  
رفضته وهاهي ستزوج كهلاً برغم أنفها.

اماط به رهط من مرديه في طريقه إلى داره بعد الصلاة وحيثه الجموع  
 عة من الجامع وتلك الذاهبة إلى الغيطان يجرون خلفهم بهائمهم...  
 ١٠٠. هم تحيتهم وقد لاحظ تلك النظرة المميزة في العيون... نظرة اللوم  
 من دان سيد خطاب يتلقى سهامها... يدرك أنه لم يعد يجدي الحديث  
 أنهار اللبن والعلل وقصور الذهب والفضة في الدار الآخرة بعد أن  
 من السمن من الجرار وفرغت المخازن من الحبوب والدقيق... لا  
 ١٠١. من قوله افرحوا وتفاءلوا واحمدوا الله فهناك من هم أكثر منكم  
 بعد أن استحكمت الجوع وتفعل الفقير... البلدة تكاد تموت جوعاً...  
 ١٠٢. اهل الفلاحون أنهم انتحروا منذ زمن ببناءهم على الأراضي الزراعية...  
 تزون على الدخل الذي توقف من زراعة أرض سيد خطاب من تحت  
 ... ودخل نساتهم من بيع التذكارات عند الباب الذي حرمه بنفسه...  
 ١٠٣. ك الإمام أنه يير على جبل معلق في السماء، يمسك منشأً ينحر به  
 ١٠٤. به بعد أن عبر... الكل يشير إليه بالبيان كلما ارتفع... وكلما ارتفع أكثر  
 ١٠٥. هدفاً واضحاً سرعان ما سيقدفونه بالحجارة إن لم تتحسن الأحوال.  
 نان عليه أن يجد حلاً... وقد رزقه الله حلاً هبط عليه من السماء،  
 ١٠٦. يبعث المال بالإضافة إلى نشوة الانتقام لجرحه القديم من زينب  
 ١٠٧. اما تخيلها مع كهل عاجز عن أن يروي ظمأها... الإغراءات المادية التي  
 ١٠٨. مها فتحي ستحل له الكثير من مشاكل أهل القرية التي تلتف حول  
 ١٠٩. فه يوماً تلو الآخر... سيهب البعض عقود عمل بالخليج تكسبه ولاء  
 ١١٠. يريد من الأهالي، كما أن المال الذي سيوضع في يده سيمكنه من شراء  
 ١١١. مس الأفواه بالقليل من السمن والغلة... كل ما عليه أن يتأكد من إتمام  
 ١١٢. بجة بأي شكل وبأي ثمن.

بعد شروق شمس ذلك اليوم خرج الإمام من داره يتأبط بعض  
 الـ ريفات متجهاً إلى اللجنة الشرعية... وجهه كان جاداً ينبئ بأمر جليل...

ما أن استقر بين يدي القاضي الشرعي، الذي قام مسرعاً من مجلسه وحياء  
بحرارة، حتى تقدم بشكواه... لبضع دقائق بدا أن القاضي لم يستوعب ما  
قرأ وغلف الحجرة صمت كالقبر.

عندما عاد الإمام وجد سعيد الرفاعي مع كامل المجذوب في انتظاره  
أمام باب داره، يحدجه بنظرة نارية... صرف الإمام كامل ثم بادر سعيد  
بقوله

عندي ليك أخبار حترحرك... اسألني أنا جاي منين دلوقتي

لم بيد أن سعيد سيجاريه فأكمل الإمام

لسه مقدم طلب فتوى شرعية في موضوع الباب... قربنا نخلص  
منه يا سعيد... لا حيتباع ولا حيقني... حنحرقه وأعلن ما في خيل  
الحكومة تعمله... ده إن سأل عنه حد أصلاً... وشيخ الحضرة غار  
في داهية خلاص ومعاه دراويشه والمقام بقى خرابة... خلاص يا  
سعيد... حلمك حيتحقق وشرع ربنا حيحكم البلد

عايز تخلص معمم... مم... من الباب ليه

انت اللي بتسال يا سعيد... مش انت اللي قعدت تقول ده شرك

اختنقت الكلمات على طرف لسان سعيد فخرجت همهمه مبهمه...  
لكنه شحذ كل مجهوده ليقول

يا ابن الكلب

خرجت تلك الكلمة كالصرخة بين نهته سعيد فندت ضحكة قرية...  
نظر الإمام إلى كامل الذي وقف خلف الدار يسرق السمع فالتقط حجراً  
ورماه به فولى هارباً.

احترم نفسك يا سعيد... أنا عامل اعتبار للعشرة... لولا كده كان  
يبقى ليا تصرف ثاني معاك

تبيع عمع... عمع... عرضنا يا ااا... ابن الكلب

لم يلحظ الإمام يد سعيد التي أخذت بالارتعاش بالرغم عنه

لآخر مرة بقولك حاسب علي كلامك يا سعيد... الكلام معايا  
بحساب يا ابن الناس الطيبين... وبعدين بيع عرض إيه اللي  
انت بتكلم عليه... ده جواز علي سنة الله ورسوله... اتقي الله  
يا سعيد... سب الكلام ده للجهلة... كلنا مجرد أسباب لتنفيذ  
مشيئة الله

لو قررررر... قربت لللل... لل... لاختي حشق بطنك

عادت الضحكة من خلف الجدار فتصاعد توتر الإمام وصاح بكامل

والله لو مسكتك يا ابن الوسخة لأعدمك العافية

ثم التفت إلى سعيد وقد احتقنت عيناه وأخذت شفتاه في الارتعاش

أما انت فكده لازم تتأدب... ضحكت علينا البهايم... أنا مش  
فاضي لتهتهتك دي

هكذا قال الإمام وأدار ظهره منهيًا الحديث... ثم ما لبث أن ندم علي  
ترك سعيد يغيب عن ناظره عندما سكنت الريح فجأة وسمع حفيف نعلي  
سعيد يقترب منه سرعًا... وقبل أن يتخذ أي رد فعل مناسب كان سعيد  
فد تعلق بعنقه.

خلفه كان وجه سعيد يحمل أعتى أمارا - الغضب والمرارة... لم يابه  
لأظافر الإمام التي انفرست في ساعديه وراح يعتصر رقبته بكلتا قبضتيه

بكل ما أوتي من قوة... راح يضغط... يخلص نفسه من ذنب أخته...  
يضغط... يسمع حشجة الإمام التي لم تشف غليله فيضغط من جديد،  
بكل قوته ليسمعه بيديه ما عجز لسانه عن قوله.

كان ينقص سعيد أن ينظر في عيني الإمام وهو يغيب عن ديانا فأفده،  
ليقع أرضاً يشهق بعنف... أداره دون مقاومة منه حتى واجهه فأخذ الإمام  
يعول ويستغيث بصوت مختنق فجثم سعيد على صدره وحمل قبضته التي  
استقرت في وجه الإمام كل الغضب الكامن في صدره... راحت قبضته  
تتواليان في تكسير عظام وجهه... يراود سعيد صوت ذلك المختل الذي  
اعتقد أنه المهدي المتظر واحتل الحرم... هل اعتقد الإمام أنه مهدي  
باب الحجازي المتظر... كيف تناسى أنه مجرد متعلق ركب الموجة  
عندما سنحت الفرصة... حتى الكلمات التي خرجت من فمه وغيرت  
وجه القرية لم تكن كلماته.

استقرت قبضته من جديد في وجه الإمام الذي فقد ملامحه وأخذت  
عيناه الملتاعة تدور في محجريهما فيما تائثرت الدماء من فمه... شعر  
سعيد أن ما بداخله من غضب لم يتنه بعد فقبض على شعره ورفع رأسه  
ليدقها في الأرض... لعله يخلص البلدة من تلك الأرواح الخبيثة التي  
سكنت هذا العقل الخرب... إلا أن الأيدي التي قبضت عليه من الخلف  
حالت دون ذلك، أيادٍ كثيرة وكلام متراكب لم يميزه سعيد في البداية حتى  
ارتد عليه بعض من وعيه. مال الرجال على الإمام يتفحصونه وقد بدا جثة  
هامدة فأطلق سعيد ساقيه للريح... لا يعلم إلى أي الأرض يذهب.

عندما أفاق الفواعلية من صدمة رؤية الإمام ممدداً على الأرض انطلقوا  
يبحثون عن سعيد في الطرقات والغيطان... فتشوا داره والدور المجاورة  
وكل دور أقرابه... ذهب بعض منهم للبحث عنه في ميت الشوكة...



حلول الظلام لم يفض البحث والتفتيش المحموم إلى شيء... تبحر  
ميد الرفاعي من على وجه الأرض.

نقل الفواعلية الإمام إلى مستشفى المركز غائبًا عن الدنيا وهناك  
أمرهم طبيب قصير ذو صلعة براقه أنه كان على بعد خطوة من الموت...  
نصف حول فراشه جمع من مرديه حتى اكتظت الغرفة المشتركة بهم...  
العض طفق يدعو له بينما جلس آخرون في ركن الحجرة يتحدثون فيما  
بينهم عن معجزة بقاءه حيًا.

أفاق الإمام في وقت متأخر من تلك الليلة، فأنته مرضه لم تخف  
شعورها بالضجر أثناء تغير ضمادات وجهه

دي حادثة؟

هكذا سألت الممرضة بلا اهتمام حقيقي بالإجابة، فظل الإمام صامتًا  
وأصر فور انتهائها أن يُنقل إلى داره... برغم الظلام الحالك الذي غلف  
الطريق إلا أن الإمام ظل يرى شررًا في عينيه... وبرغم ضلوعه التي تن  
وجروح وجهه الذي انتفخ عن آخره، كان هاجسه الأكبر في تلك اللحظة  
خيالات تحوله إلى مادة خصبة للثرثرة... تلعه الألسنة السامة بالتلاقيح  
الوقحة والنظرات الغائرة... ألهمت جراحه كلمات المواساة التي انهمرت  
عليه من مرديه طوال الطريق... ولم يشف غليله ركاب السباب والوعيد  
الذي ألقى على سعيد... لم يكن بحاجة إلى سماع كلام الفواعلية ليعلم  
أن عليه الانتقام من سعيد الرفاعي إن أراد أن يتمكن من رفع رأسه من  
جديد في القرية.

بينما الإمام حيس داره حتى لا يرى أحد الورم الذي أذهب ملامحه،

كان كامل المجذوب يطوف بالدور والمساطب... يروي ما شاهده بأم  
عينه حين كاد الإمام يلفظ أنفاسه الأخيرة... راح يُقلد الإمام الذي أخذ  
يعول كالنساء بينما سعيد الرفاعي فوقه.

ضرب كامل بيده على قفاه ليقلد صوت الصفعات التي تلقاها الإمام

جااااي... وسعيد يلوح لظنه بالكف على قفاه

هكذا أخذ يردد كامل ثم يتبع ذلك بوصلة جديدة من نواح النساء وهو  
يتلوى أرضاً فيضح الجالسون بالضحك... ضحك يحمل ما يموج في  
صدورهم من حنق وكره للإمام وجماعته.

قاومهم كامل حتى أدمى وجه اثنين منهم، حاولت كلبته حمايته إلا أن العصي انهالت عليها بدورها... عندها حاول كامل حمايتها حتى بجسده... قبض على خصية أحد الفواعلية فتلوى أرضاً يصرخ في هلع، وعض أيادي الآخرين وهو يبكي ويسبهم بأمهاتهم يحاول الوصول إليها قبل أن تفر وهي تعوي... تكالبوا عليه حتى تمكنوا من تقيده... خمس ضربات من تلك الخيزرانة السميقة كانت كفيلة بطرحه أرضاً، طالت إحداها أذنه فأدمتها، بينما استقرت باقي الضربات على ظهره الذي تحول إلى شبكة من خطوط النار تشويها الشمس التي صعدت إلى كبد السماء لترقب ما يحدث في صمت مخجل... بقي بعدها كامل بلا حراك هامداً على الأرض يتلقى سيل الضربات المحمومة المختلطة بالسباب فيما ارتفع نحيب بعض النساء بينما فواعلية الإمام ينكروهن بالعصي حتى بصمتن.

انطلق يا ابن المرّة... فين سعيد الأخرس

لم يجيهم كامل سوى بوصلة جديدة من السباب فعاودوا الضرب بغل  
أكبر

حرام عليكم ده بتاع ربنا

هكذا قالت زينب فتعالت أصوات النسوة المستكرة فأعملت العصي  
في الأجساد من جديد وأخرست الأفواه.

برغم الجنون الذي ملأ أعين الفواعلية وطفح على وجوههم  
وحركاتهم، ويرغم الرعب الذي كسا الأهالي إلا أنه كان من المستحيل  
ترك كامل راقداً في قارعة الطريق فاتشله بعض الشباب من التراب بعد  
أن فرغ منه الفواعلية... سارعت زينب بإدخاله إحدى الدور القريبة  
وأخذت تغسل وجهه من أثر التراب... فيما سارعت بعض النسوة إلى  
اليوت وعدن ببعض كسرات الخبز التي تراكت بجوار كامل كاعتذار  
ذليل عن قلة الحيلة والمعجز... في الخارج بقي بعض الأهالي ذاهلين لما  
حدث للتو... شيء ما في رؤية كامل ينكر أمام أعينهم أمات جزءاً في  
نفوسهم... جعلهم يبغضون عجزهم وخوفهم الذي ألجمهم... جعلهم  
يلعنون الظلم وإن لم ينهروه علانية.

بحلول الظلام، تناثرت الكلمات على مساطب وطرقات باب  
الحجازي بينما استمر البحث عن سعيد الرفاعي... راح البعض يؤكد  
أن كامل "يستاهل اللي حصله" لتجرؤه على السخرية من الإمام..  
فيما راح آخرون يأكدون أن كامل يعلم مكان سعيد ويتكتم عليه وأنه  
كان قادراً على إنقاذ نفسه إن أراد، لكنه عتيد أحمق... كما راح البعض  
يؤكد أنه من شاربي الحشيش... لكن مزاج الجلسة على مسطبة السناري  
كان مخالفاً... لم يبرر أحدهم ما حدث بل أخذ الجالسون يصبون جام

مصيهم على الفواعلية فأقدي الرحمة فيما ظل الحاج محمد السناري  
سامناً يتابع الحديث في وجوم

حيموتوا الوله علشان يعرفوا مكان سعيد... من ساعة اللي عمله  
مع المكحوم بتاعهم

ابتسم أحد الجالسين في شماته وقال

الفواعلية مكتمين على الموضوع وهو مبيظهرش بقاله إسبوع...  
يقولك وشه منفوخ وعينه مش باينة من العلقه اللي أكلها... علقه  
موت

والله براوة عليه الواد سعيد... راجل من شهر راجل

هكذا قال الحاج محمد قبل أن يقوم ويدع الرجال إلى سمرهم الممتد  
بعيداً عن جلسات المساطب، وبعدها انتصف الليل وانتهى الحديث  
منه، جرجر كامل جسده المشخن بالجراح وتسلل إلى الباب... هال سعيد  
مطر كامل يدخل عليه يعرج وقد تحطم جسده وغرق جلبابه المهترئ  
في دماء سوداء... ارتدى كامل في طرف السمعانة كأنما خارت قواه  
وصوله إليها وناول سعيد بضع كسرات الخبز التي حملها في طيات  
أبيه... قبض سعيد على كسرات الخبز... يطالع كامل الذي تكوم في  
رذن السمعانة، يحاول أن يجد موضعاً للجلوس بلا ألم فلا يجد...  
اللى سعيد بحرقة فراح كامل يهدئ من روعه

متخفش يا سعيد... أنا مقلتش لحد على مكانك

نظر سعيد إلى كامل... إلى تلك العيون الطيبة... وتساءل كيف استطاع  
أحد أن يؤدي تلك البراءة المتمثلة في كامل... إلى أي مدى غاب قلب  
هافل من اعتدئ عليه حتى يؤدي هذا المسكين تحت مسمى العدل...

وهل كان سيفعل ذلك بنفسه إن لم يكتب له أن يفيتق أم أن فطرته كان ستأبى ذلك.

لم يلبث كامل طويلًا وأخذ كلبته ورحل... جال سعيد بنظره في السمعمخانة، نظر بأسئ إلى غرف نوم الدراويش المهجورة... نفس المكاد الذي ساهم في خرابه يصبح الآن مأواه الوحيد حين تقطعت به السبل لا يدري لم قاده كامل إلى الباب دون غيره عندما قرر الهروب... فاجأه الحنين الذي اجتاحه وهو يدير عينيه في أرجاء السمعمخانة الفارغة... رآها كصديق قديم لا يريد معاتبة خليله على الهجرة أو الخيانة... برغم أنها لم تستمر طويلًا، إلا أنه لا زال يذكر تلك الفترة حين كان يأتي مع أبيه طفلًا إلى جلسات السماع... حتى توقف أبوه عن اصطحابه، فمن أين لأخرس بحضور جلسات عمادها الإنشاد.

لكن الحنين لم يلبث أن توارئ خلف الإرهاق وسرعان ما قهره سلطان النوم... انتابته أحلام مزعجة... لا يدري كم من الوقت صمد في مواجهة كوابيسه لكنه أفاق على صوت الشيخ عبد الكريم المميز يناديه... نظر في أنحاء السمعمخانة الخاوية وأرهف السمع، لكن الصمت كان الحاضر الوحيد بجانب الظلام... إلا أن شيئًا جعل فكه يكاد يلامس صدره... برغم الظلام تبيّن سعيد باب إحدى الغرف مفتوحًا على مصراعيه... تلك الغرفة التي تشعبت الحكاوي عنها منذ صباه... الغرفة التي تحوي الخرقه الصوفية... يكاد يقسم أنها كانت مغلقة منذ دخوله المكان... تحسس سعيد طريقه حتى اقترب من باب الغرفة في حذر، داخلها كان الظلام دامسًا... لم يرى شيئًا سوى ظلال رسمها خياله

... انت هنا يا جدّ؟

هكذا همس سعيد بصوت خفيض داخل الغرفة ليجيبه الصمت...

• هب إلى غرفة الخزين فلم يجد بها أحدًا فعاد ليجلس القرفصاء يستمع  
إلى سكون السمعخانة الذي بدا ثقيلًا مبهمًا... أقنع نفسه أنه كان يحلم  
بأنه لا بد لم يلحظ أن الغرفة كانت مفتوحة من قبل في غمرة ارتبائه.

مع مرور الوقت تسلل إلى قلبه شعور غريزي بالقلق... شيء  
مريب... لم يكن يحلم بصوت الشيخ عبد الكريم... كما أن الغرفة  
كانت مغلقة وإلا لاحظها من البداية في نور الصباح... فجأة باغته خاطر  
• عب، هل تسلل أحدهم إلى المقام أثناء نومه وذلك ما أيقظه... ربما  
ذهب ليخبر الفواعلية بمكانه وهم في طريقهم إليه الآن... تسارعت  
عضات قلبه وتوترت عضلاته... كان عليه ترك المكان الذي بدا صمت  
• مرعبًا في الظلام... لكنه لم يملك أن يغادر المقام قبل أن يلقي نظرة  
داخل تلك الغرفة... عندما اقترب منها من جديد فاحت تلك الرائحة التي  
• تحمل ذكريات الطفولة وأفراحها وآمالها المنسية... اهتز جسده كأنما  
صعق ببارق من السماء عندما ميز الرائحة... للحظة ظل سعيد يستنشق  
الرائحة... يملأ بها صدره... كم اشتاق إلى رائحة والده... وقف بلا  
• حراك في مدخل الغرفة كأنما يريد التمسك بوالده لأطول مدة ممكنة...  
انتابه أمل أن يكون الشيخ عبد الكريم بالداخل، لعله عاد ليأخذ الخرقة...  
• ماود النداء عليه فلم يجبه أحد... أشعل مصباح كيروسين كان بجوار  
الغرفة وخلع نعليه وقال كما كان يقول أبوه عند عتبة الدار، "يا بركة سيدنا  
النبي"، ثم خطا يمينه إلى الغرفة قبل أن يمنعه التردد.

الإضاءة الضعيفة المنبثة من المصباح ظلام الغرفة... جدران  
• عتيقة متشققة... مسطبة خشية وضعت بطرف الغرفة التي كانت خالية من  
أي شيء بخلافها، عدا عمامة الشيخ عبد الكريم المميزة... انتابت جسده  
• رعشة قوية وهو يجول بعينه في أرجاء الغرفة الضيقة كأنما يقتحم مكانًا  
مقدسًا... كان عليه إطفاء المصباح ومغادرة المكان حتى لا ينكشف

أمره... لكنه لمح علبه مخملية صغيرة اختفت خلف العمامة فالتقطها على عجل دون أن يرى محتواها وأطلق قدميه للريح.

بات سعيد تلك الليلة في الغيظ... برغم بداية تتهقر الشتاء أمام زحف الربيع إلا أن للعراء برد لا يرحل يتذكره منذ أول ليلة طرد فيها من داره. تحت السماء المفتوحة والنجوم الساطعة أخذ يطالع الخرقه التي وجدها بداخل الصندوق... تلك الخرقه التي تعددت حكاوي الرجال عنها منذ صغره... لم تركها الشيخ عبد الكريم عندما رحل... لا يدري، لكن مجرد حملها في يديه كان يريحه... يطمئنه... اتكأ على العلبه المخملية وراح يسترجع إحدى الحكايات المرنبطة بأصول سيدي الحجازي التي تروي كونه أحد أبناء أعيان البندر الذي ورث عن عائلته من الأطيان ما يسد عين الشمس... لكنه لم يعرف طعم السعادة إلا في معية الله... لذا فقد زهد في الدنيا وأعطى كل أملاكه للفقراء وتفرغ للعبادة وظل يرتحل بين البلاد... بيت في العراء كما بيت هو الآن... حتى استقر في باب الحجازي... أخذ سعيد يتخيل تفاصيل الحكاية حتى غفا وهو منكمر على نفسه كطفل صغير... يتردد في أذنه صوت الأطفال حين كانوا يتبعونه في الطرقات... يقذفونه أحياناً بالحجارة مرددين "شيخ محضر يا شيخ محضر... واللي عليه عفرت يحضر

فجر اليوم التالي عاد إلى السمعيانة قبل أن يخرج الفلاحون إلى حقولهم ولم يبرحها... مرت أيامه ثقيلة... يقطعها مجيء كامل كل ليلة أو ليلتين بما يأكله... كان يقضي معظم وقته ساكناً في زاوية السمعيانة يطالع تلك اللوحة القديمة... "النجاة في الصبر يتدبر ما سيفعله مع الإمام الذي زارت مكبرات الجامع بعد صلاة العشاء تلك الليلة بصوته، يلقي فتوى اللجنة الشرعية بحرق الباب وهدم المقام بالكامل عقب صلاة الجمعة بعد يومين... انهمرت الدموع ساخنة على وجتي سعيد تبلل



لحيته في صمت... لا يدري ما الذي يجب فعله... ما الذي جناه على  
لربته وأين سيذهب الآن... عاد صوت الإمام يرتفع من جديد، يلقي درسًا  
من الدروس التي كتبها له بنفسه... بدت كلماته التي كتبها غريبة عليه،  
من أن شك أنها كلماته... لم يتحرك سعيد وظل شاردًا حتى صمت  
الإمام، وبانتصاف الليل وخلو الطرقات من أصوات الأقدام قام سعيد  
بهطف القاعة المهجورة... قام ينظفها للمرة الأخيرة قبل أن يرحل عنها.

( ١٢ )

تردد مصطفى في الذهاب إلى دار الإمام، لكن الشاب الذي بعث  
به الإمام لم يدع له مجالاً للرفض... عندما دلف مصطفى إلى الدار  
كان الرجل يجلس وسط خمسة من رجاله... يرتدي كاكوته المفضلة  
من الصوف الكشمير... تشع نظرة الاستعلاء من عينيه وتصرخ جلت  
المطمئنة بالسيادة... عندها علم مصطفى أنها لن تكون جلسة ودية

أخوك فين

حملق مصطفى في عيني الإمام التي بدت له كعين بغل حبشي عقد  
العزم على نفسه

معرفش... مش كان اللي أنت باعته سألني وخلصنا

تنهد الإمام وقال

معلش... مصيرنا نجيبه... خلتنا فبك دلوقتي... أفعالك مع ابن  
الناري مبقاش ينفع يتسكت عليها... سكتنا عليكم لما شربتم

حشيش مرة ورا الثانية جاييز ترتجعهم... لكن انتم سايقين فيها...  
كمان الناس بصراحة مش عايزين في وسط البلد حد والعياذ بالله  
شيوعي

انت تعرف يعني إيه شيوعي أصلا

ابنسم الإمام في هدوء زاد من توتر مصطفى

أعرف ولا معرفش... مش ده المهم... المهم الناس اللي يقولوا  
عليك، والعياذ بالله، شيوعي ملحد... يقولوا كمان إنك أيام ما  
اتحبست في مصر كان علشان كده... وانت عارف إن حد الإلحاد  
الموت... شوف يا ابن الحلال... الناس هنا بتغير على دينها وأنا  
مضمنش حد يتعرضلك كده ولا كده... علشان كده أنا حمشي  
معاك كام راجل كده يخدوا بالهم منك... بس المهم تطاوعهم  
ومتخرجش من داركم اليومين الجاين

ارتعشت شفتا مصطفى

انت عاييز تحبني في الدار

لم يجبه الإمام وظل ينظر إليه في تحدٍ فيما ارتسم على شفته شبح  
ابنامة ساخرة، فتسارعت أنفاس مصطفى وشعر بلهيب ينبع من جسده  
بكاد يصهر كيانه

كل ده علشان تغصنا على الجواز... إيه السواد اللي جواك ده يا  
أخي... الدنيا لا تخلي الراكب راكب ولا العاشي ماشي... افكر  
سيد خطاب ومتساش إن الظلم ميعمرش

أشار الإمام للفواعلية الذين كادوا أن يفتكوا بمصطفى بالجلوس

- ظلم إيه لا سمح الله... بقى أقولك عاييز أحملك تقولي ظلم...

وبعدين سيد خطاب ده واحد كان شاري الناس بقلومه .  
في لحمهم بالحرام... أما أنا فالناس بتحجني لإني عايز  
يرضي الله وعايز لهم الحلال... زي ما أنا عايزك تبعد عن الحرام  
وتسيك من الحشيش... وعايز أستر أختك بالحلال برده  
كلام الناس وحش على الولايا... واختك لازم تتجوز.  
متصورش الكلام البطل اللي بيوصلني عنها  
قطع لسان اللي يقول على أختي كلمة بطالة

تلك الليلة لم يجلس مصطفى على المطبة كما هي عادة بعد أداء  
أجره الفواعلية على البقاء في الدار... جلس وحيداً في سطح داره  
تحالف المخاوف والغضب المكوم في ختقه... هل سيؤذيه أم لا  
القرية حقاً إن أشاع الإمام كذبه... لا يدري... وتلك هي المصيبة، أنه لا  
يدري... وتلك الحيرة هي التي منعت من مقاومة حبه في داره كالنجاج  
راح يطالع السماء الخالية من النجوم بينما يصله صوت رمضان الذي انكأ  
على المطبة المجاورة أمام داره في ثقة قلما تمتع بها وهو يقول أن من  
يريد الحفاظ على الباب هم زمرة الحشاشين، وأن هؤلاء القلة لن يعوقوا  
إقامة الشرع في باب الحجازي... مبشراً للجميع بالخير الكثير الذي سيعم  
فور تخلصهم من رموز الشرك... ارتفع صوت أحد المارة بأنه سيذهب  
بأكر إلى المركز لوضع حد "للمسخرة" التي امتشرت في البلدة... عندها  
ضحك رمضان ساخراً

وفر مشوارك... نقبك على شونة يافالح... المركز في جيب مولانا  
يا راجل... شوف إزاي... هو مولاك حط المركز في جيب اللباس  
بعد ما سحبوه بيه من الدار

ضح الجالسون بالضحك فاخفت السخرية على الفور من وجه  
رمضان وقام ليتشاجر مع الرجل... استيقظت فاطنة زوجته على ضجيج

رتفع صوتها من داخل الدار بالسباب، فاكتمت بتوعد الرجل ،  
خفيض وعاد إلى داره.

م الترقب والتوتر باب الحجازي النوم، الجميع يتظر ما سبفر  
الأمم، حتى خرج المصلون لأداء صلاة الفجر يتحسون طريقهم في  
الليلة حالكة الظلمة... في طريق العودة إلى الدور والاستعداد ليوم  
هـ أفانقت الجموع على صراخ أحدهم الذي أخذ يعول  
بادي الوقعة السوداء... يا نهار إسود..

ان الرجل يرتعش وهو يشير نحو الباب... تعلقت الأبصار بموضع  
الذي، برغم الظلمة الحالكة، بدا فارغاً... استيقظت القرية بأكملها  
من تلك الجلبة، البعض في غمرة الفزع اعتقد أن هناك من يريد سرقة  
باب فأخذ معولاً أو فأساً وانطلق نحو الباب... لم يتمكن أحد من  
سديق أن الباب قد اختفى... ارتفع عويل النسوة ليختلط مع صراخ  
الأطفال ليكون صوتاً واحداً كثيفاً أخذ يرج القرية حتى ظهرت الشمس.

أصاب الجنون باب الحجازي... تجمعت القرية عن بكرة أبيها أمام  
المنام تطالع مكان الباب الفارغ في ذهول تام... البعض ممن استعداد  
المدارة على النطق قال أن لصوص عزية كامل هم من تمكنوا أخيراً من  
امناص الباب... البعض اتهم الباشا بسرقة ودل على ذلك برغبته  
في شرائه من قبل... فيما أكد آخرون أن تلك إحدى كرامات سيدي  
الحجازي الذي استعاد بابه حينما تخاذل الجميع عن حمايته... وتلك  
الأقاويل الأخيرة هي ما قضت مضجع الإمام وفواعليته... بدلاً من  
الاستراحة من همه أصبح اختفاء الباب دافعاً على التحدي الذي أطل من  
مبون الناس في صلاة الجمعة... ظهر ذلك الأمل وتهامس الناس بقرب  
الخلاص من قبضة الإمام والفواعلية.

بعد صلاة الجمعة وفي الموعد المحدد تجمع الفواعلية عن بكرة

أبيهم عند المقام... يزيد من عددهم شباب ميت الشوكة... أحضر  
القاضي الشرعي تحسباً لأي أعمال متهورة قد تصدر من الأهالي  
تنفيذ الفتوى... حضر الإمام والقاضي وجلسا على كرسيين خشب  
وضعا قبالة المقام... وارتقى كرسي آخر رجل طويل من الفواعلية بر  
جلباًباً داكناً، تلا الرجل ذو الوجه الجهم نصّ الفتوى الصادرة من الاء  
الشرعية وأتبعها بالأسانيد الشرعية... تصاعدت الاحتجاجات وتعا  
الأصوات الغاضبة بين جموع الأهالي قبل أن ينتهي من تلاوة ما عنده  
حترقوا إيه... مخلص ربنا حمى حاجة أولياءه

ربنا ياخذكم قادر يا كريم

والله ما حشوفوا خير يا ظلمة

انجه بعض شباب قرية ميت الشوكة نحو الأهالي لإخراستهم وبداء  
التحرشات وشحن الجو بالتوتر حتى كادت الأعصاب تنصهر تحت وطأ  
الغضب.

"وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ  
مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا"<sup>(١)</sup>

هكذا قطع الصخب صوت القاضي الشرعي القصير الذي ارتقى  
كرسيه، وأكمل

الفتوى مدعمة بأسانيد من القرآن والسنة... واحنا النهارده بنطبق  
شرع ربنا... ومحدث يقدر يقول كلمة بعد كلام المولى عر  
وجل... اتقوا الله يا عباد الله

انطلقت حناجر الفواعلية بالتكبير والتهليل بعد قول القاضي...  
...عان ما تبعها أصوات الفؤوس والمعاول التي أعملت في الضريح  
...سط نظرات الأهالي التي فاضت بالحررة والعجز... استمرت سواعد  
الهدم في العمل ساعات طويلة حتى اختفت معالم المقام وسوي بالأرض  
...ملول المغرب، ثم ارتفعت النيران تأكل السمعانة.

جلس الرجال حول المكان ليكون بلا تحكم، كأطفال فقدوا  
...مليهم... ظلّت الأدخنة تتصاعد من السمعانة طوال الليل... تنشر  
...في الدور، تسلل من تحت الأبواب ومن النوافذ الخشبية المغلقة، تصل  
إلى من حاول التخفي من الواقع الجديد... كان مشهد القرية بلا باب أو  
...مقام مُقيصاً... حتى من لم يكن يشارك في جلسات السماع شعر بذات  
الضيق... جزء من تكوينهم مات تلك الليلة... كيف لما كبروا في كنفه  
أن يحترق هكذا أمام أعينهم وكيف تتصالح باب الحجازي مع ذاتها بلا  
باب!

صباح اليوم التالي، وقف الفواعلية بجوار الجامع يطالعون اللافة  
الصدئة... حتى خرج الإمام من الصلاة ولحق بهم... راقب الأهالي  
الجدل الدائر بينهم... بعضهم يشير إلى شيء ما في اللوحة والبعض يدفق  
النظر... إلى أن انتهى الجدل إلى صمت تقطعه بعض الدعابات والضحك  
بينهم، ثم أخرجت الفرش وعلب الدهان وأعيد طلاء اللافة التي باتت  
تحمل كلمتين كتبنا بخط يدوي وبلون أخضر زاه على نفس الخلفية  
الصدئة.. اقترب الأهالي بعد رحيل الفواعلية يتساءلون ما الذي تحمله  
تلك الحروف، إلى أن قرأ لهم صبي صغير الكلمتين الجدد، "كفر ترما  
برغم الضيق والنفور، إلا أن الكثير آثر السلامة... كتم غضبه وعاش  
حياتين، إحداهما ظاهرة في الشوارع والغيطان والجامع حيث يظهر  
الفلاح الراضي القانع وأحياناً المؤيد لما يحدث... أما في المساء، وعلى

مسطبة الأقباء المؤمنين، يصب جام غضبه على الإمام والمهابة  
يتحدث الجميع عن الموضوع الوحيد المتبقي لباب الحجاز  
بهويتهم... ليقين لهم بعض الأمل... يتحدثون عن الباب

الناس ماشية تكلم نفسها... يكونش الباشا هو اللي سرقه  
هكذا قال أحد الجالسين على المسطبة فسارع آخر بقوله

تعرفوا مين اللي أخذ الباب

تحولت إليه الأنظار في ترقب وفضول

الوله سعيد الرفاعي

أطلت خيبة الأمل من الوجوه وقال أحدهم

سعيد تاتاة؟ سعيد الملبوس!! أنت شارب حاجة يا وله

ضحك الجمع فيما مضى الرجل يقول

انتم ناسيين إن سعيد الوحيد اللي وقف في وش الإمام.  
جدعان ده أكله علقه موت قعدته في داره أسبوع بيشخ في مكانه

تعالت ضحكات الجميع فأكمل الرجل في حماسة

بيقولوا إن سعيد شايل الباب في مكان ميعرفوش الجن الأزرق

انضم آخر للحديث في حماس

الواد كامل يقول إنه كان قاعد في المقام قبل الباب ما يتاخذ

بدأت صورة تتكون في خيال الجالسين... سعيد الأخرس يقوم بما  
عجز عنه الجميع... يحمل الباب مبتعدًا به في جنح الظلام، حاميًا عتبة  
الأولياء.



با جدعان انتم بتقولوا ايه... يشيل الباب إزاي؟ ده عايز خمس  
رجالة على الأقل

ربنا موجود يا محمدي... وهو قادر يساعد اللي قلبه نضيف...  
والله احنا ما رجالة ولا نستاehl الشبات اللي علي وشنا دي...  
والواد سعيد اللي مش عاجبكم ده برقتنا كلنا

صمت الجميع... وصورة سعيد المؤيد بالكرامات تغفل في  
الانهم... انتشرت تلك الرواية همسا بين المساطب والدور وفي  
الس النسوة... وسرعان ما أصبح سعيد الأخرس بطل شعبي يوازي  
الإمام علي في صولاته وجولاته... أصبحت حكاية "العلاقة" التي تجرعها  
الأمم علي يديه هي التلية المفضلة للنسوة والأطفال، الذين راحوا  
ون بشجاعته ويهبونه صفات الرجل الخارق، وصار التنبؤ بما سيفعله  
مبد بعد ذلك وما سيحل بالباب مصدر جدل بينهم... فقال البعض أن  
ميد عاد بالباب إلى مكانه الأصلي... إلى الحجاز... بينما أكد آخرون  
أن سعيد ذهب بالباب إلى مكان بعيد حيث سيبنى مقاما جديداً لسيد  
الحجازي... بينما قيل أنه دفنه في أرض سيد خطاب حتى يتخلص من  
الإمام ومن ثم يعيده إلى مكانه الأول في أبيه حلله، نالت تلك الرواية  
استحسان الحاضرين، لما تحمله في طياتها من أمل في غد مختلف...  
برغم صعوبة تلك الحياة المزوجة المليئة بالهمس والقلق... إلا أن  
رؤية أحد المجاهرين بالاعتراض يسقط تحت خيزران الفواعلية كان  
بذفع بداخل البعض سعادة حيوانية مشوبة بالخجل... سعادة النجاة من  
الخيزرانة... يتجذر بداخلهم يقين أن هؤلاء المجاهرين ماهم سوى  
مجموعة من الأغبياء لا يستطيعون انتظار الفرج.

تسلل ذكر الحكاوي عن بطولة سعيد الرفاعي إلى زينب وأم سعيد، التي أحست لأول مرة أنها فخورة بكونها أمًا لسعيد... لكن القلق اليومي لم يكن يدع مجالًا للفخر أو السعادة... فمع اقتراب نفاذ صبر الإمام وثبات زينب، لم يعد الفواعلية يكتفون بحبس مصطفى في الدار فتوعت سبل المضايقة... تستيقظ الدار فجر كل يوم على طرقات الباب الهتيرية التي أصبحت عادة، يزداد وقعها حدة حتى يكاد يقطع الباب حين يأتي الفواعلية لإيقاظ مصطفى للصلاة... يتظرونه في الخارج بوجوه جهمة إلى أن يخرج معهم إلى جامع الحجازي.

لم يبد مصطفى تلمعًا للاقتحام القسري لحياته الذي يزداد توغله حدة يومًا بعد يوم... يعلم أن ذلك ما يريدونه منه، أن يقاوم، فياؤلهم المبرر للتصعيد... وهو يخشى التصعيد... يخشى أن تخور مقاومته... يخشى من الأفكار التي بدأت تعث بخياله، وروائع القاهرة التي عادت

.. يخشى "عفريت مصر" الذي يوسوس له بالهروب من المستقع  
و. وقع فيه.

اهم المطر في طريقه إلى صلاة الجمعة ظهر ذلك اليوم فتمازجت  
المطر مع الوحل والبيوت والتبن العطن في مزيج لا تنساه أنف...  
مصطفى نعليه أمام باب الجامع الذي تآثرت بجواره صرامي ونعال  
حصي... داخل الجامع، استقبلته ابتسامة الإمام الساخرة التي رفعت  
أبات الغدر فقط قلبه بين قدميه... راقب مصطفى الرجل يرتقي  
يرتفع صوته يرج الأرض... في غضب هادر راح يقول أن  
مس المسلمين قد انتهك، وأن جزءاً جديداً من أرضهم قد اغتصب...  
ها تعلقت العيون بالإمام واحتببت الأنفاس حتى لم يعد يُسمع سوى  
صوت المطر المنهمر في الخارج... استرسل الإمام في وصف ما حدث  
-لال الأيام الماضية... كيف تسلل "الشيوعيون" الملاحدة متخفين في  
المباس الأفغاني وقاموا باحتلال الأبنية الحكومية في كابول ثم أعدموا  
الرئيس الأفغاني المسلم بدم بارد.

أخذ يشرح بتفاصيل تقشع لها الأبدان كيف دمر السوفيت  
"الشيوعيون" دور المسلمين... اغتصبوا النساء وقتلوا الشيوخ  
والأطفال... ثم راح يحذر من المد الشيوعي الذي يجب أن يُجتث من  
مصر... تسارع نبض مصطفى عندما حذر الإمام من السقوط في حائل  
الشيوعيين المصريين الذي لازال بعضهم يقبع في السجون، بينما خرج  
البعض الآخر، حرّاً طليقاً ينفث سمومه في عقول المسلمين الغافلين...  
احس مصطفى أن الرجل ينظر إليه مباشرة وهو يقول

بل إن بعض الشيوعيين استطاع التغلغل في أحشاء الوطن حتى  
وصلوا إلى الأرياف... إلى قريبتكم الصغيرة... فالحذر الحذر  
عباد الله من مثل هؤلاء الكفرة

تلوت أمعاء مصطفى... بعض الفواعلية لم يصير حتى يخرج ..  
الجامع ليقدفه بتلك النظرات النارية بينما الإمام يصيح بأن نصره !...  
المستضعفين في أفغانستان تبدأ من هنا... من كفر ترما... بتطهير ال...  
من الشيوعيين أو من يتسبون إليهم.

ما تلى تلك الخطبة كان تصاعدًا محموم الوتيرة لم يتمكن مصداق  
من مواكبته... خلال أيام معدودة نجح الفواعلية في تشويه صور  
تمامًا... حاول توضيح موقفه... حاول تصحيح الصورة... حاول مجرد  
الحديث مع من كانوا يرونه بالأمس القريب الأفندي المتعلم... لكنهم لم  
يعودوا يرون فيه اليوم سوى الشيطان الواعظ الذي يحاول استمالتهم عن  
طريق الحق والدين بمعسول الكلام... فيستعيذون بالله ويصمون أذانهم  
وعقولهم على ما ألقى الفواعلية بها من قاذورات... تحولت الهمهمات  
إلى سباب مغطى لدئ مروره بالرجال في طريق عودته إلى داره من  
العزبة بعد أن رفع الفواعلية عنه الحصار في داره ليكتوي بنار الأهالي  
الغاضبة... وقع همس "الشيوعي" يخرق أذنه كلما مر بشارع... لم يعد  
مرحبًا به في معظم المجالس بينما خشي الآخرون أن يتواجدوا معه في  
مكان واحد... ملعونة تلك الرغبة في السيطرة، ذلك الكبر والعند الذي  
تملك نفس الإمام فقرر الانتقام ممن يشاركه نفس الهواء الذي يستشقه...  
ملعونة تلك الكلمات التي حولته في نظر أهل القرية إلى عدو يتربص بهم  
وجردته في أعينهم من إنسانيته ليتبقى التهديد الوهمي... ملعون هو ذلك  
الخوف الحيواني الذي يحول البشر أعداء تداعبهم أحلام الخلاص من  
أصدقاء الأمس ومن ثم نسيان أنهم وجدوا من الأساس.

تلك الليلة عاد أخواه الصغيران وقد بدت عليهما آثار العراك، قالوا  
أن العيال أخذوا يعايرونهم بأنهم إخوان الشيوعي... لم تعد أعصابه  
تحتمل المزيد من التوتر.. لم يعد يحتمل سماع صوت زنب، التي أصبح

أما أس المصائب... يكره سماع صوتها الذي يملأ الدنيا ضجيجًا حتى  
هي تعنف إخوته بقولها أن مصطفى أفضل رجال القرية... يكاد يجن  
الصيد الصياح بها لتصمت أو تموت... هرب من الدار إلى ملجئه الوحيد  
المتبقي... آدم السناري الذي يتسلل معه إلى سطح دار عمه ليشرب  
احوزة... الغريب أنه لم يذق طعم الحشيش إلا بعد أن اتهمه الإمام  
شربه... حدثه آدم تلك الليلة عن السادات الذي يحاول صرف النظر عن  
اسخط الداخلي بتوجيه انتباه الناس للاحتلال السوفيتي في أفغانستان

بقى عندنا لجان لمنصرة الشعب في أفغانستان... مفيش لجان  
مناصرة للشعب المصري الجعان... صحيح، تعرف إن الحشيش  
بقى قانوني في أمستردام... الواحد أول مرة يفكر في الهجرة  
بجد... الكرة الأرضية كلها حتعيش من بكره في أمستردام

لم يشارك مصطفى آدم الضحك

الواحد مبقاش له نفس للضحك يا آدم... كله نكد في نكد

البي آدمين كائنات اتخلقت علشان تنكد على بعض

هكذا قال آدم بعد أن استوى مزاجه وناول الجوزة لمصطفى وأكمل

يا ابني السعادة دي أكبر وهم... البي آدم صرصار بيدور على أي  
معنى لحياته اللي ملهاش أصلًا معنى... فاخترع وهم السعادة  
علشان يعرف يعيش... سراب الصراصير بتجري وراه... لو  
وصلت عند السراب واكتشفت إنه وهم حتفوق... لكن لو لسه  
شايقه بعيد حيقى في أمل تكمل وحتفضل تجري... الحرية  
الكاملة في التخلص من الأوهام... من الحبال الدايرة اللي بتعلق  
بها زي العيل ما بيتعلق في بز أمه... لما تعرف إن سيد خطاب  
والإمام والسادات وأي بني آدم بنعمله إله ونعبده عديم الجدوى

وملوش لازمة... لما تعرف إن اللي مالي الدنيا دوشة وكلام...  
وفلسفة حيموت صرصار عريان... وفي لحظة حيثحول...  
الناس تغلبها يمين وشمال وترميها تحت التراب قبل ما  
وتعلم الدنيا تاتانة... ساعتها بس تقدر تعيش حر

حرية إيه اللي بتتكلم عنها... أنا مبقاش يحركني غير الرعب...  
والرعب هو اللي يحرك الناس وهو اللي مخلي الكل ساكت...  
اللي عايز يبيع أختي... وفي منهم بيقول تتاهل أخت الشيعي  
وبكرة ولاد الوسخة يموتوني بأيدهم

سكت مصطفى بعد أن ضاعف الحشيش من كآبته

عندك حق... زمان العبد كان بيرضى بعبوديته علشان الخوف  
ودلوقتي يستعبدونا بالخوف... الخوف من الخروج...  
النظام... الخوف من المجهول... وباعوا لنا أوهام السعادة  
اللي مبتحققش... نصحنى يوم بعد يوم نجري في مملكتهم ورا  
السراب... وتيجي للناس لومة استهلاك محصلتش في تاريخ  
البلد بعد ما قعدنا نغني ١٨ سنة للاشتراك... تخيل... أغاني يا  
مؤمن... وبعدها يقولك الاشتراكية وحشة... سيك من القوم  
والكلام القديم ده... انت في عصر الانفتاح... وتدخل مصر  
ماركات عالمية للبس ومطاعم تقدم أكل غريب علينا واللي  
ميكلش برجر يبقى إخص بلدي... الكل عايز يأكل برجر علشان  
يبقى مبسوط... الأسعار ولعت والناس فقرها زاد فتعاتها زادت  
وربطوا التعاسة بإنهم مش قادرين يشتروا البرجر... فاشتغلوا أكثر  
ليل ونهار في حلال أو حرام ميفرقش... وضاع العيال بين أب  
مش موجود وأم بتشتغل ليل نهار... المهم العيال ياكلوا البرجر  
زي ولاد الجيران علشان يقروا مبسوطين... أمال أنا سبت القاهرة

ليه... الناس بقت عاملة زي البهايم... متني إيه من جيل حيطلع  
منه الأعلى حسين فهمي بقميصه المفتوح وعريته السبور وحلمه  
بعيش قصة خلتي بالك من زوزو

اول آدم الجوزة منه وسحب نفسًا عميقًا احتفظ به قليلًا في صدره  
١٥ أن يطلقه ويكمل

حتى البشاوات عبيد... أي كلب منهم ميقدرش يستغنى عن  
الخدامين اللي بيغسلوله هدمه ويعملوله أكله ويزرعوله أرضه  
وينظموا حساباته ويناموا مع مراته ويولدوها عيل مش ابنه  
ويحرسوا سرايته... وفي الآخر يتف عليهم فيعطوا شوية وبعدين  
ينسوا مآسيهم... تخيل لو كل دول قرروا ميقيوش عبيد... الدنيا  
حيقني شكلها إيه

عاد مصطفى تلك الليلة يتلمس طريقه إلى الدار... برغم تخبطه من  
نر الحشيش إلا أنه لم يكن من العصي عليه حساب عواقب ما يتظره...  
الإمام ينفث سموه في مجتمع من العيد اهترأ حتى أصبح جاهزًا ليأكل  
منه البعض، الباشا كان على حق عندما تباً بذلك... كل ما هنالك  
أه أصبح على رأس القائمة وقد التف القوم حوله بسكاكينهم وظهرت  
أبهم... الأمر أصبح يتعلق بالحياة نفسها... كان عليه الحديث إلى  
نهب وإقناعها بأن ترحمه... وليتحمل هو العار والذنب الذي سيطارده  
منه حياته.

بانت زينب تلك الليلة تحت المربع الفارغ من سقيفة وسط الدار بعد  
أن أنهت شجارًا عنيفًا مع مصطفى... لا تصدق أنه يدفع بها لتقبل بتلك  
الريجة... راحت شتى أنواع الأفكار والمشاعر تعصف بها وهي تنظر إلى  
النجوم في سكون تام لا يقطعه سوى قطرات الماء التي تسح من الزير

لتسقط في إناء وضع تحته... تترجع كلمات أخيها العنيفة.  
بالأنانية... لا أحد يفهمها... هي نفسها لا تستطيع شرح ما بها  
تسطيع تخيل نفسها بين أحضان رجل... هكذا كانت منذ أن سبت  
يومها هذا... مجرد محاولة تخيل الزواج تصيبها بالاشمزاز  
تتعذر بشتى أنواع الأعذار كلما تقدم لخطبتها شابٌ جديد...  
هيته أو حديثه ليغير شيئاً من ذلك النفور والعصية التي تتابها حتى  
الزواج أياً كانت العواقب... لم يكن صراخ أمها أو دموعها المنحة  
تدفعها لتغير رأيها... واليوم العريس كهل يريد شراء جدها...  
تدرك أن اليوم ليس كالبارحة... حتى أمها لم تبد ذلك الرفض  
للتلك الزيجة كما فعلت عندما جائها خالها بنفس العرض... هنالك دائماً  
التهديد لسلامة ابنها الأثير بمايئة الإمام من سموم في عقول أهل القرية  
الجم خوفها على مصطفى لسانها وجعلها تكفي بغمغمة بانة... كما  
الإمام يلمح إلى التعريض بشرفها إن لم تخنع لمشيته... كم تكره ذلك  
الملعون... اندفعت للموع من عينها حارة كالحمم على وجتها  
صمت... لم تدفعها الأقدار إلى حافة الهاوية... تساءل متى توقف  
عن كونها صبية وركبتها الهموم فأصابها الهرم مبكراً... كيف اغتيل  
بهجتها ولم يُدّر لها أن تكون أنثى في مجتمع لا يعترف باحتياجاتها.  
هل سيجعلها العند تضحى بأهلها جميعاً كما قال مصطفى.

حاولت نبش ذاكرتها عن لحظات السعادة في حياتها، وهي بعد طفلة  
قبل أن تحمل للدنيا خارج لهوها همماً... كم تفتقد تلك اللحظات...  
تذكر تلك الفترة التي هاجمتها الكوابيس كل ليلة، كانت تستيقظ تصرخ  
بلا توقف إلى أن يأتي أبوها ويحتضنها، تبكي في صدر جليابه، تستشق  
عبق الرجولة الراسخة، مزيج من الدخان والعرق ورائحة عطر باهتة، حتى  
تمام من جديد، حينها فقط تتوقف الكوابيس، كم تفتقد الأمان الذي رحل



١٠ ركنها الركين الذي ما كان ليضيعها في مثل هذه المواقف...  
١١ من الركين رحل وتركها لتتخذ أصعب قرارات حياتها بنفسها...  
١٢ في صحراء شاسعة بين قلاع الأناية وواحة التضحية... تمت أن  
١٣ ذابوساً يتهي بصريخها... لكنها لم تستيقظ!

١٤ بدري لم تذكرت مقولة الشيخ عبد الكريم لها في المولد منذ سنوات  
مفيش حاجة في الدنيا دي تخوفك

هكذا قال بصوت عميق رائق، وأوصاها بالصبر... هل كان يعلم ما  
سيها... هل كان يوصيها باختيار بعينه... وما معنى الصبر... أهو  
الرب والثبات على موقفها أم هو التضحية والصبر على البلاء... ظلت  
١٥ تترنم أن "مفيش حاجة في الدنيا دي تخوفك"... إلا أن الكوابيس  
١٦ لم تتركها منذ كانت طفلة عاودتها، كوابيس لمستقبل أسود انتزعت  
ها القدرة على النوم حتى تورمت عينها وأصبحت، كما تقول أمها،  
١٧ مصيبة لا تُطاق... تراودها خيالات أسواق النخاسة قديماً التي كانت تعج  
أمثالها... تصطف الجوّاري عاريات يتفحص الشاري الألبضاع والأفواه  
١٨ المؤخرات للتأكد من خلوهن من الأمراض... يتفحصهن وهو يتخيل  
أه ليس مثلهم... يتخيل أنه من طبقة الأسياد التي لا تنطبق عليها قوانين  
الجوّاري والسبايا... لم تعد تحمل الشجار المتكرر مع مصطفى كلما  
نعرش به الفواعلية والأهالي، أخذت تركز إلى تخيل الصبر بمعنى  
التضحية، ترى نفسها سبية من سبايا العصور الغابرة... وقد حانت  
لحظة رحيلها... كم تفتقد أباها... كم تفتقد سعيد... لكن لا فائدة من  
الانتظار... وقوع البلاء أفضل من انتظاره.

ذات صباح، خرج البط والدجاج من دار علي الرفاعي يلتقط ما يرمى  
له من فتات الخبز والحبوب، وخرج معه الخبير برحيل زينب إلى البندر

للزواج... هكذا في صمت فهرت أحلام الفتاة وكسرت إرادة أسرتها  
المثتة... انتابت نساء باب الحجازي حسرة لا توصف... شيء ما  
خُطِف من القرية برحيل زينب.

تلك الليلة جاءت امرأة قصيرة ذات ثديين ضخمين يرتجان بمشيتها  
المحمومة إلى دار السناري بحثاً عن بعض النميمة وجلست تلتقط  
أنفاسها لتكمل الحكاية التي أصبحت على كل لسان

أي والني... كان عندها العادة وراحت... انتم ماشفتوش لونها  
كان مصفر إزاي يا نضري... خطفوها بالغصب

قابلها استكار الجالسات فقالت

هم دول يفرق معاهم... دول ولاد كلب... ربناع الظالم... بكرة  
تموت يا أبو جه واعمل لك فوق قبرك قبّة

أما في مجالس الرجال على القهوة التي جمعت المعلمين منهم،  
تسرب خبر أن العريس من أثرياء الخليج فعم. الصمت بعده... وعندما  
عاد كل منهم إلى داره الفارغة، حينها قالت العميون ما عجزت عن قوله  
الألسنة... تكلم الجوع الأخرس... لم ينطق باستنكار ما حدث، بل حمل  
الغبين والحد وأحياناً الحقد على حظ زينب السعيد!

## ( ١٤ )

مرت الأيام منذ رحيل زينب وبدا أن ما أصابها كان مجرد لسعة برد لم تتجح في الوصول إلى ضمير القرية الذي تلحف بجلود الأهالي السميقة... الكل مشغل في همه... حتى الفلاحين في عزبة الباشا، لم بعد وجود مصطفى في وسطهم يذكرهم بما حصل للتر لأخته، لازل بعضهم يتجنبه لكونه "شيوعي"... لكن الهم الشاغل في ذلك اليوم كان التأكد من الإشاعة التي أخذت في الانتشار منذ أيام في العزبة... تجمع عدد من الفلاحين بجوار ظل شجرة وراحوا يدفعون بأحدهم دفعا حتى تغلب على اشمزازه من مصطفى وقال في لهجة لم تخل من الامتعاض عايزين نحط حد للقبيل والقال... كتر الكلام وحش وانت لازم تروح تكلم الباشا وتعرف إيه أصل الموضوع ده

أوما مصطفى بالإيجاب وهو ينظر إلى السراي حيث بات الباشا ليك... كان فؤاد خيري باشا قد استيقظ في السابعة من ذلك الصباح...

مد يده إلى المائدة الصغيرة المجاورة له ليلتقط العسل الممزوج برحيق ملكات النحل ثم قام بعدها ليتناول كوبًا كبيرًا من الشاي الثقيل، يتنفل خلال احتسائه بين عناوين الصحف التي تسرعني انتباهه... كانت تلك من الليالي القليلة التي بات فيها الباشا في العزبة، ولعلها الأخيرة، بعد انتهاء إلحاح نادبة هانم على المجيء للقرية منذ اختفاء الباب وهدم المقام... زادت أخبار الصحف من تعكر مزاجه فخرج إلى شرفة غرفته المطلة على ما تبقى له من أطيان... لا زال يتذكر عندما كان طفلًا يقف مع والده في الشرفة التي كانت تطل حينها على أطيان لا يرى لها آخر... كم يتمنى أن يخلص نفسه من سلاسل الذكريات والماضي الذي صار حبيسه.

عاد لتقليب الصحف أثناء تناوله فطورًا خفيفًا أحضر له في الشرفة... كانت العناوين المحلية تركز على نتائج الاستفتاء على التعديلات الدستورية التي مررت بموافقة ٩٨.٦٪ من المصوتين... نادت عنه ابتسامة امتزجت فيها السخرية بالمرارة وقلب الصفحة إلى الأخبار العالمية التي لم تكن أقل جنونًا من الأخبار المحلية... صدام حسين يبدأ حربًا خارجية مع إيران وأخرى داخلية مع الأكراد والشيعية داخل العراق... وزير الدفاع الباكستاني، الذي عين نفسه رئيسًا وأعلن في أكتوبر الماضي نيته إقامة دولة إسلامية في باكستان بعد أن أعدم رئيس الوزراء الذي انقلب عليه، يعلن الحرب على الغرب والتقاليد الغربية كالانتخابات اللي لم ترد في الشريعة الإسلامية... في صفحة أخرى قرأ تحليلًا لتداعيات مقتل عشرين ألفًا من الأفغان في حيرات يقنابل طائرات الموفيت ردًا على إسماعيل خان الذي أعلن الجهاد على الشيوعية ومثل بجث مستشارين سوفيت وعائلاتهم بعد قتلهم قبل الاجتياح السوفيتي لأفغانستان... كم يكره هذا العام الذي لا يريد أن يتقضي دون أن يفسد العالم بأكمله.

كان الباشا يدرك أن هذه اللحظة ستمثل انحرافاً حاداً في مسار التاريخ... لعل العالم سيتذكرها باللحظة التي فُتح فيها صندوق بانديورا لتخرج منه اللعنات على الجميع... سيجد كل المتعصين والأصوليين جتهم المفقودة أخيراً في تلك الحروب... خاصة مع ظهور منظرين للجهاد من أمثال عبد الله عزام الذي أعلن وجوب الجهاد في أفغانستان... ليطهر الجهاد العالمي الممول من الخليج وينهمر المجاهدين من كل حذب وصوب على حدود أفغانستان للمشاركة في الجهاد المقدس وتبدأ الحرب بين الدول العظمى بالوكالة في ملاعب بعيدة عن بلادهم.

حاول من جديد أن يصرف عقله عن تلك الأخبار التي تعصف بكيانه فترك الصحف وقام ليعزف قطعة موسيقية لشوبرت على البيانو الإيطالي العتيق، الذي توارثته العائلة على مدى أجيال، حتى جاء الخادم يخبره أن مصطفى ينتظره في غرفة التدخين فأخبره أن يأتي به إلى غرفة الموسيقى.

عندما دخل مصطفى ظل صامتاً كي لا يقطع تلك الموسيقى التي حملته نغماتها فوق عالم القرية البائس إلى عالم الأوبرا الجميل... ذكرته الموسيقى أن هناك شيئاً جميلاً في هذه الدنيا يستحق أن تعيش من أجله... حملته النغمات وطافت به في جنبات السماء الصافية بعيداً عن القبح والبؤس إلى أن انتهى الباشا من المقطوعة وجلس بجواره

انت شاركت في الاستفتاء

هكذا قال الباشا فور جلوسه فأجاب مصطفى بالنفي

كل المشايخ يبهللوا للسادات علشان دخل المادة الثانية على الدستور وحط الشريعة مصدر من مصادر التشريع... ومحدثش اتكلم عن المادة ٧٧ اللي ممكن تخليه رئيس مدنى الحياة... نظرية السم في العسل... عايز تمرر حاجة لرقها في الدين

تنهد الباشا قبل أن يقول

اتم معشوش لما كان في دستور بجد يتحط للبلد دي " ثم راح يقص، كما هي عادته، عن مصر التي لم يرها مصطفى... في عشرينيات وثلاثينيات هذا العصر حين كانت مصر منارة للثقافة في الوطن العربي... كُتب دستور ١٩٢٣ وشارك المصريون لأول مرة منذ عهد الفراعنة في حكم أنفسهم، ورغم العقبات وبعض الردة التي شهدتها الساحة السياسية... إلا أن حركة التنوير كانت تكتسب زخمًا وتنمو يوميًا بعد يوم... فترى أسماء أدباء وشعراء تلمع، وصحفًا ومجلات تحمل مختلف الآراء من مختلف المشارب، وفتحت السينمات وأنشئت استوديوهات التصوير وتوسعت جامعة القاهرة... وشهد المصريون نقلة حضارية فاضت من مصر لتبهر العالم العربي الفتح... ختم الباشا كلامه بقوله أنه للحظة لم يجد علينا القدر بمثل تلك الأيام وبمثل ذلك الدستور... حتى أن مصر ظلت بلا دستور دائم منذ انقلاب يوليو حتى تولي السادات، وهاهو السادات يستخرج تلك الحيلة القديمة المستهلكة من جعبته بالاستعانة باليمين الديني لتشويه الدستور الجديد.

الحاكم عندنا لازم يتمسح في الدين، من أول الفرعون الإله، لحد نابليون اللي عمل مسلم لما نزل أبو قير، والملك فاروق اللي حاول يثبت أنه من الأشراف، والسادات اللي مسمي نفسه الرئيس المؤمن... ياراجل ده حتى الناس سميت هتلر الحاج محمد هتلر علشان تحبه

ثم ضحك وقال بنبرة ساخرة

بمناسبة الرئيس المؤمن... اتم معندكوش تليفزيونات هنا... لكن

آخر تقليعات الرئيس المؤمن أنه قرر إذاعة الأذان في التلفزيون،  
تخيل نفسك قاعد بتفرج على فيلم لميرفت أمين بالبكيني يقطعه  
أذان... الناس تكبر وبعدين ترجع تفرج على البيكيني... عارف  
انت البيكيني يا مصطفى

ابتم مصطفى وأوما فتهد الباشا وقال

في ناس أصحاب رؤية عندهم حلم... الحلم ده أكبر منهم وجايز  
أكبر من اللي حواليتهم... لكنهم يسعوا لتحقيقه بإيمان زي إيمان  
الدين، والكل يتلف حولين رؤيتهم دي... للأسف من زمان  
محدث حكم مصر كان عنده حلم لمصر أكبر من شخصه، ومن  
بعد عبدالناصر مبقاش في حلم أصلاً... السادات يتعامل على أن  
مصر يوم ما تترقى تبقي جارية عند أمريكا... وكده البلد عمرها  
ماهتحن

شرد الباشا وصمت لبرهة فتحنح مصطفى قبل أن يقول ما جاء من

أجله

بعد إذنك يا باشا... في إشاعة وكلام كبير في العزبة... وأنا كنت  
جاي علشان أتأكد من حضرتك... الناس بتقول إنك ناوي تبيع  
العزبة يا باشا

العزبة اتباعت فعلاً... إحنا بنخلص في الأوراق والتسجيل في  
الشهر العقاري

فغرفاه مصطفى للحظة قبل أن يعاود السيطرة على انفعاله

ليه كده يا باشا

- نقعد نعمل إيه في وسط القرف ده

ماهي مصر كلها كده يا باشا... وانت مكتش بتيجي العزبة  
وأنا مستعد...

### قاطعہ الباشا

احنا حبيب مصر خالص يا مصطفى... خروح أمريكا  
قراينا لحد ما نشوف حنستقر فين... مينفعش نعيش في بلد بنعم  
البهجة والجمال... ومينفعش نعيش حياتنا زيع القطيع ناس  
يفكرو لنا ويقرروا نعيش حياتنا إزاي

عندما نظر مصطفى إلى عين الباشا التي شردت من جديد، أحس أنه  
يشاهد مجد سبعة أجيال كاملة ملكت العزبة ينهار أمام عينيه... قبل أن  
يفادر مصطفى السراي أهده الباشا "واكمان" به شريط سُجل عليه بعض  
حفلات الأوبرا ثم ودعه للمرة الأخيرة بدموع حاول أن لا تفيض من  
عينه.

لم ينم مصطفى تلك الليلة... التراب يملأ سريرہ القدر والحشرات  
والبراغيث تعيث فسادًا في جلبابه الممزق... تأتي أصوات كلبة كامل  
الذي صار يسرح في الطرقات على غير هدئ منذ هدم المقام واختفاء  
الباب حيث كان يبيت... ويبدو أن كلبه قررت الليلة ألا تكف عن النباح  
فقام ونهره ليرحل بعيدًا عن الدار ثم عاد إلى فراشه... لكنه كلما حاول  
أن يغمض عينيه تهاجمه أحلام غريبة... يرى نفسه يركض حتى تكاد  
تقطع أنفاسه تحت سماء ليس بها شمس تطارده أنياب على هيئة البشر  
وتحاول أن نفرسه بمساعدة مخلوقات شيطانية قررت أن تغدئ على  
ما يتبقى من جسده... طارده تلك الوحوش حتى قام لصلاة الفجر...  
وبعد أن عاد من الصلاة وتأكد من انصراف القواعلية إلى دورهم خرج  
ينظر حوله في حذر... سار على هدئ صوت نباح كلبة كامل حتى وجده



..ا القرفصاء بجوار إحدئ الماطب فجلس إلى جواره وأعطاه  
، كسر الخبز

انت تعرف فين سعيد يا كامل؟

أخذ كامل كسرات الخبز وظل ينظر إلى كلبه في صمت

عايزك تبلغه إني لازم أقابله ضروري

لم يصدق الإمام أذنيه في البدايه، أو لعله لم يستوعب، عندما جاءه رجل في دكانه بملك العرض المبطن

البت علي وش جواز وعائزين نسترها يا مولانا

هكذا قال الرجل الذي تحاشى النظر في عين الإمام

جلس الإمام يطالع الرجل دون إجابة... لم يكن ينتظر ثورة عارمة علي "زيجة" زنب لكنه توقع الحنق أو حتى القليل منه... صرف الإمام الرجل بعبارات مطاوعة تعده بالمعني لتزويج ابته... ثم تكرر العرض المبطن، وازدادت وتيرة الآباء منكسي الرؤوس الذين يشتكون ضيق الحال والأفواه الجائعة التي لا تجد ما يغنيها بعد كل صلاة في جامع الحجازي، ثم يتهي النقاش بالعارة الثابتة "والبت عايزة تتجوز يا مولانا"... المشكلة التي لا يدري بها من يطالبه بملك أنه لم يكن يملك سوقاً لعرض ما يسقط تحت قدميه من أبضاع.

زابدت الطلبات وأصبح البعض يتهمه بالتراخي حتى طلب رقم الهاتف الوحيد الذي يحفظه لكن أحدًا لم يجبه فعاود الاتصال بعد العصر ١٩، الملك فعل بعد المغرب بلا جدوى... كاد يفقد الأمل... إلى أن تلقى رسالة أخيرًا صباح اليوم التالي فبادر محدثه فور رفع السماعة

أنا كنت خائف تكون سافرت

جاءه صوت فتحي المرهق

أسافر إزاي واسيب الشيخ في شهر العمل يا مولانا... الطلبات  
مبتخلص

يارب يكون مبسوط

ضحك فتحي فاغتاز الإمام وندم على ذلك السؤال الغريب

مبسوط يا مولانا... إديله ربنا يسطه كمان وكمان

تنحج الإمام قبل أن يقول

ربنا يسعده... الناس هنا مش مصدقين الأمل اللي البت زينب فيها

جف حلقه لدى ذكر اسمها فتتنحج ثم اصطنع ضحكة عالية

ده حتى كذا واحد جه كلمني أشوفله عريس متريش زي الشيخ أبو

خالد

تمنى الإمام أن يلتقط فتحي طرف الخيط ولا يضطره إلى التصريح

أكثر من ذلك... ولم يخذله فتحي الذي سارع بالقول

العرسان موجودين يا مولانا... بس المهم العرايس يكونوا نقاوة

- كل فولة لها كبال

ضحك فتحي من جديد فأحمر وجه الإمام

عداك العيب يا مولانا... سنهم أدليه

راح الإمام يعدد البنات، يحاول جاهدًا وصفهن بما قد يحلّي البضاعة

في عين الزبون

كل ما كانوا أصفر كل ما كان أحسن يا مولانا... وطبعًا كلهم لاز

يكونوا بنات

أصفر من كدها دول يقوا عيال

ضغط فتحي حروف كلماته وهو يقول

أيوه أصفر من كده... بيتسنوا يا مولانا وكله بيعدي... مهر

الصغيرة أكثر من مهر الكبيرة

كان ذلك كفيلاً بإقناعه... وعندما رحلت الفتاة الثانية من باب

الحجازي بعد تلك المكالمة بأسبوعين، لم يعد الإمام قادرًا على مواكبة

طلبات الزواج من الأهالي وأصبحت أسعار "المهر" معروفة لدى

الجميع، تتناقل على المساطب ويفاصله فيها الأباء.

في إحدى الليالي كان الإمام خارجًا من الجامع عندما اتهمه أحد

الفلاحين بمحابة الآخرين وعدم الالتفات إلى ابته

نصيها حيجيلها في وقته

هكذا قال الإمام في صرامة فالتقط الرجل نعله الذي أو شك على

التحلل

إمتن يا مولانا... الوضع ما يتحملش تأخير... العيال ميطلوش

طلبات... ومهر البت يا دويك بسد حاجتهم كام شهر

صرفه الفواعلية كي لا يؤذي الإمام بالحاحه فنهاهم الإمام وقال  
المرجل المرتبك

ربنا لما يخلق الفم يدبر له رزقه... حاضر... أنت عارف إني  
متأخرش عليك

ولم يخلف الإمام وعده... لم يمر أسبوع حتى حضر فتحي، الذي  
صار وجهها مألوفاً في باب الحجازي، ومعه عريس لبنت الرجل ذات  
الأحد عشر ربيعاً... أصبحت مهمة الفواعلية في تأمين دخول فتحي إلى  
القرية تزداد صعوبة بمرور الوقت... فمع معرفة الأهالي بهويته، أصبحوا  
بتدافعون ويلتفون حوله كلما ظهر... وكلما ازداد العرض من أوضاع  
الفتيات، كلما انخفض المهر!

تعايش الأهالي مع ذلك الواقع الجديد واختلقوا له المبررات...  
برددونها فيما بينهم حتى أصبحت كالحكم المتوارثة... يشجعون  
بعضهم البعض على اختلاق المزيد من الأعذار لبيع لحم بناتهم كي  
يعتوا ضمانتهم إن تمكنوا من ذلك... لكن في صمت الليل، حين  
بفرق الرجال والنساء في الظلمة... نطالعهم حينها الوضاعة التي حاولوا  
التهرب منها... حينها لا ينفع التهرب من ذكر الواقع... لا يجدي التبرير  
الدنيء الذي يحاولون تخدير ضمائرهم به طوال النهار... ذلك الظلام  
الملعون يقتل المبررات... يقهر الفقر والجوع الذي أخفى الحقائق ليعود  
الضمير المكبوت ويتنفس.

(١٦)

أنا مش حقدر أقعد في البلد أكثر من كده يا سعيد  
لم يتوعب سعيد تلك العبارة في البداية... ظل يحملق في وجه أخيه  
الذي انعكست عليه أشعة الشمس من مياه الري فصنعت فسيفساء من  
النور والظل

يعني...

يعني أنا حياتي بقت على كف عفريت... الناس مش طايقاني...  
الفواعلية عايزين يخلصوا مني بأي شكل... وصاحبك مش راضي  
يخف لسانه عني

استقرت كلمه "صاحبك" في كبد سعيد لكنه لم يتأوه

وأملك واخوووو... ااااا

معرفش... أنت موجود

أشار سعيد للغيطان حوله في ذهول وهو يطرد بيديه نحل اليرسيم  
بأبواب البلح .

معمووو... موجود فين

معرفة يا سعيد... كل بني آدم معلق من عرقوبه... والزعرة بينش  
عنها المولى... وأنا معدليش أكل عيش في البلد بعد بيع العزبة...  
جاي زينا يرزق في مصر

جاهد سعيد ليقول لأخيه أن ابن يومين لا يعيش ثلاثة وأن "رب هنا  
ب هناك"... لكن مصطفى لم يجبه وبدا من عينه أنه قد عقد العزم ولا  
يأبى من الحديث معه... فحاول سعيد أن يثنيه عن الرحيل بتذكيره  
أنه لم يجن من القاهرة سوى الحبس... عندها انفجر فيه مصطفى، قال  
أنه كباقي الحمقى من أهل البلدة لم ير من العالم سوى قريته ولم يخرج  
إلا من أسوارها... لا يعرفون شيئاً عن حياة أهل الحضر... يهيه لهم أن  
مجتمعهم هو أفضل ما يكون وما سواه هو الإثم المبين.

وأنا دلوقتي الإثم المبين بالنسبة لهم... حس يا يا أخي

حاول سعيد إقناعه بأن الناس سفيق كما فاقت من قبل وأن الباب  
سبعود وتعود معه جلسات السماع التي يحبها... حينها أربكته جلجلة  
مضحكة مصطفى الصاخبة... بها ما بها من مرارة وسخرية

الباب دة أكبر كدبة في حياتنا

ثم قص عليه ما أخبره به فؤاد خيرى باشا عن تاريخ الباب وحقيقة  
"مولانا" الحجازي... اتسعت عينا سعيد من هول ما يقوله أخوه وقبض  
على الصندوق المخملي في يده كأنما يحتمي به مما يسمع... تسارعت  
الأفكار وتشج لسانه... حاول أن يقول شيئاً ما لكن الحروف اختنقت في  
حلقه.

سار مصطفى بعد أن ترك سعيد، مدفوعًا بالخوف البدائي بداخله،  
تدفعه غريزة البقاء في الطرقات الخالية من البشر... يحاول دفع أصوات  
إخوته الصغار بعيدًا عنه... يدفع صورة أمه التي شحب وجهها وهي  
تقترب منه، تكتم لوعتها، عانقته وترددت على باب الدار في أخذ عاوه،  
آخر قبل الفراق... لكنها ابتسمت ابتسامة مهزومة وأشارت له بالدواع  
حاولت الابتسام من جديد لكن شفتاها التي أخذت في الارتعاش وهي  
تجاهد دموعها وأدت تلك الابتسامة قبل أن تولد... أكمل طريقه دون  
أن يلتفت خلفه... قاوم رغبته في إلقاء نظرة أخيرة على من قرر تركهم  
لمصيرهم ومضى في طريقه متعمدًا عدم رؤية آدم كي لا يحاول إثارة  
عن الهروب... لم يعد يستطيع أن يتعاش مع عالم باب الحجازي الضيق،  
الذي يكاد يطبق على صدره.

جلس في آخر قطار يخرج من المركز إلى القاهرة فيما يلي النافذة،  
يقبض على حقيبته الصغيرة فيما تائر الرجال والنساء حوله في العربة  
بمرور الوقت كاد القطار يخنتق براكيه كلما زار محطة جديدة في طريقه  
إلى العاصمة... يأتي الكمسري عقبا ليلكز الراكبين كالقدر باحثًا عن  
التذاكر... أخذ مصطفى يفكر في حاله الذي قد يتحسن في القاهرة  
ربما يقدر حينها أن يتشغل أهله من تلك القرية الخبيثة... براوده ذلك،  
الشعور المألوف بأنه يجتث جذوره، يصبح وحيدًا من جديد... فأخرج  
"الواكمان" الذي أهده له الباشا وأخذ يستمع إلى كونسرتو الأوبرا.  
دقائق وحلق بعيدًا عن عالم القرية والقطار إلى عالم الفساتين والسهرة.  
كان عليه البحث عن ذلك النقاء والصفاء الذي يرتقي به بعيدًا عن دون  
التي تلازمه... شيطان البؤس لا يجزؤ على الاقتراب ممن حلق بين ناك.  
الألكمان الملائكية... توحد مع انغام التشيلو فلم يعد يرتدي ذلك الجلبياء  
القدر... بل أصبح يتألق في بذته البهية وسط حفل من بشرٍ تزينوا في أبهى



المهم ليحتفوا سويًا بذلك الجانب الراقى بداخلهم، ليموا بأرواحهم  
في تلك اللحظات التي تصرخ بها السُبرانو بكل ما يجيش بهم من مشاعر  
وسيل الدموع كالأنهار بلا تحكّم ممن مسّ ذلك الصوت الملائكي وترا  
داخلهم.

تداخل هدير الفطار مع الموسيقى في مزيج غريب... متوجّها به تحت  
..ماء اختفت نجومها إلى حياة جديدة محملة بالاحتمالات، مدفوعًا  
حب الحياة ورهبة الموت... ترك القرية بمن فيها وراهه وملا صدره  
الهواء البارد الذي يدخل من النوافذ التي لا تغلق... هو كالجميع يتجنب  
الما يهدد حياته أو يذكره بالموت... تتخلص من الجثث سريعًا...  
هباب المقابر... ونعترف بالشباب وتناسى المصير المحتوم... فلم يجلد  
مه... حاول تجاهل أناشيد الربابة وجلسات السماع التي تداخلت مع  
موسيقى الأوبرا في مخيلته فلم يستطع وأخذ يبكي في هدوء لم يوقظ  
المسافرين حوله.

في تلك اللحظة كان سعيد يقبع في ظلمة الغيطان... افترش التراب  
وانكأ على الصندوق المخملي... لم يكن بجديد على مصطفى أن يدير  
اه ظهره ويهرب... لازل يتذكر عندما هاجمه الربو في طفولته وتحالف  
مع جسده الهزيل في إبقائه حيس الدار بينما مصطفى يلهو مع الأطفال  
الخارج... وكما في حياة الكبار، التي هي امتداد مبهرج للطفولة،  
والأطفال ترتيب طبقي... يبدأ بقمة الهرم حيث قادة "الشلل" من الأطفال  
مصطفى، الذين يحركون باقي الطبقات التي تليهم، يتصارع الأطفال  
بل رضا القادة لتعلو طبقتهم تلقائيًا... وهكذا الطبقات دواليك حتى  
يصل إلى قاع السلم حيث يقبع هو... سعيد تأنأة... سعيد الأخرس... له  
ملفته الخاصة التي يبتعد عنها الأطفال كالجدام... حتى مجرد رؤية أحد  
الأطفال يتحدث مع سعيد تأنأة كفيف لجعله مادة للسخرية بين أقرانه...

هكذا كانت طفولته... إلا أن أباه، وبعد شجار عنيف مع أمه، كرهه أن  
ابنه البكر متزويماً قعيد الفراش... تصور أنه لن يكبر ليصبح رجلاً إن  
منزلاً... فدفعه للاختلاط دفعا... خرج يومها مع أخيه الأصغر مصطفاً  
ليلهو في الغيطان وليته ما فعل.

تأخر الصبية تلك الليلة في اللعب حول الحوض الجنوبي للقرية،  
الواقع بجوار المقابر، حتى اختفت الشمس وساد الظلام... هرع الصبي  
في طريق العودة إلى القرية مروراً بالترعة الضيقة يتبعهم سعيد الذي  
حاول عبثاً الانضمام إليهم في اللعب... سبقوه ولم يلتفتوا إليه كأنه  
ليس معهم... ما أقسى أن تكون مختلفاً في مجتمع يقوم على التماسك  
وينفي المختلفين... إلا أن هناك حاجساً آخر دفع ذلك الشعور بالفر  
ولو مؤقتاً... الخوف من الظلام... سعى خلفهم بكل ما أوتي من قوة  
وهم يتلاكمون ويتصايحون فيما بينهم... إلا أن الربو العنيد جعله يتخلف  
عنهم ولم يساعده الظلام في رؤية ذلك الحجر الذي سد طريقه فهو  
برأسه في الترع الموحلة... لا يمكن وصف الرعب الذي شل حركته  
وتفكيره وهو يسقط في جح الظلام... حاول الصراخ، لكن سرعان ما  
ابتلعه الماء والوحل وكنم صرخته... بعد عودة الصبية بدونه، خرجت  
القرية بالكلوبات للبحث عنه، أو بالأحرى للبحث عن جسده بعدما قال  
أحد الأطفال أنه رآه يسقط في الترع... مما دفع الجميع للاعتقاد أنه  
غرق... سمع سعيد صوت الرجال يصيحون داعين جسده للظهور لدونها

### يا طالب الدفنة حود

بُعث الأهالي عندما وجدوه واقفاً في الظلام وقد تحول إلى كتلة سوداء  
من أثر الوحل... خلصوه من سجنه الطيني ليصبح سعيد صامتاً كالقبر  
تأثر الكلام أنه مُس وأن جنية الترع جذبه واصطحبه إلى الغور العميق

.. ما ضاعف من نفور الصبية منه... وبالرغم من قدم تلك القصة إلا أنها لا  
ال تتردد في المجالس وما زالت الكوابيس تنفص منام سعيد حتى اليوم  
..سيها... لكن الجزء المرعب من الكوابيس ليس سقوطه في الوحل في  
طلمة الليل، بل هو ما بعد العثور عليه، التهامز والتلامز ولسانه المعقوف  
الذي لا يدفع عنه سهام السخرية السامة... ما لم يقله سعيد حينها أن  
مصطفى هو الآخر رآه يسقط... التقت عيناها بينما هو يحاول تخليص  
،مه من الوحل... لكنه أدار ظهره ومضى... لم ينظر خلفه... تمامًا كما  
فعل الآن... لم ينطق بذلك بعدما عاد لداره عندما احتتم مصطفى بصدر  
امه بينما أبوه يعتفه لأنه لم يحافظ على أخيه الأكبر... لم ينطق وتمنى  
حينها أن يصبه الخرس فيتخلص من القدرة على الكلام للأبد.

## (١٧)

عادت زينب فور انتهاء "شهر العسل" بعد أيام من رحيل مصطفى على نفس قطار الدرجة الثالثة المهترئ الذي حمله بعيداً عن باب الحجازي... لم يعد المنزل الذي تربت به يحمل ذكرياتها الجميلة... بل أصبح كحصيرة أشواك تذكرها بالغدر الذي وقع عليها... لم تعد ترفع عينها في عين أخوتها أو أمها... هنالك فقط حديث الصمت الذي يصرخ بالخذلان... راحت خلال أيامها الأولى في الدار تراقب الجنون الذي استولى على البلدة... لم تجب عندما جاءت فتيات على وشك الرحيل مع كهول جدد في "شهر العسل"، ليسألنها عن تجربة الزواج من شيوخ الخليج... ظلت تتطلع إليهن في صمت شاحب، كوردة تلاشى شذاها ولم يكذب فوح... لم تعد ترى شيئاً ذا قيمة يحدث في هذه القرية الخربة يستحق حديثها... ولم تكن الفتيات في حاجة إلى حديث زينب، وجهها المهزوم وصحتها الذابلة وجسدها الهزيل كان يروي مآسي لن تحملها

الكلمات... كن ينظرن إليها ثم يمضين، تقطر أرجلهن ببقايا الحزن الذي غرقت فيه زينب.

لم تقاوم أي من الفتيات مصيرها المحتوم، تسري عنهن الأمهات المكلومة بالحديث عن القاهرة، التي كانت كصندوق الدنيا في نظرهن... حيث ما لا عين رأت ولا خطر على قلب قروئ... يسرين عن فلذات أكبادهن بالحديث عن الحياة المبهرة التي سيمتعن بها ويكتمن في قلوبهن خوفهن من الوحوش التي ستلتقم أجساد البنات دون أن يند عنهن لوعة شكوى.

أصبحت دار علي الرفاعي ملجأ للأمهات الشكالي... يأتين إلى أم سعيد يحدثنها عن همومهن... عن بناتهن وحكاياتهن عن الأفعال الشاذة التي مورست في أجسادهن الضئيلة، يحكين بطيب خاطر لا يدرين أنهن بصين الحمم على جرح لم ولن يلتئم... ترفض أم سعيد أن تتخيل مثل تلك الأفعال وقد مورست مع ابنتها الوحيدة التي أصبحت صامتا كالقبر منذ عودتها... لم تتكلم عما حدث معها في ذلك الشهر المشؤوم.

حاولت أم سعيد جرّها إلى الحديث لكنها لم تستجب، فحدثتها عن حكاوي النسوة عن بناتهن عليها تنطق، تنفي أو تؤكد... لكنها ظلت شاردة بلا انفعال... لا تتكلم... احتدت أم سعيد عليها فنظرت إليها زينب بذات النظرة الخاوية وأجابتها بالصمت مما زاد من حدنها... تتعمد أمها أن تستدرجها إلى الشجار... تسعى جاهدة لجعلها تصرخ في وجهها... يريدّها أن تقول تلك الكلمة المعلقة في الهواء... لم خنلتموني... لم نعم لحمي... لكنها بقيت صامتا شاردة... فانتحبت الأم في صمت.

كلميني يا بتي... ريحيني وريحني نفسك

لكن زينب ظلت على صمتها لا تتكلم... كأنما أصابها ذات الداء الذي منع توأمها سعيد عن الكلام... توأمها الذي كان الوقت قاسياً عليه بدوره في منفاه في وسط الزراعة حيث يتخفى، الساعات القاسية تمر ببطء، رغم أن الخطر يكمن في النهار حيث يتقل من مكان لآخر لتفادي الفلاحين. يسمع في كل خطوة أقدام الفواعلية القادمة من أجله... كل خرفشة في الزراعة كانت تحمل بين طياتها الخطر... يسيطر عليه الإحساس بأنه على وشك القبض عليه فيتمنى أن يعثر عليه ليتخلص من ذلك الإحساس بأنه طريدة... إلا أن الليل هو الأقسى... حيث يجلس وحيداً مع ذكريات: مثقلاً بالذنب... يسترجع ما جناه على أخته وبلدته... كل ما أراده هو أن يحررهم من لعنة تجارة اللحم، فإذا به يوقعهم في تجارة لحم جديدة أرذل من الأولى... كل ما اختلف أن ابن الحلال تحول لبنت الحلال. حتى أصبح يشعر أنه حبة رمل قررت التحرر في صحراء العبودية.

عندما يتيه عقله في داره يرى أمه لازالت غاضبة عليه، يسمعها تقول أنه أس المصائب، بصداقته للإمام الذي باع أخته، يسمع نحيب زينب يقتله في اليوم والليلة مرات ومرات... كان عليه أن يرى أخته، لكنه لن يستطيع مواجهتها دون أن يتقم لها ممن باع عرضها... لم يبق معه سوى ذلك الصندوق المخملي الذي يحوي الخرقه الصوفية التي أصبحت كل متاعه في الدنيا... ترى لم وصلت إليه؟ ولم هو بالتحديد؟

في هدوء الليل راحت بذرة فكرة تداعبه... ثم راحت البذرة تكبر فأطبق على الصندوق المخملي في راحته وأطلق العنان لخياله... كلام... كلام... وكلمات... لعته وموهبته... موطن ضعفه ومنبع قوته في آن معاً... حُرِّم القدرة على النطق بها لكنه أودع موهبة نظمها لتلقاها القلوب والعقول... كلمات بذرها في عقول الناس فهياتهم لما يريد حصاده منهم... كلمات غيرت شكل قرية وكلمات شكلت مصير

أم... وكلمات هي التي ستفقد باب الحجازي من المصير الأسود الذي  
بتنظرها... لكن كيف لكلماته أن تصل إلى قرية من الأميين... كان عليه  
أن يخاطب ما تبقى لهم من ضمير... تمامًا كما فعل من قبل... لكن من  
أين له بذلك بدون لسان الإمام الفصيح ليساعده.

أتاه كامل ببعض كسر الخبز قبيل الفجر... راح يقلد الإمام وهو يتعامل  
مع الآباء ويسترق النظرات إلى البنات في فجره المعهود... فابتسم سعيد  
في مرارة ثم تحولت الابتسامة المريرة إلى ضحك صاحب شاركة فيه  
كامل... تسأل كيف يضحك في مثل تلك الظروف، لكنه أقتنع نفسه أنه  
إن لم يضحك فسوف يموت كمدًا... كما أن المبالغة في المصائب إلى  
الحد الأقصى تنقلب إلى سخافة لا يقبلها العقل، ومن ثم إلى كوميديا  
سوداء... مرت ليلتان حتى أتاه كامل بما طلبه من الأوراق والأقلام وقال  
له أنه سرقها من دكان الإمام شخصيًا فضحك سعيد وشكر كامل الذي  
سارع بالعودة إلى البلدة.

انتظر سعيد ليال عدة، شرع خلالها في ملء الورقات... إلى أن خسف  
القمر في إحدى الليال فخرج من بين الغيطان متخفيًا، وإن كان في غنى  
من التخفي، فلم يكن أحد ليميزه بعد أن تأكلت عظامه وانحسرت عيناه  
في محجريهما وخسر نصف وزنه... سار سعيد في خفة بين الطرقات  
الدافئة، يكاد يسمع بقايا أصداء لهو الأطفال حول "القمر المخنوق"  
وثرثرة النسوة وضحكاتهن المستهترّة التي تجاهلت ما حدث ويحدث  
بأن لم يكن... طاف سعيد في القرية كالمجنون حتى اقترب من الدور  
فأحقت رائحتها من الأسطح والأبواب المفتوحة... روائح الدفاء الذي  
كاد ينساه... لكنه لم يعد يشم سوى رائحة الخلاص من القهر والتحكم  
في حياة البشر... بحلول الهزيع الأخير من الليل كان قد أنهى ما أراد...  
مر على اللوحة الصدئة التي صارت تحمل اسمًا جديدًا لبلدته ووضع

عليها آخر ورقاته قبل أن يمضي فيتلعه الظلام.

مع انتصاف ظهيرة اليوم التالي، كانت زينب تنقل اللبن الرائب إلى الكانون ليغلي عندما دُفع باب الدار بقوة ودخلت فاطمة تتوسط وجهها الذي يشبه وجه الحصان ابتسامة خبيثة... تحمل في يدها ورقة طويلة. بعنايه ناولتها للزينب.

طالعت زينب الورقة طويلاً إلى أن قطعت فاطمة الصمت

طبعاً انتي عارفة مين اللي كتب الكلام ده

انت بتعرفي تقري يا فاطمة

تخضل وجه فاطمة بحمرة الخجل وقالت

هو اللي مكتوب محتاج علام يا بت... دي البلد اللي متعرفش  
الألف من كوز الدرّة كلها بتكلم عنه

نظرت زينب إلى الورقة في يديها... إلى الرموز الغريبة التي كانت في صدر الباب... كانت دومًا تسمع أن البعض يرى تلك الرموز حروفًا لا يجيدون قراءتها... لكن الجميع كان موقنًا أنه لا بد لوجودها من معنى... بعضهم كان يشعر أن تلك الرموز تحمل خلاصة معاني الحياة والوجود ذاته... وهاهي الآن تحمل في طياتها الخلاص من همومها وبؤس القرية بأكملها... دققت في الحروف التي نقلت بدقة إلى صدر الورقة وزحفت ظلال ابتسامة شاحبة على شفتيها... من غيره... توأمها الذي لم يلتفت له أحد من قبل، ويعلق الجميع عليه اليوم نجاة القرية من مصيرها المظلم.

افترشت فاطمة الأرض ثم أخذت تحكي لها عن وجه الإمام عندما رأى تلك الورقة وقد غطت على لوحه الصدفة... قالت لها أن زوجها المعتوه رمضان والإمام وفواعلته قد جن جنونهم وساروا في الدروب



...معون الأوراق من الدور ومن حاملها، حتى تحولت النسخ القليلة  
إلى كتز ثعين يخفيه البعض في شقوق الجدران... كما أعلنت  
الاحنة الشرعية حرمة الاحتفاظ بتلك الرموز الشركية.

قلبي يقولني إن الباب حيرج قبل المولد يابت

اللي راح في البلد دي مبير جعش

هكذا قالت زينب فلم تعرفها فاطنة اهتماما وراحت تلقي بالنذر تلو  
الأخر عما ستفعله عند رجوع الباب، وكيف ستسم بدن زوجها حينها  
السخرية حتى يفقد القدرة على النوم... لم تكن فاطنة الوحيدة التي  
أملت بترقب وحساب الأيام المتبقية للمولد، بل أصبح الجميع يترقب  
الملك الموعد... وكلما مرت الأيام ازداد الترقب واشتعلت النفوس بالأمل  
سما يحترق الفواعلية بجحيم الغضب.

على القهوة، جلس رجل أسمر نحيل في جلباب بلدي مهترئ فُتح  
حتى صدره، يداعب التراب بقدميه الحافيتين... احتسى الشاي وسأل  
جلًا بجواره ذا شارب دقيق

تفتكر لما الباب يرجع... يرجع معاه الدراويش والشيخ عبد  
الكريم

سحب الرجل ذو الشارب نفسًا عميقًا من الجوزة

أكيد... بس لما يغور الهم اللي كابس على نفسنا هو فواعلية

صمت الرجل قليلًا ثم استطرد

وبعدين أنا ميهمنش الدراويش يرجعوا ولا ميرجعوش... المهم  
حال البلد يرجع زي الأول... لازم لما الباب يرجع ونخلص من

الفواعلية نرجع سيد خطاب... آه آمال... هو اللي كان ممسني  
البلدع العجين متلخبطوش... والبيوت كانت مفتوحة والزرايع  
عمرانة... مش زي الفقر اللي حل علينا مع اللي ميتشموش  
يعني كان سيد خطاب عدل أوي ياخي

إحنا بلد ميمشيش معاها إلا العوج... واللي تعرفه أحسن من  
اللي متعرفوش... أدينا معجناش اللي عاجينه وخابزينه وأبظروا  
عليه... شوف ربنا بلانا بإيه... كان مالنا... كنا كويسين وأحسن  
من غيرنا... قالك بيع لحم وبيع فجل... يكونش كان يضرب  
حد على إيديه... أدينا بترحم على أيامه... وبدل ما نبيع لحمنا  
بقينا نبيع لحم ولايانا... والله اللي يقول كلمة بطالة في حق سيد  
خطاب يتاهل الضرب بالنار... هو في سواد زي اللي إحنا فيه ده  
وده يرجع إزاي

سحب الرجل نفسًا آخر من الجوزة فكركت المياه الملوثة قبل أن  
ينفث دخانه وهو يقول

ربك يدبرها... المهم الباب يرجع الأول

مهو حيرجع من هنا وحيحرقوه من هنا

انت بتكلم إزاي... خلاص العبيط في البلد دي فتح... عليا  
النعمة اللي يقربله أكله بسناني... والله ما يقين فيكي راجل من  
ضهر راجل يا بلد لو الباب رجع وفرطنا فيه ثاني... بس هو يرجع  
إن شاء الله يرجع

هكذا قال الرجل وعاد يداعب التراب بقدميه

انت عندك ورقة من بتوع سعيد الرفاعي

عايز أشوفها

نقى نروح له سوا

ظلت ورقات سعيد تنتقل في الخفاء بين أيدي أهل القرية... البعض  
ينهرك بوجودها في داره... البعض يحتفظ بها لتذكره بأيام ولت وولن  
معها كل ما عرفوه عن دنياهم ويحشر في حلوقهم واقع جديد... البعض  
برئ في تلك الرموز القليلة التي لا يفقهونها آفاق أرحب مما يقع تحت  
العين... ليتحول الباب إلى رمز... رمز يقف في طريق الإمام للسيطرة  
الكاملة.

صباح اليوم التالي استقيظت أم سعيد بعد الفجر كعادتها، لكنها  
وجدت البهائم بلا برسيم في الزريبة... جالت بنظرها في الدار فلم تقع  
عينها على زينب... دخلت حجرتها فوجدتها خالية... توجست أم سعيد  
وتسرب قلق غريزي إلى قلبها فسارعت إلى الدولاب العتيق الذي يحمل  
ملابس زينب القليلة لتجدها كما هي... لم تهرب البنت، فأين ذهبت...  
ارتقت درجات السلم الطيني بقدر ما تسمح به صحتها، تنادي على زينب  
بلا مجيب... كان السطح خالياً بدوره.

عندما هبطت إلى الدار من جديد كان الأولاد قد أفاقوا من نومهم  
فأعدت الطبلية وعقلها يكاد يحترق بالسؤال عن مكان زينب... حتى قال  
أصغره وفمه ممتلئ بالخبز والجبن القريش الذي وضعته للتو

مش حتصحي زينب يامه

انقبض قلبها على الفور وهي تقول

هي فين يا وله؟

جوه نايمه مطرح سعيد

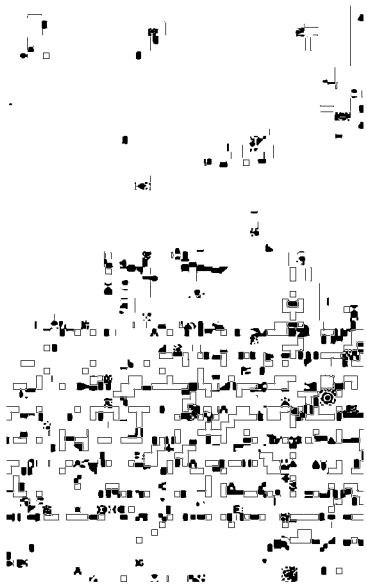
هرولت أم سعيد إلى الغرفة ودفعت الباب فوجدت زينب ممددة على الفراش حيث كان ينام سعيد تحتضن ورقة صغيرة... انقبض قلبها عندما رأت توأم البطن الواحدة يحن إلى شقيقه... يشاق إلى ربحه... يتأسر في مكانه... لعل سعيد هو الفرد الوحيد الذي وقف في وجه الإمام من أجلها وهامو يدفع الثمن بتشرده وحيداً لا يدر عنه أحد شيئاً... اقتربت أم سعيد من زينب وهزتها في رفق

إصحي يا ضاي... الفطار جاهز

لم تستيقظ زينب فعاودت أم سعيد النداء الذي بدأ يتحول إلى هز هستيري مع بقائها ساكنة... تتضح في عقلها المصيبة لكنها ترفض تصديقها... لا يمكن أن تكون هذه نهاية زينب ونهاية صبرها... رجت صرختها أرجاء باب الحجازي بالكامل بعد أن تحققت أسوأ كوابيسها وخرج الموت من الدار يخفق بجناحية الأسودين بعد أن اقتنص روحاً جديدة... روحاً لم تحنو عليها الحياة.

خيم صمت خسيس على باب الحجازي أثناء عزاء زينب... صمت محمل بالهوان والهموم أثقل ظهور الرجال وكسر قلوب النسوة الشكلى المتشترات في دار علي الرفاعي التي خلعت من الرجال... لم يتحدث أي من أهل القرية بعد العزاء، الذي أخذه خالها خليل، عن أي شيء يخص زينب... توقفت الألسنة عن ذكرها تماماً... كأنما اتفق البشر على محاولة نسيانها... يحاولون العودة إلى حياتهم الطبيعية سريعاً بمحو آثار موتها من ذاكرتهم.

## الفصل الثالث



## ( ١ )

مع انحسار النور وبسط رداء الليل، انتشر خبير وصول جمال ابن سيد خطاب في البلدة... يحمله الأطفال الراكضون حول سيارته الفارحة التي تنوغل في أحشاء القرية... تتبعها سيارة أخرى كثية متهالكة، التف حولها الأطفال يحاولون استراق نظرة لما يعلمون أنه راقد بداخلها بالقفز حولها بلا جدوى... ما أن توقفت السيارتان أمام مندرة سيد خطاب حتى نهر الرجال الأطفال الذين ابتعدوا في تنمر واضح.

استقبلت باب الحجازي جمال خطاب بمغلاة في الحفاوة... لعل البعض يحاول التكفير عن الطريقة التي أخرج بها مع أبيه منذ ما يقرب من عام... نظر جمال إلى دار أبيه المتفحمة بعين ملاتها الحسرة في طريقه إلى المندرة حيث كان رجال أبيه قد اصطفوا في انتظاره... أضيف إليهم وجوه لم ينس أنها حملت ابتسامة شامته حينما حمل أبوه على نقالة مطرودًا من باب الحجازي... ارتفع نحيب البعض بينما غلف الآخرين

بله المفاجأة... كان كل شيء أعد ولم يكن جمال بحاجة لمراجعة  
الإجراء! -

برغم أنه لم يبد أي تقدير لتلك العبارات المكررة المحفوظة، إلا أن  
ذلك لم يحل دون انهماها على أذنيه كلما مر به أحد

الله يرحمه... والله عرفنا مقامه بعد ما سابنا

البركة فيك يا حاج جمال

أنا مزعلش على أبويازي ما زعلت عليه

البقاء لله... ولا دايم غير وجهه

مرت الوجوه عليه كظلال لا تميز... عانقته الأذرع واعتصرت الأيدي  
كفه الغليظ في محاولة لإبداء التعاطف والموازرة.

عايزين نجهز التربة

هكذا قطع جمال استرسالات الرجال في التعازي والمواساة، فمال  
عليه الأستاذ عبد الحميد علام وقال

كله جاهز يا جمال بيه... بس الناس عايزة تعزيك

أنا جاي علشان هو وصيته يدفن في بلده... لولا كده مكتشش  
عتبتها ثاني

كان وجهه جامدًا حتى بدا أنه الوحيد القادر على تمالك أعصابه بين  
الجموع التي أحاطت به في انكسار

العزاء من الليلة ولتلت أيام... ابعت حد يعلنه في الجامع

هكذا قال جمال خطاب فقفر رجل سمين يتدلى كرشه جليًا من ثنيات  
الجلباب وابتسم ابتسامة لزجة تعلن تطوعه للمهمة.



عندما دخل الرجل إلى الجامع كان الإمام جالساً في حلقة من مرديه  
فخرج على أحد الشباب وأسر له بكلمات قليلة في أذنه، لم يجبه الشاب  
وتوجه رأساً إلى الإمام الذي هز رأسه بالنفي في صمت ولم ينظر إلى  
الرجل.

روح قول للمي بعثك مكر فون الجامع عطلان

هكذا قال الشاب ثم عاد ليستمع لحديث الإمام عن البَحَّار... لم يكن  
الإمام في حالة تسمح له بمشاحنات جانبية... فقد اقتطع البَحَّار يومين  
كاملين من دور القرية في السقيا حتى ضج الفلاحون وكان عليه فعل شيء  
ما لتأديب البَحَّار... كانت كلمات الإمام قاسية... مليئة بالغضب الذي  
راح يتسلل إلى صدور الشباب المستمعين في إصغاء.

صباح اليوم التالي، كان البَحَّار في طريق خروجه من ميت الشوكة  
على حمارته المنهكة تحت ثقل حملها... ارتقت الحماراة تبة تربية  
فتشبث بالشوال بكلمات يديه كي لا يسقط فلم يتبه لذلك الشاب الذي أقبل  
عليه حتى بادره بقوله

انت مش ناوي تجيها لبر

نظر البَحَّار لمصدر الصوت فطالعه وجه هضيم ملتج لشاب نحيل  
الجسد، يرتدي جلباباً قصيراً

انت مين يا جدع انت

أشار الشاب إلى الحماراة المحملة

الأرض في كفر ترما حتموت من العطش والزرعة دبلت... انت  
مبتخفش من ربنا... كل ده علشان كام إردب درة... بتاكل حرام يا  
ابن الزانية

تلفت البَحَّار حوله في ذعر، كأنما يبحث عنم يستغيث به

كفر ترما... إيه كفر ترما ده... انت الظاهر عليك مجنون...

اختنقت الكلمات في حلقه عندما لمح يد الشاب تنزلق إلى صدبريته  
وتخرج سريعاً، يلمع في قبضته نصل سكين

انت حتمعل...

لم يمهل الشاب وانقض بسكينه على الشوال الذي تمزق بصريه  
مزعج وسقط ما به من ذره فمالت الحمامة لتأكل... سقط البَحَّار من على  
ظهرها ثم أخذ يزحف على بطنه يملكه الرعب... قفز على قدميه محاولاً  
الفرار مخلطاً وراءه الحمامة والذرة لكن قبضة الشاب أمسكت بطرف ثوبه  
وانهال عليه صفعاً

لومتعلتش يا ابن المرّة ثاني مرة السكينة دي حتكون في بطنك...  
فاهم

والله مالي ذنب... .. سييني... أنا عبد العامور

أخذ البَحَّار يعول ويكي تحت صفعات الشاب التي لم تتوقف حتى  
ظهر بعض الفلاحين من ميت الشوكة الذين خلصوه من بين يدي الشاب  
وحالوا بينهما... عندما تأكد البَحَّار من استحاله وصول الشاب إليه  
واطمأن لوجود الجمع صاح من خلف الرجال الفاصلين بينهما

والله لاجمك يا ابن المرّة

ثم راح يشرح للرجال كيف تهجم عليه الشاب من ظهره ثم هدده  
بسكينه... أشار إلى الذرة التي مازالت الحمامة تأكل منها، وقال أن شوال  
الذرة حال دون استقرار السكين في بطنه.

لم تمض سوى ساعات حتى اقتحمت سيارة الشرطة باب الحجازي

وهبط منها عساكر اقتادوا الشاب ذا الوجه الهضيم إلى داخل السيارة...  
يصفعونه ويسبونونه كلما حاول المقاومة... اصطف الرجال والنساء  
يشاهدون ذلك المنظر الفريد في تشفٍ مفصوح... كان الفواعلية  
يتصرفون في البلد كأنهم محصنون بعلاقة الإمام مع المأمور من أي  
نبتات لأفعالهم ورؤية أحدهم يهان بتلك الطريقة كانت بمثابة متعة أئمة  
للمتفرجين... قبل أن ترحل به سيارة الشرطة حاول الإمام الذي وصل في  
وفد من الفواعلية إقناع الضابط بتركه، مؤكداً للضابط أنه سيحضر الشاب  
بنفسه إلى المركز ويتفاهم مع المأمور.

أحنا عندنا أوامر ناخده... عايز تكلم المأمور تروحله المركز

هكذا أنهى الضابط الجدل وانطلق بالسيارة... حاول الإمام إخفاء  
توتره وتجاهل نظرات الناس التي تسلطت عليه ثم سارع بالذهاب إلى  
المركز مدفوعاً بثورة شباب الفواعلية الذين أهانهم القبض على رفيقهم  
بذلك الشكل

قطع الإمام ووفد الفواعلية المصاحب له الطريقي إلى المركز في أقل  
من ساعة، لكنه قضى ضعف تلك المدة في انتظار المأمور حتى أذن له  
بالدخول إلى مكتبه... كان المأمور يعبث في بعض الأوراق التي تناثرت  
على مكتبه الذي تصدرت صورة السادات الجدار خلفه... جلس الإمام  
بأدب وانتظر المأمور حتى رفع إليه ناظره

يا باشا لازم نخرج الواد المحبوس ده... ملوش ذنب

التقط المأمور كوب الشاي الساخن ورشف منه رشفة على مهل قبل  
أن يقول بهدوء مستفز

انت حتعرفني شغلي

- العفو يا باشا... أنا بس بتكلم من عشمي

تفحصته عينا المأمور الحجريتين

أخبار البلد إيه يا مولانا

بدت الدهشة على وجه الإمام من السؤال المباغت

كوية، الدنيا هادية... هو بس البحار الملعون ده...

قاطع المأمور

مش عيب يا مولانا ترفض إعلان وفاة في الجامع... هي دي

الأصول يرضو؟

تشابك حاجبا الإمام وتوترت عضلات وجهه

حضرتك عرفت إزاي

إنا شغلتي أني أعرف... زي ما عرفت مثلاً موضوع المولد...

سمعت إن الناس مستين الباب يرجع تاني

احتقن وجه الإمام حتى كاد أن ينبثق الدم من وجته

باب! باب إيه يا باشا... دي تخاريف

ابتسم المأمور ساخراً وارتشف رشفة أخرى من كوب الشاي، حاول

الإمام السيطرة على أعصابه التي عبثت بها مقابلة المأمور الغربية

الأخبار اللي بتوصلني إن أهل البلد بيقولوا إن الباب راجع في

المولد... يا أخي غريبة دي... ناس مستية مولد من غير مقام...

هو فاضل على المولد أد إيه

لو كان الإمام يدري من ذلك اللعين الذي أطلق تلك الإشاعة التي

تحولت مع الوقت إلى حقيقة لنهش لحمه بأسنانه... الجميع على السواء

أصبحوا في انتظار المولد... في انتظار عودة الباب الملعون.

يا باشا كلام فإ...

أنا بمالك فاضل على المولد أد إيه؟

٤ شهور

ابتسم المأمور وقال

هانت

التقط المأمور بعض الورقات من أمامه ودفن عينيه فيها

بالنسبة للواد إللي عند حضرتك!

مفيش في إيدي حاجة يا مولانا... ده متقدم فيه بلاغ بالتعدي  
والبخار معاه شهود إن الواد كان عايز يموته ولازم ناخذ معاه  
الإجراءات اللازمة

يا باشا انت الخير والبركة... وكلمتك مسموعة عند البخار وهو  
مقدرش يأخرك طلب... الصلح خير

ألقى المأمور الورق ونظر إلى الإمام برهة قبل أن يقول

البلد فيها قانون يا مولانا... أنا مقدرش أمشي الأمور على مزاجي  
يا باشا العفو... إحنا خدامينك... وانت عارف إنني متأخرتش  
عليك في أي طلب طلبته مني... مهما كلفني وجع دماغ

ابتلع الإمام ريقه بصعوبة عندما تعكر وجه المأمور وهو يقول بكلمات  
ضغطت حروفها

- اللي قصتك عليه ده طالعلك مصلحة منه... ولولا القرشين اللي

بيطلعوا منه كان زمان الفجر دول كلوك بسانهم... انت المفروض  
تشكرني إني مقبضتش عليك بتهمة الإتجار في البشر وتزويج  
القصر... ومتساش إن عليك قضية، وإتك هريان من السجن وأنا  
سايك بمزاجي

تناول المأمور قبعته من على المكتب وأخفى بها صلعته قبل أن يقوم  
عندي مأمورية لازم أطلعها

والواد يا باشا... البلد تاكل وشي لو رجعت من غيره... الشباب  
يغلوا وانامش حعرف أسيطر عليهم لو الواد مطلعش

انت إيديك بقت مرخية على الناس... يكلوا وشك ولا يكلوا  
قفاك ده شيء ميخصيش... وعلى فكرة... الواد اللي أنت مكلف  
خاطرك علشانه يقول في المحضر إنك حرضت على البحار  
بنفسك

امتقع وجه الإمام

محصلش يا باشا...

تابع الإمام المأمور الذي لم يعمله ليكمل كلامه وهو يرحل... شيء  
ما تغير... شيء لا يبنى بالخير... المأمور كلب غدار لن يتورع عن  
افتراسه إن كان له مصلحة في ذلك... يدرك الإمام ذلك جيداً... لكن  
ماصلحته في معاداته فجأة... هل يستغل اللغظ المشتري في البلد...  
لم يكن الإمام مستعداً للمواجهة وكيانه بعد غض لم تمتد جذوره في  
الأرض، يستطيع المأمور سحقه بقدمه إن أراد... معركة الآن خاسرة  
وتلك الهدنة الغربية بينه وبين المأمور باتت على وشك النفاذ... معركة  
يجب أن تكون مع سعيد الرفاعي الذي أوجد كل ذلك اللغظ... كان عليه  
أن يجده ويؤتد الفتنة بأي ثمن... عليه أن يقتل الخطر الذي يهدده ويثبت

للمأمور والجميع أنه رجل لا ينبغي العبث معه.

سار الإمام شاردًا في طريق عودته، بين أربعة من الفواعلية أصبحوا لا يغادرونه منذ اعتدئ عليه سعيد الرفاعي... لم يتبه الإمام لسؤال أحدهم عن زميله المحتجز، كان مشغلاً في تجرؤ المأمور عليه... لم يكن يرى نفسه قوادًا كما يلح المأمور... هو رجل فهم الدنيا جيداً وزهد في المثاليات الفارغة... الرجال تشتهي النساء وتجنح للتغيير... وإلا فلم أحل الله التعدد... كل ما فعله أنه أتاح ذلك لشريحة من الرجال ووفر مصدر دخل للقرية... وباستثناء زينب، فهو لم يجبر أيًا من بنات القرية على الزواج... انغمس في أفكاره حتى كاد يسقط عجزاً تحملت سبت من الخبز الساخن فوق رأسها عند مدخل القرية.

ما أن استقر في مجلسه بالدكان حتى جاءه الخبر بأن الجمعية التعاونية أخرجت نصيب الفلاحين من الأسمدة بدورها... وأن الفلاحين قد ضجوا من قلة الماء وتعتت الجمعية التعاونية مما تسبب في نشوب شجار عنيف بين الفلاحين والموظفين حتى اضطرت الفواعلية للتدخل لفض الاشتباك فأخذ الفلاحون يسبونهم بدورهم، ويتعنتونهم بأنهم السبب في الفقر المخيم على القرية.

طلع اللباس الشرعي اللي جالتنا من أهل الخير في مصر ووزعه على الدور

هكذا قال الإمام، وقد أثقل كاهليه وطأة الحمل

بس يا مولانا النسوان بيخيطوه ويلبسوه للعيال... محدش منهم يلبسه

صرخ فيه الإمام

بقولك وزعه... لما أقول حاجة تنفذ من غير رغي

هرع الشاب وأخرج كراتين الزي الشرعي الذي كان يوزع في  
الجامعات والقرى من رجال الأعمال الكبار... بينما اقترب منه أحد  
أعوانه بحذر

لازم تشوف صرفة مع البخار يا مولانا... الناس خلاص مش قادرة  
تستحمل... وإحنا عارفين أن رجالة سيد خطاب الملاعين ليهم  
يد في تأخير السداد وهم اللي بيحرضوا البخار على قطع المية...  
وفي حاجة كمان

تخرج الرجل قبل أن يقول

الكلام زاد إن سعيد الرفاعي حيرجع الباب ثاني من ساعة ما سيد  
خطاب اتدفن وابنه رجع

حقًا لا تأني المصائب فرادئ... هكذا راح يتردد في عقل الإمام...  
لكنه كان يعلم ما يجب فعله.



## (٢)

نبه الإمام علي أتباعه بعدم حضور عزاء سيد خطاب... كان يريد للعزاء أن يبدو خاويًا، أن تلفظ القرية سيد خطاب في مماته كما لفظته حيًا... لكن باقي القرية تراصوا في الصوان، بعضهم من رجال سيد خطاب الذين انهار حالهم برحيله وضاعت مكانتهم، والبعض ممن يترحم علي أيامه بحلوها ومرها بعدما ذاق الأمر بلا حلاوة تشفع له.

أما الإمام نفسه فكان جالسًا في تلك الأثناء علي أريكة في شرفة دار الشيخ محمود قطب المتواضعة يلتقط أنفاسه بعد أن انتهى من سرد ما لديه للشيخ... وضع كوب الشاي علي منضدة عتيقة علم أن أحد أقارب الشيخ بالمنصورة أهدها إياها عندما ابتاع فرسًا جديدًا... وهي أقيم قطعة أثاث يفتنيها الشيخ، فداره لا تحتوي سوى علي الأساسيات التي لا يمكن العيش بدونها

- إحنا بنتهي يا سيدنا الشيخ... سعيد الله ببعنه بيكره الخلق فينا

بأفعاله وابن سيد خطاب راجع يطل براسه على البلد من ثاني  
هكذا قال الإمام وهو يتظر رد الشيخ الذي بدا جامداً مما دفع بتوتر  
كبير إلى شرايته

نحن لا ننتهي... نحن والباطل كالممد والجنر نروح ليأتي أهله  
ويروحوا فنأتيهم... وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُدَّوْلَهَا بَيْنَ النَّاسِ (1)  
صمت الشيخ فشعر الإمام أن نظرتة تنفذ إلى روحه

لكن متشاش إن سعيد كان بمثابة ولدي ويعلم الله ما في قلبي له  
من معزة... لكن ما وقع عليه جعله يفقد صوابه ويحيد عن طريق  
الحق... سعيد حكى لي عما كان بينكما... كشف لي ما كان بكبه  
لك من خطب وقص لي عن مقاومتك للحق خوفاً من بطش سيد  
خطاب..

تحنح الإمام وحاول استخراج بعض الكلمات ليحسن موقفه  
لا تقاطعني...

هكذا زجره الشيخ محمود قبل أن يستعيد رباطة جأشه

لكن نشاء إرادة المولى لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى أن تتصدر  
أنت المشهد برغم أنك لم تكن في الصفوف الأولى... وتلك  
طبيعة الأحوال... نادراً ما يتولى أصحاب التضحيات صدارة  
المشهد... ينالها من بقى حياً في الصفوف المتأخرة من الجبناء  
والمرتدين

ابتلع الإمام الإهانة وقال

---

(1) سورة آل عمران - الآية .

قول فيا اللي انت عايزه يا مولانا وأنا راضي... أنا مش مهم،  
وإن كان ربنا العالم الواحد بيندم أد إيه على التردد في البداية...  
وبحاول أكفر عنه بإني متأخرش طوقتي... أنا كل اللي خايف  
عليه هو مشروع الدعوة اللي حيتي برجوع ابن سيد خطاب...  
يا مولانا الناس بقت بتكلم عن رجوع الباب والمقام وكل الرموز  
الشركية اللي قضينا عليها... لازم نشوف صرفة وأنا واقع في  
عرضك

نظر إليه الشيخ نظرة تقطر احتقارًا

شوف يا ابني... الإجماع عند أهل العلم هو إنه يجب قتال كل  
من خرج عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة أو أظهرها البدع  
المخالفة للكتاب والسنة... وإن تكلم بالشهادتين... يقول الله  
تعالى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَعَثَ مِنَ الْإِنبِيَاءِ إِنْ كُنْتُمْ  
مُؤْمِنِينَ ۝ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ... هؤلاء هم  
الباغون... اعتدوا علينا بإهمال شرع الله... ثم اعتدوا علينا بحبس  
أولادنا... يقول رسول الله: بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيَّ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ، حَتَّى  
يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي نَحْتِ ظِلِّ رُمُحِي،  
وَجُعِلَ النَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَيَّ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ نَشَبَ بِقَوْمٍ  
فَهُوَ مِنْهُمْ... والحديث يعني أنه من لم يستجب بالحجة يستجب  
بالسيف.

جاهد الإمام ليخفي سعادته بالوصول لمراده... وحاول تنميق كلماته  
التي أعدها مسبقًا

الله يفتح عليك يا مولانا... بس حضرتك عارف إن الدار  
مش حتشوفها بالطريقة دي لو انا اللي وقفت لجمال خطاء  
ورجالته... حيقولوا يا مولانا إني بحارب أهلي... والرسول ١٤  
أفضل الصلاة والسلام صبر على رأس النفاق، عبد الله ابن ساول،  
ولما أراد الصحابة قتله قال لهم "لا يتحدث الناس أن محمدًا  
أصحابه"... مش كده يا مولانا... أنا لو حاربتهم علنا حقتي فر  
عنيهم عدو... وده ضد صالح الدعوة

تفكر الشيخ محمود

إن عاجلاً أو آجلاً لابد من إعلانك حرباً صريحة على كل من يحاد  
الله ورسوله... لكن لا ضرر من المساعدة من عندنا في الوقت  
الحالي

خرج الإمام من ميت الشوكة إلى دار الحاج محمد السناري، الذي  
عاد من العزاء ليجده في انتظاره... تغاضى الإمام عن ترحيب الر-  
الفاتر وانطلق في حماسة يلقي ما أعده

انت شايف اللي بييجري في البلد بابا الحاج وده أكيد ميرضكش  
ريحة سيد خطاب النجسة بدأت تظهر ثاني... ورجالته بقى ليه  
حس بعد ما كانوا بيقلوا يا حيطة داريني... وانت مترضاش  
اللي ببناءه يتهد مرة واحدة

استغفر الله العظيم... الراجل مات ومتجوزش عليه غير الرحمة  
وبعدين دلوقتي بتقول ببناءه!

آه طبعا ببناءه... إحنا كنا في شهر بعض يوم ما مشينا سيد خطاء  
ولازم نفضل في شهر بعض النهارده... مين ينسى إنك أول و١٠١

وقف في وش سيد خطاب... ولا نسيت إنه قتل من عيلتكم واحد  
بعمايله السودا

لا طبعاً منسيش... بس منسيش كمان إن في واحدة انقلت من  
كام شهر... انت اللي نسيت يا مولانا... وبعدين إحنا مشينا سيد  
خطاب علشان ظلمه، علشان كان كابس على البلد وأهلها، لكن  
انت مشيت سيد خطاب علشان تاخذ مكانه

قال الكلمة الأخيرة باستهزاء واضح

بنت علي الرفاعي ماتت موة رينا... محدش قتلها... جايز رينا  
بيعاقب الدار دي على آثام رجالتها... وعلى كل حال لو حصل  
غلط نصلحه بإدينا... بس منرجعش اللي كان ذلنا وكاسر عينا...  
ده ممكن يقتلنا كلنا... ده راجع ياخذ تاره

ابني فوق... سيد خطاب مات واندفن

ابنه لسه عايش بابا الحاج... وابنه ألعن منه... اتعلم من غلطات  
أبوه لكن منسيش اللي عملناه معاه... بابا الحاج ده راجع معاه  
قوة أبوه ورجالته والمركز والفلوس التي تشتري ذمم الناس...  
وانت عارف الفقير يخلي كل حاجة تهون علشان لقمه العيش...  
انت مسمعتش إن في من رجالته عايزين ينوله مقام... مقام لسيد  
خطاب بابا الحاج... لو موقفناش مع بعض النهارده قبل بكره  
يبقى قول علينا كلنا يا رحمن يا رحيم... حيتسلى علينا واحد  
ورا الثاني... بابا الحاج انت لو زعلان مني أنا مستعد احب على  
راسك... إحنا أهل مع بعض... ومصارين البطن بتعارك...  
ولازم السنارية يقفوا معايا

- انت فاكِر إن لينا كلمة على الناس بعد ما صغرنا عندهم... قوم

لِمَ رجائك اللّبي طايحين فينا... الحق نفسك وصالح أهلك ذرا  
فوات الأوان

ده آخر كلام عنك يا حاج محمد

صمت الحاج محمد برهة قبل أن يقول

يا ابني احنا بلد ظالمة... بس ربنا مش بيعاقبنا بالطوفان  
والزلازل... ربنا بيتقم منا بزرع الخوف في نفوسنا فتفرج على  
شوية متنا ياكلوا في التانيين واحنا واقفين ساكين لحد ما نخلص  
على بعض.

خرج الإمام إلى الجامع مع فواعليته يتوعد الحاج محمد... أشار  
على الجميع بالتجمع عقب صلاة العشاء... كان صوت المقرئ لا يزال  
يصله من سرادق العزاء المقام في مندره سيد خطاب... حيث كان جمال  
خطاب بين المعزين الذي راح عدد منهم يستجدونه

إحنا ما صدقنا إنك رجعت... ورحمة أبوك متينا... إحنا حالنا  
مر والناس كلها مش طايقة هباب الطين اللي خلى عشيتنا خرى  
يا جماعة أنا مقدرش أعملكم حاجة... أنا حاسف أشوف مصالحي  
بعد العزا وانتم شوفوا صالحكم واعملوه بنفسكم

عندها أمسك الأستاذ عبد الحميد علام بساعده واتحنى به جانبًا عند  
مدخل المندره

الناس عايزالك... مش عايز ترجع تاخذ مكان أبوك ليه

انت نسيت اللّبي عملوه فيه... دول هم اللّبي موتوه بحسرتة

نظر إليه الأستاذ عبد الحميد بتفهم

سيك من كل ده... يا جمال بيه البلد دي فيها أحسن ناس تعرف  
تملكهم... عمليين زي البهائم اللي في الزرايب... بيرضوا بقليلهم  
ويحبوا يسمعوا الكلام... اللي حصل دي فورة واتعلموا الأدب  
خلاص... يا ابني أبوك الله يرحمه كان عارف طبعمهم كويس  
وعارف يتعامل معاهم إزاي... الناس هنا طيبة مؤمنين برنا  
وبالقضاء والقدر... لو خلعتلهم عين وفهمتهم إن ده ابتلاء من  
عند ربنا حيصبوا ويشكروا كمان... ناس راضية بقليلهم وأكبر  
طموحاتهم السر... يا ابني اللي حصل مع أبوك كانت نزغة  
شيطان وراحت لحالها

الناس مبقوش بالطيبة اللي انت بتقول عليها

انت لفيت وشوفت ناس أشكال وألوان... أهل البندر ميعجبهموش  
العجب... شافوا الحلو والوحش وبميزوا بيتهم... أما احنا هنا  
اتعلمنا نقول من صغرنا البطران عيشته قطران... والواحد منا  
يرضى بالقطران لحسن يزول من خلقته... وفي البندر انت زيك  
زي غيرك لكن هنا انت كبير البلد... يا ابني المصالح عطلانة  
واحنا عايزينك ترجع

برغم ظروف وفاة والده، إلا أن وجهه حمل ابتسامة غريبة وهو يستمع  
إلى صديق أبيه... ابتسامة بها قدر كبير من التشفي، لكنها لا تخلو من  
الخبث... إلا أن الابتسامة لم تلبث أن اختفت مع صوت الإمام الذي  
ارتفع من مكبرات الجامع

إنهم يعلونتها حرًا صريحة على الإسلام... يريدون أن يقضوا  
على الصحوة الإسلامية في مهدها... يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا  
نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسَمِّئَهُمْ وَلَوْ كَرِهَ

الْكُفْرُوتِ<sup>(١)</sup>... يا شباب الصحوه... نعتوكم بالفواعلية،  
بأذنب الإمام... بكل الأوصاف المنمومة لكنكم ثابتون على  
الحق، صامدون في وجه الكفر والفسوق... اعلّموا أحباب الله  
أنه لا بد للامة من ميلاد ولا بد للميلاد من مخاض ولا بد للمخاض  
من آلام... يقول حبيكم رسول الله صلي الله عليه وسلم: بدأ  
الإسلام غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء... أنتم اليوم الغرباء.  
وحيدون بين هجمات الكلاب الضارية، تتخطفكم الأيدي وتزج  
بكم خلف السجون وتلوكمم الألسنة لا شيء سوى أنكم تقولون  
ربنا الله... فهل أنتم مستعدون للتضحية من أجل دينكم

تناهى إلى سمع الأستاذ عبد الحميد وجمال صوت الفواعلية الذي  
ارتفع بالتأييد المحموم يرج أركان الجامع... عندها دبت الرجفة في  
القلوب

سامع نعيق الغراب اللي طالع من الجامع

هكذا قال جمال قبل أن يعود أدراجه إلى المنذرة... نظر الأستاذ  
عبد الحميد إلى الغيطان التي ابتلعها الظلام وراح يفكر في الشخص  
الوحيد القادر على قلب الموازين... عاد صوت المكبرات يرتفع من  
جديد... كان الإمام يتوسط المحراب وقد لف شالاً أخضر على طاقبه  
ووقف يتطلع إلى رأس ماله... مؤيديه الذين التهبت حناجرهم بالتكبير  
والتهليل... لكن ذهنه كما الأستاذ عبد الحميد كان معلقاً بالغيطان.  
حيث سعيد الرفاعي.



### (٣)

نادراً ما تهطل الأمطار صيفاً في المحروسة، إلا أن ذلك اليوم كان استثناءً... فتحت السماء، التي تحولت إلى لون رمادي قابض، أبوابها لتهتمر المياه على باب الحجازي... كأنما تتعمد تحدي الفلاحين لثبث سيطرتها على حياتهم بوضع قطرات من المياه... آوى الرجال على غير مادتهم إلى البيوت وأصبحت الطرقات خالية، لا يقطع صمتها سوى صوت المطر الذي كوّن برزخاً موحلة كبيرة.

بعيداً عن الدور المغلقة أخذ الزرع في الغيطان في الاهتزاز مع الرياح في تناغم... كأنما يرقص على إيقاعه الخاص... دفع المطر جمعاً من الأطفال لفض نزاعهم على توزيع الفاكهة المسروقة وسارعوا بالعودة إلى الدور... على بعد أمتار قليلة من موقعهم كان سعيد الرفاعي مستلقياً في وسط الزرع... بلا سقف يقيه المطر ولا دار يسرع إليها ليحتمي في كنف أهله... تكور حول الصندوق المخملي يحميه من ماء المطر... تمنى أن

تغله تلك القطرات الطاهرة، حديثة العهد بالسماء، من آثامه... أن تغل،  
يديه التي جنت على القرية وعلى زينب... ظل المطر يهطل حتى غرغ  
الشمس... وظل هو بلا حراك تحته.

علق وجه زينب بذهته... لم يكن يحاول صرفه رافة بنفسه... يتعاه  
بكل تفاصيله، يحضرها في ثنايا ذاكرته كي لا يفقدها... ذلك الـ...  
الملائكي الجميل الذي جلب له تلك النهاية التعيسة... في بعض الليالي  
يسمع صراخها يأتيه من جهة المقابر فينكمش على نفسه ويكي... حينها  
يجد نفسه يبحث عن يلقى عليه الذنب... الأهالي الذين لم يقفوا في  
وجه الإمام... أخوه الذي غض البصر عما يحدث لأخته كي ينقذ نفسه.  
لكنه كان يعود إلى نفسه في النهاية... هو من قتل زينب قبل أن ترحل  
عن حياتها البائسة... فيكي بحرقه أكبر... يتساءل لماذا لم يبت بسباً  
كمن حوله بلا أحلام كبرئ تدفعه للبحث عن المجهول الذي لم يجلب  
له ولاهله سوى المتاعب... وهل لهذه الرحلة من نهاية وهل لذلك البحر  
من قرار أم قُدّر له الفرق في أفكاره.

بحلول الظلام حاول سعيد التثبيت باليقظة هزباً من الأهوال التي يراها  
في منامه... وذلك الحلم الذي أصبح لا يفارقه، يرى نفسه محمولا على  
الأعناق، يسرع به من يحملونه وقد وُضِعَ في ذلك الصندوق الأخضر  
البيض فلا يستطيع الحراك... الناس في صمتٍ مطبق كأنما لا يجدون ما  
يقال في موته، لا أحد يبكيه أو يترحم عليه، يحاول أن يصرخ فيأبى صوته  
أن يخرج... إلى أن ألقوه في المقبرة وأهالوا عليه التراب في عجلة من  
يريد أن يتخلص من مهمة ثقيلة... ورحلوا... اكتشف أنه دفن إلى جوار  
زينب... حياً... يراها إلى جانبه مغمضة العينين ووجهها مستريح بينما  
يتملكه هو الرعب... العتمة حالكة إلا من ضوء ضعيف ينبعث من دود  
القبر الذي أخذ يقترب منه في ثبات... يحاول الهرب بكل قوته... لكن

الكفن اللعين يقيده ويقيه في مكانه بينما الدود يقترب في ببطء... يصدر  
محيًا كالحيات... يتوعد به بأن ينهش لحمه ويأتي على عظامه... يحاول  
أن يستغيث بزئب فلا يتحرك لسانه اللعين.

أسند رأسه إلى الصندوق المخملي الذي أصبح بلون التراب... لم  
بعد هناك ثوابت في عالمه، يحيا من أجل شيء واحد فقط... القضاء على  
الإمام... لم يعد هناك ما يحركه أو يدفعه للبقاء حيًا سوى رؤية وجهه وقد  
فارقته الحياة... بداخله هموم لا تنكسر ولا يشفيها سوى الخلاص... فقد  
كل شيء طعمه وسيطرت عليه أفكار سوداء تدور جميعًا حول الموت  
بعد أن أدرك أنه يعيش مأساة بلا أي معنى... لم يعد قادرًا على المزيد من  
الكذب على نفسه ليكسب مأساته معانٍ عميقة تساعده على تبرير حدوثها  
فيتعاش معها... لا حكمة كبرى ولا مخططًا عظيمًا ولا درس مستفاد  
منها سوى الطمع الذي يحكم حياة البشر.

مع انتصاف الليل تسلل سعيد الرفاعي إلى طرقات باب الحجازي  
الفارغة، قاصدًا دار الإمام... قبع أمامها يراقب الضوء الخافت المتسلل  
من الداخل... ظل جامدًا في مكانه إلى أن أطفئ النور فنهض واقترب من  
الدار في خفة... كان أحد الفواعلية قد غط في سبات عميق أمام باب الدار  
المنخفض... اقترب أكثر حتى التصق بالنافذة... هُيء له أنه يسمع أنفاس  
الإمام الراقد خلفها... لمس أحد القضبان الحديدية المحيطة بالنافذة  
وحاول انتزاعه دون إحداث جلبة، لكن القضيب العنيد بقي راسخًا في  
موضعه... عندها سمع سعيد صوتًا من الداخل... صوت أقدام تتعد في  
هدوء حذر قبل أن يصدر باب ما صريرًا مزعجًا... لا بد أنه أيقظ الإمام...  
أدار ظهره وأخذ يتعد في هدوء... فجأة خرج ثلاث من الفواعلية من  
داخل الدار يحملون بأيديهم مصابيح الكيروسين.

## اقف يا ابن الهرمة

أخذ سعيد يقطع الطرقات... يركض حتى كادت أنفاسه تنقطع يلهث بينما الصراخ يتكاثر ويقترب منه... حتى أصبح خارج القرية... الغيطان تطارده الكلوبات وأصوات الرجال... ركض بمحاذاة الترهه بكل ما أوتي من قوة... برغم الظلام الدامس إلا أنه يحفظ الطريق... ظهر قلب... الأنوار تقترب منه في عناد قاهر... لم يتبه لذلك الحبح الذي اصطلمت به قدمه فإذا به يسقط في الترعَة... حاول التثبيت بأي شيء وهو يهوي بلا جدوى حتى صكه الماء البارد وعزله عن الأصوات التي كانت تبسه... كتم سعيد أنفاسه وشاهد الأضواء تعبر من فوقه بعد أن أحاطه الماء المعكر وفصله عن العالم كرحلة في رحم أمه من جديد... يحميه الغرباء ومن يريدون به شرًا... خرج أخيرًا يلهث تَمزق رثاه بحنًا عن الهواء بعد أن ابتعد الفواعلية... برغم الظلام وبرغم الموقف الغريب وقف سعيد يبكي في مياه الترعَة الملوثة... لا يدري لم يبكي... بداخل نفسه شحنة رهية كادت أن تقضي عليه وكان لا بد لها من مخرج... حمته الترعَة التي حملها كل معاني الموت والشر والقهر ممن يريد أن يقتنص روحه... لا يدري كم لبث يبكي تختلط دموعه بمياه الترعَة... لكنه عندما فرغ أحس براحة عجيبة ورغبة ملححة في النوم... عندما استلقى تلك الليلة في الزرع بعد أن تأكد من عودة الفواعلية كانت ابتسامة عذبة تعانق شفثيه.

أيقظته اليوم التالي شمس الظهيرة... لا بد أنه لم ينم بمثل ذلك العمق منذ سنوات... ما أن أفاق حتى تسللت إلى أنفه رائحة محببة فاستند إلى ذراعه وحمى عينيه بكفه من الشمس... بجواره كان يوجد صحن ثريد لازال يتصاعد منه البخار فقفز كالمسوع من مكانه وتلفت حوله فلم يجد أحدًا... لا بد أنه غط في النوم ولم يشعر بمن وضع ذلك الثريد بجواره... لم يدري بما يجب أن يشعر... أعليه أن يهرب أم أن وجود الطعام كان دليلًا

ءان عدم الحاجة إلى ذلك... لكن ما لم يكن يستطع تجاهل الشعور به  
ءر تلك اللحظة هو الجوع فجلس وأخذ ينهل من الصحن في نهم...  
ءا ما فرغ من الصحن وذهب عنه جوعه راح يفكر في حصاد الزرع الذي  
صار على الأبرءا حينها تصبح الغيطان مساحة واسعة مكشوفة لا  
صلح لبتخفى بها... كان عليه إعادة المحاولة للخلاص من الإمام في  
أقرب فرصة مهما كلفه الأمر.

## (٤)

لم يستغرب جمال خطاب جموع السائلين الذين ملأوا المنذرة في آخر أيام العزاء... فكما يقال، الفقر قرين الكفر... لم تكن باب الحجازي أفضل حالاً من باقي أقطار المحروسة... تعيش القرية على ذكرى أمجاد غابرة حين كان المقام قبلة لأغنياء المجتمع... وكلما ازدادت حدة المحنة والظروف التي يمر بها أهل باب الحجازي تزداد الأجساد نحولة والقلوب قسوة في بلد بدأ أنها في مهمة مقدسة للقضاء على أهلها... عم الفقر وتراكت الديون على الجميع مما اضطر الكثير من الشباب إلى السفر إلى العراق والأردن للعمل... والبعض الآخر وفر له الإمام عقود عمل في دول الخليج وصار يعود على أهلهم بعض الدخل الجيد... يعيشون على أمل سداد ديونهم والإبقاء على قرشين لشراء قطعة أرض صغيرة أو استثمار عوائد الغربة في محراث زراعي يؤجر للفلاحين... لكن السواد الأعظم من أبناء القرية كان يرزح تحت أعباء الفقر.

شُغِلَ جمال خطاب ذلك الصباح بمتابعة تفاصيل ما قصه عليه الأستاذ  
مبد الحميد غلام بخصوص واقعة الأمس

زي ما بقولك كده... صاحبك قاعد في داره مرعوب... والفواعلية  
ركباهم الشياطين من ساعتها... دايرين في الغيطان يدوروا على  
سعيد

اقترب منه في تلك اللحظة رجل هرم، عبت بوجهه الأسمر شبكة من  
التجاعيد حتى أخفت معالمه، لم ينتظر جمال سماع الرجل ودس في يده  
نصف جنيه... لم يصدق العجوز عينيه وأخذ يتمتم له بالدعاء

طيب احنا عايزين نساعد... مينفعش نسيه في الطل كده... لو  
معرفة يشكوه النهارده حيمسكوه بكرة  
انتبه الأستاذ عبد الحميد واعتدل في مجلسه

نعمل إيه طيب

ممكن نوفرله مكان يدارئ فيه... بس المهم مناقش في الصورة...  
في الدرئ كده... لازم يفضل ينقص على البهيم الثاني لحد ما يهل  
المولد والباب يرجع

صرف الأستاذ عبد الحميد كلامه بحركة من يده وعاد للاسترخاء

يرجع إيه بس... انت بتصدق الكلام اللي الناس بتصبر بيه نفسها  
على البلاوي اللي عيشنها... الباب راح وراحت أيامه ويا عالم  
يكون فين... ده إذا مكنتش اتباع لخواجات من بلاد بره وزمانهم  
عارضينه في متحف من متاحفهم

ابسم جمال خطاب قبل أن تقترب امرأة منه فالتفت إليها وأعطاهما ما  
فيه النصيب

ربنا يفتحها في وشك يا أمير يا ابن الأُمرا

عند انتهاء تلك الدعوة وقف جمال خطاب وقد اتسعت ابتسامه  
للترحاب بالمأمور.

البقاء لله يا جمال بيه... ربنا يجعلها آخر الأجزاء

جلس المأمور وبعض الضباط المرافقين بجوار جمال... عندما انتهت  
الشيخ من ترتيل القرآن مال المأمور على أذنه وهمس

ربيت لك صاحبك... كان طالع من المركز قفاه يقمر عيش...  
كله ماشي زي ما انت عايز يا جمال بيه... الوالد الله يرحمه كانت  
أفضاله مغرقاني وما ينسى الفضل إلا قليل الأصل... بس الوالد  
كان صبره طويل... أنا كان رأيي من زمان نوديه ورا الشمس  
ونخلص

ربت جمال على كتف المأمور

مكنش ينفع وقتها يا سعادة المأمور... الناس كان لازم تدوق سمه  
علشان يكفروا بيه... النهارده الناس هم اللي عايزين يخلصوا منه  
مش احنا بس

تلك الليلة بعد انصراف المأمور مع باقي المعزين أضاءت ليل  
الحجازي النيران التي راحت تلتهم الدور المتلاصقة الواحدة تلو  
الأخرى... يساهم الحطب والتبن الذي يغطي الأسقف في انتشارها...  
استمات الرجال في إخراج الأهالي والعجائز من الدور قبل أن يأكلهم  
اللهب... تصاعد الهرج والمرج واستبد التوتر بالنفوس مع استفحال  
النار... رائحة تزكم الأنوف تبعث من كل الشايات... أطفال يتحلقون حول  
مكان الحريق في ذهول... فيما ارتفع بكاء وعويل النساء المتناثرات بين



الأمّعة هنا وهناك... أنفاس لاهثة ونظرات زائغة مصوبة نحو أعمدة الدخان التي انطلقت نحو السماء فحجبت نور القمر... أخذت صفائح الماء تنقل بين الأيادي المرتبكة في الأزقة الضيقة... تعارك ألسنة اللهب التي تأبى الاستسلام.

انتشر الخبر بسرعة في كافة أنحاء القرية وتناثرت الحاجيات التي يتم إنقاذها من الدور في الطرقات مع المحاولات المستميتة لمنع انتشار النار... تضاربت الشهادات التي أشار معظمها إلى أن النار بدأت من مندرة سيد خطاب... فيما راح بعضهم ينوح بأن ذلك عقاب تركهم النار تأكل مقام سيدي الحجازي... كان الإمام في الجامع وسط أتباعه عندما جاءه ذلك الشاب ومال عليه وأسر له بشيء ما.

### جمع كل الرجالة والشباب هنا

هكذا قال الإمام بتوتر واضح فانطلق الشاب يجمع الفواعلية... دقائق وقاض جامع الحجازي بالرجال حتى ملأ الشارع أمامه... فأخذهم الإمام جمعًا واختار أطول الطرق إلى موطن النار، يقطع أطول مسافة ممكنة من الشوارع يستعرض عزوته... خلع الإمام جلبابه وأخذ يسعى في نقل الماء من الطرمبات المجاورة تارة ويساعد في إطفاء النيران مع الرجال تارة ويهدئ من روع الأطفال تارة أخرى.

بعد قتال مرير دام الليل بطوله تمكن أبناء القرية من إخماد النيران التي أتت على كل ما لامسته ألسنتها... لتبقى النار ملتهبة في الصدور... أتت النار على مندرة سيد خطاب وسبعة عشر دارًا مجاورة لها، بقي أهلها مشردين في الشوارع ينظرون إلى الدور المتفحمة في ذهول... عاد الإمام مع رجاله الذين رابط بعضهم حول الدار فيما اختلج هو ببعض الشباب

في صحن الدار الذي أضيء بمصابيح الكيروسين

لا ينبغي أن نعطي الدنية في ديتنا... لازم الكل يعرف إن أي حاجة من ريحة سيد خطاب ملهاش مكان في البلد... ودي رسالة لازم توصل الكل... في ناس ميفهومش غير لغة القوة... في نفس الوقت لازم نقبض على سعيد الأخرس... نخليه عبرة... نضرب المربوط فيخاف السايب

هكذا قال الإمام فأمن الشباب على قوله في حماس وتعددت الوعود بقرب سقوطه... ما لم يكن يدركه الإمام في تلك اللحظة هو أن سعيد شخصياً كان يستمع إلى حديثهم في لا مبالاة تامة... كان جامداً كالحجر تحت السرير في غرفة الإمام... لا يند عنه صوت أو حركة كي لا يتبه إليه من يتأرون عليه بحوش نفس الدار... لم يعد يفصله عن رقبة الإمام سوى بضعة خطوات... يذل مجهوداً مضاعفاً لمقاومة تلك الرغبة الملحة في القيام والفتك به في الترو والملاحظة.

لم يكن من طبع سعيد الرفاعي التسرع، هو ككل الفلاحين فضيلته الصبر... إلا أن الهرج والمرج الذي استشرى الليلة في القرية كان فرصة لن تتكرر للتسلل إلى دار الإمام بينما الجميع مشغولون في إطفاء النيران... لم يكن يملك رفاهية التأجيل... قريباً لن يصبح له ملجأ في غيطان القرية... كما أنه تعلم من فشله الأول بعدم جدوى محاولة اقتحام دار الإمام وهو بداخلها، الفواعلية يحيطونها جيداً ولا مجال للمناورة... لذا ما أن أضاءت سماء القرية بالنيران حتى أخرج الخرقة التي أصبحت لا تغادره ودسها في جليابه بعد أن دفن الصندوق في الأرض، ثم تحرك في حذر... خرج من مخبئه في الغيطان وسار بحذئ التريعة التي أصبحت صديقه الوحيدة، إلى أن وصل إلى مشارف القرية... تجنب الطرقات

الواسعة حتى ارتقى جدار دار ملاصقة لدار الإمام وأصبح فوق السطح...  
قفز منه إلى دار الإمام وظل ساكناً حتى اطمأن أن الدار خالية تماماً فهبط  
السلم الطيني إلى الحوش ومنه إلى غرفته وظل قابلاً تحت سرير الإمام،  
يقتله انتظار عودته.

ظل الإمام في مناقشات طويلة مع من تبقى من فواعليته... مع من كان  
يعددهم سعيد أخوته بالأمس القريب... بُهت سعيد عندما أخبر الإمام من  
معه بكل فخر أن الشيخ محمود قطب يقرأهم جميعاً السلام ويخبرهم أن  
حريق دوار سيد خطاب ما هو إلا مجرد بداية، فارتفعت بعض الأصوات  
بالتكبير... بينما راح الإمام يؤكد أنه لن يدع جمال خطاب وأذنان أبيه  
يهنأوا وأنه سيجعل القرية مقبرتهم... لن يتركهم يعودوا لاستغلال فقر  
الأهالي لزراع مكان لهم في نفس الأرض التي اقتلعتهم من قريب... وراح  
يؤكد أن سيد خطاب قبل موته، وجمال من بعده، كانوا على اتصال مع  
المأمور للتآمر معه بافتعال المشاكل لتضييق حياة أهل القرية حتى اختق  
البشر... قال أنهم السبب في قطع السجاد، وفحش البحار... وختم بقوله

ابن الهرمة له في كل خرابة عفريت

ظل سعيد يسترجع كلمات الإمام في ظلمة الغرفة لا يكاد يصدق  
أذنيه... الشيخ محمود هو من أحرق القرية... أكان سيقبل تبرير شيخه  
بأن أخوته الأطفال وأمه سيعثون على نياتهم إن أحرقتهم ناره وهم نيام...  
هل كان سيقنع حينها بوصفهم ضحايا لحرب مقدسة من أجل إعلاء راية  
الإسلام... آه، كم كان ساذجاً عندما اقتاده ذلك الشيخ الملعون كالبيهمة  
في حربه المقدسة على كل من يخالفه الرأي والرؤيا... قطع تسلسل  
أفكاره صوت صرير باب الغرفة المزعج عندما فتحه الإمام الذي أقل بعد  
انصراف الفواعلية لحماية الدار... تصلب سعيد في مكانه وتابع خطوات

الرجل وهي تقترب منه حتى استقر فوق السرير... دقائق مرت كالدمر حتى انتظمت أنفاس الإمام وأصبحت أكثر عمقاً... الرجل راقد فوقه لا يفصله عن رقبته سوى القيامة من مخبئة، لن يسعفه هذه المرة الفواعلية.. سيكون أجهز عليه قبل أن ينطق.

في عتمة الغرفة، وقف سعيد إلى جوار قاتل توأمه، يسترجع ذلك اليوم الذي أتى به إلى دار أبيه ليخطب أخته، أه كم كان أعمى القلب والبصيرة... اختلطت في أذنه نبضات قلبه المتسارعة بأنفاس الإمام الخيثة... حاول أن يهدئ من روعه قليلاً، العرق يفرق وجهه وينساب على جليابه أنهاراً، أخرج الخرقة من ثنايا جليابه واعتصرها إلى جوار قلبه... التردد يكاد يصيبه بالشلل، شعر بشيء ينغزه في قلبه. هل سيصبح قاتلاً؟ هل انتهى به الأمر إلى ذلك. هل سيذهب عنه شعوره بالذنب حينها وهل سترضى عنه زينب إن فعل؟ وما الذي سيحل على القرية برحيل الإمام، هل سيسلمها من جديد إلى ابن سيد خطاب! كان يعلم أنه على وشك أن يحول الإمام إلى شهيد في أعين الفواعلية... لعن معضلة التي وقع فيها بين رضى الإمام وسندان ابن سيد خطاب، هذا يريد القضاء عليه وذلك يريد استغلاله.

سالت الدموع الحارة على وجتية في صمت حتى\* بللت فراش الإمام... يا الله، ما هذا العذاب. لا يدري ما الذي دفعه إلى اتخاذ ذلك القرار، أهى حرمة الدم، أهو عجزه عن إزهاق روح... أم هو الخوف الغريزي من القتل، لا يدري، لكنه وجد نفسه يسير بهدوء نحو الباب للخروج مخلقاً وراءه الرجل حياً يرزق... كان في حاجة إلى إعادة حساباته، إلى مزيد من الوقت... سقط قلبه بين قدميه عندما أطلق الباب ذلك الصرير الملعون وهو يفتحه... ما حدث بعد ذلك كان مزيجاً من أصوات متسارعة متراكبة لم يدركها سعيد في حينها... اخترق طبلة أذنه

هدير عظيم أدرك وهو يرتقي السلم الطيني أنه كان صريخ الإمام الذي استيقظ على صوت صرير الباب... عندما قطع ربيع المسافة التي تفصله عن السطح أدرك أن جزءاً من الهدير كان صوت باب الدار الذي اقتحمه الفواعلية... بينما الفحيح الذي تبعه كان مزيجاً من حفيف أقدام الفواعلية التي تبعه على السلم وسبابهم اللاهث.

عندما خرج الإمام من غرفته، كان شبح سعيد الذي يعدو نحو السطح جلياً للعيان تحت ضوء القمر فصرخ في اثنين من الفواعلية بكل ما يعمل في نفسه من توتر

امسكوه... ابن القحبة كان داخل يخلص عليا

## (٥)

أفاقت القرية من غفوتها في تلك الليلة التي تأبى أن تنتهي على ضجة المطاردة التي تتصاعد فوق أسطح الدور... ارتفع لهاث سعيد وهو يقفز بين الأسطح يتبعه الفواعلية يصرخون فيه ليتوقف... كان سعيد بين أيديهم... بعضهم يركض خلفه على الأسطح، بينما آخرون يتابعونه في الشارع في انتظار اللحظة التي يقرر فيها النزول... هبط سعيد جدار إحدى الدور وأخذ يركض حتى اضطره أحد الفواعلية الذي قطع عليه الطريق إلى اتخاذ زقاق ضيق... عندما دخل سعيد ذلك الزقاق، ابتم الفواعلية، وهدؤوا من ركضهم وتجمعوا قبل الهجوم على الزقاق المدود.

برغم ضياء القمر الذي أثار الزقاق إلا أنهم لم يبصروا سعيد... بحث الأعين في الأماكن القليلة التي تصلح للاختباء وقلبت الأيادي أكوام الأغراض التي تركت في الزقاق، حتى أنهم عبثوا بالأحجار... لكن بلا أثر لسعيد... كأنما سُقت الأرض وابتعلت... بدأ التوتر يفزوا أنامل

الفواعلية وخفقت قلوبهم في غضب... اقتحموا الدور الخمسة التي تكون الزقاق المسدود فارتفع عويل النساء اللاتي استيقظن على طرق الأبواب المحموم ثم اقتحمها... تشاجر الرجال معهم لكن ذلك لم يحل في النهاية من تفتيش الدور... بلا جدوى!

بينما الفواعلية يفتشون ويتشاجرون مع الرجال، كان سعيد يركض مع آدم السناري على سطح دار عمه، بعد أن التقطه الأخير سريعاً من الزقاق حينما بدت النهاية محتومة... ترن في أذنه كلمات امرأة عم آدم التي قالت بعصية أنها ستؤخر الفواعلية ريثما يتقل سعيد من سطح الدار إلى إحدى دور السناري المتلاصقة.

عندما هبط الشبحان إلى الدار التالية، كان أهلها قد استيقظوا بالفعل، وعندما تبينوا سعيد بصحبة آدم لم يكن هناك داع للشرح... ارتدئ رب الدار جلبابه في عجل وأشار إلى الباب

لازم نبعده عن هنا بسرعة، شوية والفواعلية حيفتشوا كل الدور اللي جنب دار عمك يا آدم... تعالني معايا

نسلت ثلاث ظلال في تلك الليلة القمراء، تخترق الطرقات الضيقة، في محاولة للابتعاد عن الضوضاء قدر المستطاع، حتى خفتت الأصوات في الأزقة الملتوية إلا من صوت أرجلهم... أشار آدم إلى دار مهالكة، وطرق بابها في هدوء حتى فتح الباب رجل أربعيني في ملابسه الداخلية، لم يطل الحديث كثيراً حتى استوعب الرجل المطلوب منه.

عندما اختلى سعيد بأهل الدار، كان لا يدري بما يشعر، بفرحة النجاة أم بالخوف من الآتي، عليه وعلى مضيئه... قلمت له المرأة جلباباً نظيفاً وأعدت له وجبة ساخنة، ثم اصطحبت من استيقظ من العيال إلى الغرفة المجاورة، تتوعدهم إن هم أخبروا أي شخص بما رأوا، بينما ظل

الرجل يتابع سعيد الذي أخذ يأكل في صمت، قبل أن يقوم إلى إحدى الغرف... عندما عاد الرجل كان يحمل ورقة مطوية وضعها أمام سعيد وابتسم... عندما رفع سعيد عينه من الصحن رأى نقوش الباب التي نقلها من الذاكرة تطالعه من الورقة التي أصبحت مهترأة... تلك الكلمات الغريبة التي أصبحت تعني له كل شيء... التقط الورقة وطالعتها ثم ابتسم للرجل... حينها فقط تغلب عليه الشعور بالفرحة.

عاد الفواعلية لتفتيش الدور مع شروق الشمس التي حجبت أشعتها سحابة كثيفة من بقايا دخان الأمس غطت باب الحجازي... فقد الفواعلية صوابهم، ضيق اثنان منهم على أم سعيد... أصبحوا لا يرحون الدار، يتابعون كل حركاتها ويبعدون الزوار عنها، كما أصبح العث بالدور عشوائياً، وبناء على وشايات لا أساس لها سوى أحقاد الجيرة... يقتحمون الدور، يتوعدون الرجال وينهرون النساء إن أبدين تلمزاً... إلى أن تكاثر الأهالي على ثلاثة منهم وأشبعوهم ضرباً وأخرجوا ما بنفوسهم من غل... منذ ذلك الحين لم يعد الفواعلية يتحركون إلا في جماعات، مع عصبة من شباب ميت الشوكة، كما أصبح ضرب من يشك في تورطه في إخفاء سعيد اعتيادياً، حتى أنهم اقتادوا واحداً من الأهالي، عثر في داره على تلك الورقة التي أصبحت كبيرة من الكبائر، اقتادوه إلى الساحة وتم ضربة أمام أعين الجميع، لكن ذلك لم يفض إلى أي نتيجة، لم يفت في عضد الأهالي الذين ازداد إصرارهم على حماية سعيد الذي أصبح يمثل كل آمالهم في الخلاص.

لم يتعرض سعيد لخيانة واحدة برغم تنقلاته العديدة بين الدور... كان الاحتفاء القليل هو السمة المشتركة في جميع الوجوه التي أضاءت لوقوع شرف الاختيار عليها للإبقاء على أمل البلدة حياً... البعض حاول التعرف منه عن خطته للخلاص من الإمام، حاولوا استنطاقه عما سيفعله معه،



والسؤال الأهم هو عن الباب، أين أخفاه وكيف سيعبده إلى مكانه، وهو هو علي اتصال بالشيخ عبد الكريم... لأول مرة يشعر سعيد بالرضا عن نقل لسانه الذي كان يتقذه عادة من سيل الأسئلة المنهمر.

كانت عادة سعيد ألا يبيت في دار واحدة أكثر من ليلة، يختارها له آدم... صباح ذلك اليوم، حل سعيد علي دار المحمدي... وهو من الفلاحين الذين فقدوا عملهم في أرض سيد خطاب، رجل طويل جرم، ذو شارب كث. يكره الإمام كالموت... جلس يدخن سجائره الرديئة التي يشتريها بالأجل ولا يسدد ثمنها، يخبر سعيد كم يتمنى أن يساعده في الخلاص من الإمام، ذلك الشيطان الملتحف بعبادة الدين كما وصفه المحمدي... أخذ نفساً من سيجارته وزفره قبل أن يقول

أنا من القليلين في البلد الخرابانة دي اللي مخلص عليهم كلامه... الناس قعدوا يقولولك ده بتاع ربنا، وجه يخلصنا من الحرام اللي سيد خطاب غرق البلد فيه... بص حوليك دلوقتي، تبيع لحملك ولا تبيع عرضك، والله انت راجل يا سعيد واحنا مكناش عارفين مقامك... ومسيرك تخلصنا منه وتاخذ بتار أختك، واحنا في ضهرك

استرسل المحمدي في وصف كم يتمنى أن يخلص عليه بيديه العاريتين... قص علي سعيد المآسي التي شهدتها أسرته منذ أن فقد عمله في أرض سيد خطاب، يلعن الإمام في نهاية كل جملة. وهو لا يدري أن الفضل الأكبر في رحيل سيد خطاب يرجع إلى ضيفه.

علي الأقل كان في أصول أيام سيد خطاب... مكش في حد بيضرب في الشارع ولا كان في فواعلية طايحين في الخلق

لم يجادله سعيد، لم يشأ أن يحول الساعات القليلة التي سيقيضها بداره

إلى ذلك الجدل العقيم بتذكرته بظلم سيد خطاب ويطش رجاله بالناس  
بلا رادع... المحمدي كغيره من أبناء القرية قنعوا بالقليل حتى نسوا أن  
هنالك ما هو أكبر من الفتات الذي كان يلقيه لهم سيد خطاب والإمام من  
بعده كي يحلموا به.

أنهى المحمدي سيجارته ونهض ليركه وحيداً، خلال ذلك اليوم  
انتابت سعيد مشاعر متراكبه... عايش ضيق الحال الذي جره رحيل سيد  
خطاب على البلده، ممثلاً في البؤس المقيم بالدار، سوء التغذية البادي  
على الأطفال العراة وغرفة الخزين الخالية، والطبليه التي لا تكسي سوى  
بأرغفة قليلة من خبز الذرة، حتى الحبال التي تتلنى من الجدار أصبحت  
خالية من البصل والثوم... لكن كان على الجميع تحمل المشقة كي  
يصلوا إلى ما هو أفضل من الواقع البائس. لم صبرت باب الحجازي على  
الظلم وضيق الحال من قبل، حينما لم يكن له معنى وبلا غاية ترتجى، ولا  
يطيقون الصبر الآن مع وجود أمل في غد أفضل.

في المساء أحس سعيد بالقلق، كان راقداً على فرشته عندما أدرك أن  
المحمدي يتشاجر مع امرأته. اضطرب سعيد، لم يكن يريد إثارة قلاقل  
بسبب وجوده... لم يتبين شيئاً من صوت المحمدي المنخفض، بينما  
يصله أطراف من حديث امرأته الغاضب

يا لهوي... الناس حتاكل وشنا... إلا... يخرب بيتهم

همس المحمدي من جديد بشيء ما لا يميز فعاد صوت امرأته يرتفع

مش دول اللي خربوا... تحط إيديك... خطاب...

توترت عضلات سعيد وانتصب من على فرشته... اقترب أكثر من  
الباب حتى تبين صوت المحمدي يهمس

القرشين دول يدوا جوع العيال يا ولية يا خرفانة

اعقل يا راجل وخرج الطمع من قلبك ينحل القيد من رجلك...  
الحرام ميلمش

قفز سعيد عائداً إلى فرشته، استخرج الخرقه الصوفية من تحتها وهرع  
إلى باب الدار، لم يكن بحاجة إلى سماع المزيد ليعرف أن المحمدي قد  
باعه... ما أن فتح الباب حتى وجد العشرات من الفواعلية في انتظاره،  
تعلو وجوههم ابتسامة حملت شماعة الانتصار.

## (٦)

صباح اليوم التالي، عندما انتشر خبر وقوع سعيد في براثن الإمام وفواعليته، كمت القرية أنفاسها، أو لعلها فقدت القدرة على التنفس مع تبخر الأمل في العودة إلى حياتها الطبيعية. ذلك الأمل الذي ولد باهتزاز أركان عرش الإمام بعد ظهور سعيد الذي نزع عنه هالة القدسية التي حاول إضفاؤها على ذاته... ثم راح الأمل يتعاطم بتدخل المأمور والقبض على الفواعلية... ليواد على حين غرة بسقوط سعيد.

هرول الأستاذ عبد الحميد علام إلى دار جمال خطاب التي انتقل إليها بعد احتراق مندرة أبيه، كان الخبر قد وصل إليه بالفعل فجلس الرجل يلتقط أنفاسه المتسارعة من التوتر

يقولوا أنه ناوي يخلص على سعيد... لازم نتصرف يا جمال  
بيه...

كان هدوء جمال شديداً، يكاد يصل إلى البرود وهو يجيبه

ارتفع حاجبا الأستاذ عبد الحميد

ليه إيه الناس روحها حتطلع... كون سعيد وقع ده ده يقضي على  
كل حاجة إحنا عايزنها... بعد ما كانوا صدقوا أن البلوة ده حيتراح  
وأن الباب حيرجع... كل ده حيروح... انت لو اتدخلت دلوقتي  
حتبقئ في عين الناس أبو زيد الهلالي

ابتسم جمال وقال

أنا لو اتدخلت دلوقتي حبقئ في وش الغبي ده... أما لو سته يعمل  
اللي في دماغه مع سعيد حيقئ هو في وش الناس كلها... كل  
واحد له شيطان، وشيطان الحيوان ده نفسه... كل اللي علينا إنا  
نسييله الحمل على الغارب وهو حيشق نفسه بيه... زي ما عمل  
معاه أبويا الله يرحمه... أنا حسيه يقتل نفسه بغبائه... ولما الناس  
تاكله بسانها آجي انا وألم الغجر بتوعه من غير ما حد يزعل عليهم  
وساعتها أبقي أبو زيد الهلالي بجد

انعقد حاجبا الأستاذ عبد الحميد في تفكير عميق بينما بعث جمال  
في طلب الشاي... راح يقنع الأستاذ عبد الحميد بهدوء أنه عندما تسود  
الفوضى يأكل الناس في لحوم بعضهم البعض حتى يضج المجتمع  
المهترئ ويبحث عن أي نظام يوفر له مطالبه الأساسية أيًا كان الثمن...  
حينها سيطالبه الناس بل وترجونه للظهور على الساحة... وذلك هو ما  
سعى إليه ووفره له الإمام بغبائه.

بحلول الظهيرة، وتحت وطأة القيق الضاغط على القرية المنهكة اقتيد  
سعيد وقد رُبط ساعده أمامه... لم تكن القرية، باستثناء تلك الدور التي  
استضافته الأيام الفائتة، قد رآته منذ أن طردته أمه من الدار، تغير سعيد

أيما تغيير، صار هزياً، ضعيفاً، مشعث الشعر زائغ النظرات وقد نمت  
لحيته بلا تهذيب... سار بدفع أحد الفواعلية الذين أحاطوا به من جميع  
الجهات ليحولوا دون وصول أي من الأهالي إليه... شعر سعيد أن  
الشارع المنحدر يساهم بدوره ليلقي به إلى قدره... لكن حلقة الفواعلية  
التي تحبب به لم تمنع فلاحاً هزياً من القفز بين الصفوف حتى وصل إلى  
سعيد وانحنى على قدميه ليعطيه نعله عندما أبصره حافياً... قبض أحد  
الفواعلية على طرف جلباب الفلاح وجذبه فتمزق، قبل أن يدفعه بعيداً  
عن الطريق وهو يسبه بينما دفع آخر سعيد من جديد بقسوة كأنما يعاقبه  
على تعاطف الرجل معه فسقط على وجهه... سارعت إحدى الفتيات  
إليه ومسحت عن وجهه التراب وابتسمت في وجهه فبالها سعيد ابتسامة  
واهنة قبل أن يسقط عليها الفواعلية بالعصي... ارتفعت احتجاجات  
الجمع، وجاء صوت من الخلف يقول في انكار

### أبدان مسلطة على أبدان

وصل الجمع، الذي يزداد مع كل خطوة حتى بدا أن القرية قد تجمعت  
عن بكرة أبيها، إلى ساحة الباب التي غطتها سحابة من الغبار بفعل  
الأقدام... أحاط الفواعلية بسعيد وحلوا دون اقتراب أحد منه، يحذرون  
الجميع ويتوعدونهم إن هم تجرأوا على المساعدة أو حتى مجرد  
الاعتراض... وقف القاضي الشرعي الذي تتوسط علامة صلاة عملاقة  
جبهته بين ذلك الجمع المهيب يحمل ورقة صفراء أخذت ترتعش في  
يديه... أخذ نفساً قبل أن يقرأ منها بصوت عال

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله... يقول رسول الله  
صلى الله عليه وسلم: لحدٌ يقام في الأرض خير لأهلها من أن  
يمطروا أربعين صباحاً... أو كما قال رسول الله... كما روي في  
الأثر عن سلفنا الصالح أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -

ضرب شاهد الزور أربعين سوطاً وسخّم وجهه وطاف به المدينة  
أخذ الهرج والمرج يزيد بين الحضور ذوي العيون المذعورة فأعمل  
الفواعلية المتوترون العصي في أجساد بعض الحضور، بينما مال أحدهم  
على أذن القاضي الشرعي يستحنه على الاختصار، فأكمل الرجل في  
عجالة

وعليه فقد قضت المحكمة الشرعية بكفر ترمّا بجلد المجرم سعيد  
الرفاعي ٣٠٠ جلدة تعزيراً على ثلاثة أيام... وذلك لاستحلال  
ما حرم الله تعالى، فقد قام المجرم بنقب الدار وانتهك حرمتها  
وعقد النية على القتل... وذلك فيه إضرار بالمصلحة الشخصية  
والمصلحة العامة... وصلّ اللهم على نبينا محمد وآله وصحبه  
اجمعين

اتسعت عينا سعيد من الدهشة والذعر، قبل أن تنهمر دموعه... كان  
سعيد مذهولاً بينما أخوانه، الذين تخيل يوماً أنه يرى معهم الإسلام يشرق  
على باب الحجازي... أخوانه الذين ابتلت لحاهم سوطاً من أثر البكاء  
من خشية الله، يقضون عليه ويقيدونه بتلك القسوة... ظل مذهولاً بينما  
يتلى عليه قرار اللجنة الشرعية التي ساعد في بنائها لتحكم على الفاسقين،  
أعداء الإسلام، فإذا بها تحكم عليه اليوم - بالآيات والأحاديث الصحيحة  
- أنه مجرم.

أخذ سعيد يصرخ عندما انهالت الجلدات على جسده المنهك، بينما  
أحد الفواعلية عريض القفا مشغول بعد الجلدات... ناحت كل خلية في  
جسده المأ... كأنما ينبع الألم من داخله، أخرج الفواعلية غلهم وخوفهم  
من الغد في جسده الضعيف من أثر سوء التغذية والنوم بالعراء لشهور...  
حاول أن يقن على ركبته رافعاً رأسه لكن هُجوم السوط، المستورد

خصيصاً من ميت الشوكة، والألم جعله يحاول الابتعاد غريزياً فسقط  
على وجهه... لم يتوقف الشاب الممسك بالسوط راقفة به... لم يخفف  
من حدة الضربات... لم يباعد بينها كي يلتقط أنفاسه... بل تابع الجلد  
كأنما سقوط سعيد كان إعلاناً بكفائه كجلاد، بينما أخذ آخر يصيح فيما  
يشبه النشوة "تعة"

دفع المحمدي الجموع حتى وصل إلى منتصف الدائرة وانحنى بجوار  
سعيد الذي كان يجاهد ليلتقط أنفاسه وخلع جلبابه الرخيص وطاقته

يا اخونا ده مش حيتحمل... ده جلد على عضم... حرام  
عليكم... أنا حكمل بداله

دفعه أحد الفواعلية بقلمه فسقط أرضاً بينما جره آخرون خارج الدائرة

ربي عيالك أحسن يا محمدي

تشنج المحمدي وانهمرت الدموع من عينه

اللي بيحصل ده ميرضيش ربنا

قال الشاب بعصية

تعرف ايه عن ربنا انت يا حشاش... أنا خرجتك من جوه بالعافية،  
لو كانوا اتلموا عليك كانوا قتلوك... متقولش كلام يقصف  
عمرك... أنا بقول كده لصالحك وانت حر... متفتكرش علشان  
سلمته ده حيحميك من الضرب

في داخل الدائرة أكمل الجلاد مهمته وارتفع صوت الشاب المتشي

من جديد

عشرة... حداثر... اتناشر



يقطع ذلك التعداد التصاعدي صوت السوط وهو يشق الهواء يتلوه صوت ارتظامه ببقايا لحم سعيد وعظامه أينما اتفق.

تمرغ سعيد على بطنه من الألم وأخذ يشهق والدموع تسيل بحورًا من عينيه... بجانب الألم الذي لا يوصف قبض الحزن على قلبه حتى اعترضه فرغ وجهه إلى السماء... إلى الله... يلهث بالدعاء بلا ترتيب وبلا توقف... يشكو له مصابه وضعفه... ها هو في أقرب موضع حين اقترب من خالقه... حين أيقن متأخرًا أن المولى يهب كل من عباده طريقة للمتقرب إليه... لعن ذلك الهوس الذي أصابه بتطبيق طريقة حياة واحدة على الجميع وها هو يتجرع جزاءه بالسوط الذي جلبه إلى بلده... كان آخر رقم سمعه سعيد في تعداد الجلادات هو ثلاثون... بعده لم يعد يشعر بالألم... وفي تلك اللحظة، وبرغم السائل اللزج الذي أغرق ظهره، والذي تخور قواه كلما انسحب المزيد منه من جسده، أحس أن دونيته تنفسي عنه... شعر أنه يحلق في الملكوت... يا الله كم كان يفتقد ذلك الصفاء الروحي... لم يعد يستطيع السيطرة على هياج مشاعره فراح يشهق بقوة أكبر، يكاد يفرق في دموعه.

تبخر عنه الخوف والشعور بالخطر... شعر به ينسحب من جسده... وتركه مع تداخل الرؤى بالذكريات. رأى وجه أبيه وأخته زينب... شعر أنه على بعد خطوات منهم فاشتاق أن يقطعها سريعًا... تخلل إليه صوت السوط يزغق على ظهره، يصرخ بموته... صوت الرجل المنشغل بالعد أصبح بعيدًا... رأى وجه أمه وأخواته الصغار، لم يكن متأكدًا إن كان وهما أم أنه يراهم فعلاً، لكنها كانت وجوهًا مطمئنة، بعثت في نفسه مزيدًا من الراحة... عندما صدمته صرخة السوط التالية كان يرى المروج الخضراء الفيحة التي سمع عنها في حكايات أبيه قبل أن تنتشر الدور وتقضي عليها، رأى جلسات المساطب وغمرت أنفه رائحة الخبز الطازج

الخارج من الفرن... بدت له حياته البائسة ذكرى بعيدة كبعد الرحمة عن قلب جلاده... رأى أشعة الشمس الصفراء تستقبلها تربة سوداء يعزقها خاله في أرض سيد خطاب... سيد خطاب العائد في جلباب أبيض ثم تذكر الإمام... والباب... وجلسات السماع التي طالما هاجمها... إلا أن ألحانها راحت ترن في أذنيه كصوت بعيد خافت، صوت محب سمعه في المرات القليلة التي اصطحبه فيها أبوه إلى السمعانة... قبض على الخرقه التي مازالت في يده، الخرقه التي لوئتها الدماء والأتربة.

نظر سعيد إلى مكان الباب الفارغ... الرؤيا ضبابية إلا أنه يرى الإطار المحترق بوضوح... لكنه لم يجد الباب فزاد بكأوه... كطفل فقد أمه في الزحام بلا أمل في عودته إلى دفة كنفها... تتصارع بداخله الروايتان... الرواية التي تربى عليها حيث الحجازي هو ذلك العبد الصالح ذو الكرامات... والباب هو تلك الصلة بين العبد وربّه... نقاء وصفاء... ورواية الباشا لأخيه، حيث الحجازي لص والباب مسروق بلا أذن معنى... لا يدري لم تصارعت تلك الروايات في عقله الذي اجتاحت غمامة بيضاء غلفت كل ما يفكر به أو يراه... لعله صار يبحث عن معانٍ لحياته التي توشك على الانتهاء، لعلها سكرات الموت تعث بعقله وتشوش حواسه... هل هي حياة بلا معنى أكسبها القوم فلسفة فارغة بحكاويهم وأساطيرهم أم أنها حياة لغاية لها دلائل لا يغفل عنها سوى أعمى... حاول أن يصرف نظره عن الدم الذي أخذ يزحف على نسيج جلبابه الأبيض حتى وصل إلى كفه... بدا الصوت بعيداً... صوت من بشر سحيق... لكنه ميز اسمه... سعيد!

رفع عينه فوجد زين تجشو على ركبتيها وتبكي... لم يسمع بكاءها... الصوت بدا بعيداً إلا أن دموعها كانت تجري بلا توقف، تشير إلى الباب الذي عاد إلى مكانه الأول، في صدره تلك الكلمات التي لا يقدر على فك

طلاسيما... تلك الكلمات التي بها ملاذه لكنه لا يستطيع أن يدركه...  
حاول أن ينطق... أن يخبرها كم يفتقدها... أن يرجوها كي تسامحه، إلا  
أن لسانه كان ثقيلاً فاكتمى بابتسامة واهنة وضغط يدها ضغطة سرعان ما  
تراخت وأغمض عينيه.

## (٧)

كانت الأجواء لا تزال ملتهبة عندما عاد الإمام بعد صلاة الظهر من اليوم التالي إلى داره... الأمتعة لا تزال متناثرة في الطرقات والأزقة... النفوس لا زالت تستعر بلهيب الغضب الذي يتأجج في الصدور... ودماء سعيد الرفاعي لا تزال رطبة في الأرض... استعد الرجل للقيولة بعدما تناول الغداء مع رجاله المرابطين حول الدار... تسارعت دقات قلبه واستبد به التوتر عندما تصاعد الهرج والمرج خارج الدار فسارع بطلب تفقد الأمر من أحد الفواعلية... كان وجه الشاب لدئ عودته مهرولاً يقبض على طرف جلبابه كمن يحمل أنباء وقوع الواقعة... الأهالي يلتقطون الرجال كالجرذان من جحورهم والزحف في طريقه إلى الدار... هكذا أخبره الشاب ما بين أنفاسه اللاهثة ونظراته الزائغة.

استل الفواعلية الفؤوس والعصي واستعدوا للدفاع عن الدار حتى آخر نفس... ما الذي أجج ذلك الغضب على حين غرة وكيف لم يره

يأتي من قبل... أهر ما أصاب سعيد الملعون... هكذا راح يتساءل الإمام... لكن الوقت لم يكن يتسع للتساؤلات فأرسل شابًا إلى ميت الشوكة لطلب المدد من الشيخ محمود قطب ثم جلس بين أتباعه... يكاد يلمس اضطراب القلوب... أخذ يذكرهم بالثبات... يث في أنفسهم قوله تعالى كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ<sup>(١)</sup>... راح يذكرهم بالمؤامرة التي تنصب للإسلام باجشاش جذور الصحوة من القرية التي تلوث فطرة أهلها حتى ركنوا إلى عودة الماضي النجس ورفضوا مستقبلهم مع شرع الله.

ارتفع صوت أحدهم يقول

والعمل يا مولانا

آه لو يدري إجابة لذلك السؤال... لكن شابًا نحيلًا ضامر الوجه ذا شارب أصفر يدعى عطية أسعفه بقيامه بخطب في الشباب... يدعوهم للذود عن الإمام بأنفسهم بكلماته الحماسية وحركة جسده العصبية ويديه التي لا تهدأ... وسرعان ما قادمهم خارج الدار حيث تتمرسوا في الطريق ليكونوا صفًا في مواجهة الأهالي.

على بعد بضعة طرفات منهم، هرول كامل إلى جوار كلبه ليتقدم الجمع المتوجه إلى دار الإمام... يكفكف دموعه التي لم تجف منذ الأس... سار الجمع الضخم مخلفًا وراءه غبارًا كثيفًا في الطرقات

التي يقطعها صوب دار الإمام عاقداً العزم على اجتثاث جذوره من بلاد الأحياء... علا هياج النساء على أطراف الجمع، يتفنن أخيراً بالآهات التي ظلت حبيسة الصدور على فتياتهن المغتصابات من الكهول... يتبعهن شيوخ البلدة الذين لم يتقبلوا التغير الذي أقحم عليهم، توحدهم جميعاً رهبة الغد المجهول الآتي في عباءة الإمام.

تسلح بعض رجال سيد خطاب بالحجارة والعصي والقضبان الحديدية وانضموا إلى الجمع مع الرجال الذين خرج بعضهم في سراويله البيضاء القصيرة على عجل... ينمو العدد كلما مر بدار نلو الأخرى... ينمو بانضمام هؤلاء الذين لم يتحركوا عندما شاهدوا الظلم بأعينهم خوفاً من الفواعلية، لكن الجموع الغاضبة أذهبت عنهم الرهبة وشجعتهم على الانضمام، يراودهم الأمل في الخلاص الذي كاد يتبخر مع سقوط سعيد... بدا أن البلدة بأكملها تزحف على دار الإمام... ترتج الأرض تحت أقدامهم في زحفهم الحثيث.

ارتجفت قلوب الفواعلية الذين قطعوا الطريق عندما أبصروا العدد الممهول الهاجم على صفوفهم الضئيلة ذات الوجوه السمراء المتوترة... سارع كبار البلد باختراق الصفوف عندما أبصروا أولادهم وأقاربهم في مواجهتهم

ارجع ياد منك له... حتقف في وش أبوك وعمامك

بدا التردد على بعض الوجوه اليانعة... إلا أن عطية راح بصرخ فيهم، تهتر قائمته على إيقاع كلماته ويسيل العرق على وجهه

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق

هكذا راح يصيح بالصفوف المتأرجحة حتى فوجئ الجميع بسيل من الدماء ينهمر من رأسه بغزارة بعد أن شجه حجر سقط عليه من جهة

الأهالي الذين بدا أن صبرهم لن يدوم طويلاً... بدأ صف الفواعلية المتوتر في الترنح والتقهقر للخلف مع تقدم الأهالي بينما حُمِل عطية إلى الدار حيث يقبع الإمام.

عندما جاءه ذلك الطرق المدوي من الباب، وعد الإمام نفسه بالحفاظ على رباطة جأشه وهدوئه، خاصة أمام رجاله الذين ينظرون له بمشابة القدوة والمثل الأعلى... ويرغم محاولته الممتية للتظاهر بالشجاعة فقد أخذ جسده يرتعش بالكامل عندما تبين بصعوبة عطية الغارق في دمانه... رفع إصبعه إلى السماء في حركة لا شعورية وراح يردد بصوت جهوري " وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَكَّاءً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١)"

عندما أُلقي عطية على الحصيرة وهرع من يحملوه إلى ثنايا الدار بحثاً عما يوقفون به التزيف سقط بجواره الإمام يتخيل نفسه وقد وقع فريسة سهلة بلا مخالب في أيدي الأهالي... كادت الوسواس أن تفتك به فقام يسعى في حوش الدار يمته ويسرة كحبيس ينتظر تنفيذ حكم الإعدام ثم هرع إلى غرفته واستل فأس أبيه الذي لم يستعمله يوماً في حياته... وعد نفسه أنه لن يسقط حياً بين أيدي الملاعين ناكري الجميل... هبط قلبه بين قدميه من جديد عندما تصاعد طرق الباب مرة أخرى... لكنه فتح عندما أتاه صوت الشاب الذي بعث به إلى ميت الشوكة

فين الرجالة يا بني آدم؟

هكذا قال الإمام في لهفة لم يعد من المجدي أن ينسُر عليها

الشيخ محمود قطب الحكومة قبضت عليه ولموا الأخوة في ميت

الشوكة... البلد مقلوبة ويقولوا المركز في طريقه لنا... اللي  
متسكش هرب... المصيبة إن الناس ولاد القحبة بدل ما يقفوا  
في شهرنا شمتانين فينا

أصبح وجه الإمام باهتًا كوجوه الموتى وظهر تعب السهر والإعياء  
عليه فجأة... أخذ الشاب يعدد له الأسماء التي لم يقبض عليها والتي  
كانت تعد على أصابع اليد الواحدة ثم قال بصوت مرتعش

لازم تمشي يا مولانا من هنا بدل ما يخطفونا زي الفراخ المزنوقة  
في ركن واحد

عندما ارتقى الإمام سطح داره راح يتطلع إلى السماء الزرقاء... إلى  
طائرين متجاورين حلقا مبتعدين عن سماء القرية التي لازالت تحمل  
بعض آثار دخان حريق القرية... راح يتابع رحلتها في اللحاق بالشمس  
الهاربة إلى ما وراء الأفق... حوله تتناثر الظلال مع زحف الظلام بينما  
يصله عويل سيارات الشرطة تزعق بنهايته... كم يكره تلك الكائنات  
المحبة للظلام... كالظلال يزحفون في جنح الظلام يقتنصون البشر من  
دفع البيوت إلى برد الزنازين... لعن المأمور في خاطره وترك بصره يتيه  
في زرقة السماء... أدرك متأخرًا كيف تم التلاعب به... كيف انسحب  
الجميع تاركين له الساحة فارغة كي يفتر بقوته... كم كان مغفلاً عندما  
ارتكب نفس الأخطاء وغض النظر عن سخط الناس المتنامي... عندما  
اختفى الطائران كان أحد أتباعه قد لحق به إلى السطح، يحمل بعض  
المؤن والملابس في صرة صغيرة، فيما تناهى إلى سمعه صوت الأهالي  
الغاضب ينبى بأقتراب الخطر.

دقائق قليلة حتى انتشر الجنود كالجراد من خمس سيارات للأمن  
المركزي وسط تهليل الأهالي الذين حاصروا دار الإمام حيث تحصن  
الفواعلية... بضع طلقات في الهواء من طبنجة المأمور كانت كفيلة بإقناع



الفواعلية بالاستسلام، عبث بعدها الجنود بالدار بحثاً عن الإمام بعد أن أقيّد جميع رجاله داخل سيارات الترحيلات التي كانت بانتظارهم... بدأ البحث المحموم عن الإمام في الدور والغيطان بلا طائل... وبرغم نجاحه في الهرب إلا أن الفرحة كادت تصرع الأهالي... بعضهم حمل المأمور فوق الأكاف... بينما راح رجال سيد خطاب يهللون لجمال الذي ظهر بعد أن انتهت المواجهة تعلق وجهه ابتسامة ساحرٍ متشٍّ أنهى لتوه حيله الكبرى.

لم ير الإمام الاحتفالات برحيله، لكنه كان ينخلها في طريقه إلى المجهول في سيارة الأجرة المتهاككة التي أقلته بعيداً عن باب الحجازي... انتزعه من بقايا الأفكار المهلهلة صوت السادات الذي ارتفع من مذياع السيارة كالأسد الجريح... يبرر الاعتقالات التي طالت حلفاء الأُمس خلال الأيام الماضية من الإسلاميين والمعارضين حتى ناءت بحملهم السجون... مهاجماً تدخل الدعاة في شئون السياسة حتى طالت انتخابات اتحاد الطلبة ومجلس الشعب والقضاء والحزب الوطني واتهام الحكومة والسادات شخصياً بالإسراف... صائحاً بأن ذلك مجرد تخريف بذيء يقال للتغريب بالأولاد الغلابة الذين لازال لا يريد أن يتعرض لهم... أخذت العروق تنبض غضباً في رقبة الإمام عندما راح السادات يؤكد بين موجات التصفيق التي تقطع خطابه الطويل أمام مجلس الشعب أنه أخطأ عندما منح الجماعات الإسلامية الحرية وأخرجهم من المعتقلات التي ملأها عبد الناصر ليقع الشباب في حبائل من تجردوا من كل القيم والأخلاق... يتهمون الدولة بعدم الوفاء بوعود تطبيق الشريعة ويتهمونها بمحاربة الإسلام والتصفيق على الدعاة لتأليب الرأي العام بينما يتغنون بالمثال الإيراني الفاشل وأوجوا الجهاد ضد الدولة الكافرة والمجتمع الكافر بعدما حرموا التعامل مع القضاء والتعليم

والإعلام والالتحاق بالجيش... أخذ يتوعد هؤلاء السفلة بعدم الرحمة  
وتطهير المنابر من البذاءات التي تقال عليها... الخطاب السادات،  
الذي يتحدث كأب يعطي الإنذار الأخير، للإمام مستفزاً ومتعالياً لأبعد  
الحدود... حاول الرجل جاهداً تجاهل الجدل الذي أخذ يحتدم بين  
الركاب حوله بعدما قرأ السادات قراراته بحظر استخدام الدين أو دور  
العبادة للأغراض السياسية، ضاغطاً على حروف كلماته وهو يقول "لا  
سياسة في الدين ولا دين في السياسة"، بالإضافة إلى إلغاء تراخيص  
صحف وحل جمعيات... بعض الراكبين جادل بقوله أن الجماعات  
الإسلامية مجموعة من الجاحدين انقلبوا على اليد التي أكرمهم فتحالفوا  
على السادات مع المعارضة التي تتهجم عليه وعلى عائلته، بينما آخرون  
يروون أن السادات يخرس كل الأصوات التي تعارضه بعد أن انقلب السحر  
على الساحر، ليصبح فرعون مصر الأوحده، يدير دولة كعزبة خاصة يمنع  
ويمنع بلا سيادة للقانون... دفن الإمام وجهه بين كفيه وعاد إلى أفكاره  
التي سيطر عليها اليأس بعد أن سقط كل ما بناه بلا مقدمات.

الحلقة



## (1)

كان الشتاء يلفظ أنفاسه الباردة الأخيرة ليولد الربيع وتقوم الأرض من غفوتها الطويلة... تدخل أشعة الشمس الصفراء الدور كالعسل يصب في قدوره وتتصاعد الرطوبة التي عششت في الجدران... امتلات الدروب بالصية الذين أجلسهم لسعة البرد طوال الشتاء في الدور بجوار الأفران الدافئة... حتى حركة البهائم صارت أنشط وكفت الحمير عن بلادتها، تغريهم الخضرة اليانعة التي كست باب الحجازي إلى الحركة.

لكن الحركة الأهم في باب الحجازي لم تكن حركة الأطفال أو البهائم، بل أعمال ترميم المقام التي سارت على قدم وساق، جبت باب الحجازي أنفاسها حين انتشر الخير بأن جمال خطّاب سيعيد الباب... أعيد بناء الضريح، وأعيد ترميم إطار الباب، كما أعيد طلاء اللوحة الصدئة على مدخل القرية أخيراً لتقرأ "باب الحجازي"، وشعرت القرية أنها وضعت أيام الإمام وفواعليته وراء ظهرها.

إلى أن جاء ذلك اليوم الذي دخلت فيه سيارة جمال خطاب الفارحة إلى ساحة الباب، يتبعها سيارة نقل يركض خلفها بعض الفلاحون العاملون في عزبته... توقفت السيارتان أمام بقايا المقام المحترق وبقي جمال في السيارة برهة، تجمع خلالها الخلق حول السيارة يحاولون استراق النظر لحمولتها. لم يمض الكثير من الوقت حتى حضر الأمر مع سيارتين من الشرطة في صحبة سيارة أخرى فارحة. هبط منها محمد عفيفي، عضو مجلس الشعب عن الدائرة التي تقع في نطاقها باب الحجازي. عندها هبط جمال من سيارته، ليكتمل بهبوطه الثلاثي الذي وقف يتابع الرجال وهم ينزلون شيئاً عملاقاً مغطى جيداً من العربة النقل... لم يكن الناس بحاجة إلى الكثير من الخيال لمعرفة ما يخفي تحت الغطاء... دمت العيون، وتعالق الشهقات، بينما أخذ الأطفال يتراقصون حول الباب الذي لم يتزع عنه الغطاء بعد.

حرص جمال أن يكون الاحتفال بالمولد مبهرًا ذلك العام... لم يكتف بجلب توفيق العروسي، الذي كان بمثابة الأيقونة التقليدية للموالد، بل أحضر جميع العنشين من الموالد الكبرى، من مولد السيدة نفيسة، والسيدة زينب، والسيد البدوي تأكيداً على بدء حقبة جديدة لباب الحجازي... ملأت السرادقات الشوارع، وبالف الناس في الاحتفال... قابل ذلك نقمة بعض من تبقي طليقاً من الفواعلية على الاحتفال والمحتفلين بينما أشقاؤهم يقبعون في الحبس.

ازدانت السراي، بعد أن انتقل إليها جمال خطاب فور إنهاء أوراق شراء العزبة من الباشا، واكتست بأبهى حللها... يزحف الخلق منها كأسراب النمل محملين بما لذ وطاب من الطعام إلى الباب الذي عاد للتلالؤ بالكلوبات، يحيطه الضاربون بالدفوف في جلالهم البيضاء الفضفاضة من جميع النواحي... وبرغم ضيق الحال حملت النسوة ما

تيسر من زاد فوق رؤسهن إلى المولد، طلبًا للبركة، يتلمسن طريقهن بين باعة البخور والحلوى الذين عادوا بكثافة بعد طول هجرة... كما عادت الألعاب إلى التناثر في محيط المولد... يتسابق الأطفال للوصول إلى المراجيح، بعضهم أسعده الحظ بالحصول على قطع من الكراملة فحملها ككنز ثمين ليحتفظ بها لأطول فترة ممكنة... كان المولد كما تذكره باب الحجازي، لا يكدره سوى غياب الشيخ عبد الكريم.

بعد أن انتهى جمال من تحية المنشدين عند الباب، عاد إلى ذلك الموقع المميز الذي كان يحتفظ به أبوه لصفوة الضيوف، حيث جلس إلى جوار المأمور والأستاذ عبد الحميد يتابع الأهالي

شايف الناس فرحانين برجوعك إزاي

هكذا قال المأمور فنظر جمال في رضا ولم يعلق، فأضاف الأستاذ عبد الحميد

والله ما ناقصك غير عضوية المجلس

أنا لو اتعلمت حاجة من اللي حصل فهي إن الأحسن متقاش في وش الناس... أنا كدة ملك، خلي اللي في وشهم يتكوي بنا رهم... أنا أعمل اللي عايزه وهو يتجلد بلستهم

مين ده اللي يقدر يقربلك بعد ما رجعت الباب وخلصت البلد من الفواعلية... بس إحكي لي رجعت الباب إزاي

تبادل كل من جمال والمأمور نظرة حملت الكثير من المعاني

أبويا الله يرحمه كان متابع أخبار البلد من جناب المأمور... وكانوا دايمًا يتشاوروا بتصرفوا إزاي مع الإمام... أبويا هو اللي كان رايه يسيه يكبر زي البلونة لحد ما يكبس على نفس الناس وهم اللي

يفرقعوه... في الأول أنا كنت شايف إن مفيش فائدة وإننا نسي  
البلد، لكن أبويا الله يرحمه كان دايماً له رأي ثاني... ولما دري إن  
هباب الطين ناوي يحرق الباب عرف إن نهايته قربت... ومكنش  
ينفع يسبه يتحرق، فوصى جناب المأمور يشيله من البلد في  
الوقت المناسب... هو مكنش في نيته غير إنه يحافظ عليه... وفي  
الأواخر، الله يرحمه، تعب ومبقاش قادر يتابع... لكن لما جناب  
المأمور قالي إن الناس مستنيين الباب يرجع وإن سعيد ناوي  
يخلص علي الإمام عرفت إن ربنا بيهيألي الفرصة علشان أرجع...  
وإنه ألهم أبويا، الله يرحمه، إنه يحافظ علي الباب علشان يجبر  
بخاطره ويرجعنا حقنا من اللي ظلمنا

اتسعت عينا الأستاذ عبد الحميد فاتسعت معها ابتسامة جمال خطاب  
مش بقولك أبوك ده ولي مكشوف عنه الحجاب



## (٢)

ارتفعت الضوضاء المختلطة ببعض الزغاريد وانتشرت الفوضى في مختلف جوانب مستشفى المركز واكتظت الممرات بفائض الأعداد الغفيرة التي ملأت المستشفى عن آخرها... لم تعد الممرضات يعترضن واكتفين بتبادل النظرات المستنكرة في صمت مع دخول وفد جديد من الفلاحين إلى المستشفى الذي تحول إلى سوقة... داخل احد العنابر وضع الشيخ عبد الكريم عباءته المطوية على فخذه وافترش حصيرة الصلاة بجوار سرير سعيد الرفاعي الذي اتصل بوريده أنبوب يصب به المحلول المغذي... لا يعلم الأطباء سبب غيبوته، رجح البعض سوء التغذية مع الربو الذي تمكن منه بالنوم في العراء... لكن الشيخ عبد الكريم أخذ يبشر الجميع أن سعيد في رحلة خاصة إلى عالم آخر غير عالنا وأنه سيفيق فور استكماله لتلك الرحلة... لا يعلم أحد أين كان ولا كيف عاد الشيخ عبد الكريم... كل ما يعلمونه أنه لم يبرح كنف سعيد الرفاعي الغائب عن الوعي بعد أن عاود الظهور منذ أيام.

جلس الرجل محدثًا المريرين الذين تحلقوا حوله في حالة من الوله... تلتصع العيون بالشوق بينما انفرجت الشفاه عن ابتسامات راتقة تحمل الحنين إلى الماضي الجميل... كأنما طمأنت عودة الشيخ القلوب وألقتها الأمل في العودة إلى الحياة الطبيعية... تحدث الشيخ عبد الكريم عن فضائل الصبر على البلاء... تقطعه الزغاريد التي تجلجل من حلق الصبايا الملتحفات بالشلان الخضراء والحمراء... يأتين للمستشفى للتأكد من خبر عودته... بعضهن يقين بين المستمعين المأخوذين بحديثه الجذاب، يملأن أعينهن من هيته التي مازالت تحمل إجهاد السفر.

بعد أن انتهت الشيخ من حديث قصير، أصرت الفتيات على معرفة أين اختفى منذ رحيله

### في بلاد الله الواسعة

هكذا قال الشيخ عبد الكريم باقتضاب فطالبه الحاضرون بالحديث عن كرامات مولانا الحجازي... لم يعترض الشيخ عبد الكريم على غير عاداته كأنما كان ينتظر السؤال، قال بصوته العميق الرائق أنه حين ترتفع روح أولياء الله، لا تسقط ورقتهم من شجرة الخلاق، لتبقي الشجرة دائمة الخضرة... يخلق الولي في عالم البرزخ بين السموات العلاء... حيث الزمن اللامتناهي والفضاء اللامحدود... حيث أرواح الأنبياء والملائكة... حيث منبع المعجزات الإلهية... تسبح روحه بحمد الله وتقديسه... ويقربه من المولى عز وجل يفتح الله على روحه ببعض الكرامات... أكد الشيخ أن اليوم ليس موضع الحديث عن كرامات مضت، لم يروها ولن يعود قصها عليهم بفائدة، بل عن كرامات تحدث وستحدث تحت أعينهم.

تعالى هتاف الناس بالمدد والتكبير، بينما صمت الشيخ عبد الكريم، كأنما يستمع إلى صوت ما لا يصل غيره بينما ينظر إلى جسد سعيد

الساكن... عندما شرع في الحديث من جديد قال أن الله شديد الحب لعباده، ولذا عندما قدر المولى لهم الأرزاق، وكتب عليهم مستقبلهم، أعطاهم ما يساندتهم في اختبار الدار الدنيا، ومن ذلك الماضي وأخباره، ومن لم يتعلم من الماضي كتب عليه تكرار أخطائه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها... حدثهم الشيخ عبد الكريم أن أولى الكرامات التي وقعت تحت أبصارهم جميعاً، هي حفظ الباب بعد أن تخاذل الجميع عن حمايته... حين اختبأ الخلق في الجحور خوفاً من بطش باطش، كان المولى يدبر الأسباب للحفاظ على الباب... والكرامة الأخرى هي عودة الباب من جديد إلى مكانه الأول، بعد أن فقد الأمل في عودته... أشار الشيخ أن العظة وراء الكرامة أهم من الكرامة ذاتها، وإن لم يتب الخلق للحكمة من ورائها فقد خسروا خسراناً ميبئاً.

عندما صمت تسأل الجمع عن الكرامات الأخرى التي أخبرهم بأن الله سيجريها على روح مولانا الحجازي، قال الشيخ عبد الكريم بعد أن عدل من وضع نظارته السمكة فوق أرنبة أنفه أن مصير القرية هو مصير أهلها... ومصير أهلها هو مصير الباب... قال أن المولى سبحانه وتعالى سيفتح على قلوب أهل القرية، بنور من لدنه... يجريه على يد عبد ضعيف من عباده... ينير لهم أبصارهم وبصيرتهم، لينجو الباب ممن يترصد له بالخراب، ممن عمى عينه الطمع والحقد... وممن يريد استغلاله... ممن يتمسح به وبحمايته بينما قلبه بعيد عنه... وتنجو معه القرية... أخبرهم أن ذلك النور سيقى القلوب والأرواح من رحيق العزة... ولن يدع فيها موضعاً للمذلة والخضوع... أفاقت تلك الكلمات البسيطة الأمل في النفوس وأنعشته... جعلت القلوب تتز بالإيمان برحمة الله وبالأمل في غد أفضل... فاضت عيون البعض ومسحت الدموع في أكمام وذبول الجلايب النظيفة بينما طفق البعض يردد

- مدد يا سيدي يا حجازي مدد... الله على كرمك يا رب

### (٣)

مرت الأيام وانتهت الاحتفالات برجوع الباب... وسرعان ما ذهبت  
سكرة الفرحه مع تبخر الأمل في معجزة تُحسِّن الأحوال كتلك التي عادت  
بالباب... اكتشف الناس أن دورهم لا تزال فارغة وهمومهم اليومية لم  
تنته... والأسوأ كان عودة استغلال رجال سيد خطاب القدامى لتلك  
الأحوال في التكيل بمن ساهم في سقوطهم، أو حتى شمت فيهم يوماً...  
عادوا للتحكم في أرزاق العباد حتى عاد الأنين القديم إلى باب الحجازي  
يزحف تحت التراب... ذلك الأنين المألوف الذي طالما تعايشت معه  
البلدة ولا يزال يطاردها كاللعنة، وماتت بعودته الأحلام بتحسّن الأحوال  
بعودة جمال خطاب.

بينما كان رجال أبيه مشغولين في استعادة تركتهم القديمة وتعزيز  
أركان مكائهم الجديدة، كان جمال مشغولاً في بناء ما يشبه المقام  
لوالده... في البداية كان المشروع لتزيين واجهة تربة أبيه، بعض الطلاب

تلاه بعض الزخارف الإسلامية والآيات القرآنية... ثم أزال المقابر المجاورة، متجاهلاً استياء العائلات التي اضطرت لنقل رفاة ذويها منذ حدود الجدد، وأقام حول تربة أبيه سورًا أبيض، زرع المسافة بينه وبين المقبرة بورود جلبها خصيصًا من القاهرة، وعين خفيًا خاصًا للعناية بها.

مع مرور الوقت صار اهتمام جمال بضريح أبيه يناهز اهتمامه بضريح الحجازي... وعندما حلت ذكرى وفاة أبيه الأولى أحضر مشاهير المقرئين إلى باب الحجازي... تلك الأسماء التي طالما سمع عنها الأهالي في الراديو والإذاعة من أهل البركة والصوت الملائكي... أقيم العزاء في الضريح نفسه الذي اتسع لستوعب الزوار الذين سقوا الزرع وبالغوا في إظهار الحزن لفراق العبد الصالح سيد خطاب، كما وصفه الأستاذ عبد الحميد علام.

بعد انتهاء سنوية سيد خطاب بأيام، وفي سراي جمال خطاب... وقف المحمدي بعيدًا عن السجاد الباهظ كي لا يلوّثه بنعله القدر، بينما جلس جمال يتناول غداءه مع المأمور... كان المحمدي كسائر المتولين بارع في التقاط ما يعينه على قضاء حوائجه، لذا فقد بدأ حديثه بإخبار جمال أنه أتى للتو من مقبرة أبيه بعد أن قرأ له الفاتحة وترحم عليه.

والله سيدنا الحاج سيد ده كله بركة، كل ما أروح أزور قبره ويكون لي حاجة ربنا يقضيها لي على طول... ده ولي من أولياء الله الصالحين

ابتسم جمال في رضا وأشار له بالاقتراب، بينما لم تنتقل ابتسامة جمال إلى المأمور، الذي ظل وجهه حجريًا وترك الأكل كأنما توعدت معدته لرؤية وجه المحمدي وسماع تزلفه المفضوح

- والله يا جمال باشا أنا مكسوف منك... بس..

## قاطعه المأمور بصوته الأجلش

أنت مش أخذت اللي اتفقنا عليه وأكثر كمان... عايز إيه تاني... ما  
انت لو تبطل شرب حشيش يا بهيم كان زمانك بني آدم... والله لو  
شوفت وش أمك تاني لأكون راميك في الحجز يا ابن المرة

ارتعشت فرائص المحمدي، فحاول جمال تدارك الموقف

معلش يا جناب المأمور، المحمدي راجلنا ويستاهل

أخرج جمال من جيب جلبابه البولين الإفرنجي مبلغاً من المال ناوله  
له فدهسه الرجل في جيبه بينما قال المأمور بسخرية

جمال بيه رايح يزور سعيد النهاردة... مش حتروح معاه

انت بتضحك يا جناب المأمور... أنا مبقتش عارف أمشي في  
البلد... الناس عايزة تاكلني بناتها علشان اللي جرى لسعيد  
من تحت راسي... يعلم رينا أنا ما يعرف أنام الليل من عذا  
الضمير... مش قادر أطلع منظره من نافوخي وهو غرقان في  
دعه على الأرض والفواعلية الله لا يرجع أيامهم نزلين تقطيع في  
جته... الأنكى إن الناس فاكريني منهم

لو انت من الفواعلية كان زمانك مرمي في الزنزانة دلوقتي محدش  
يعرفلك طريق جرة... أكثر حاجة تقدر تعتمد عليها في بلدنا إن  
الناس بتنسئ، وبكره مش حيعود فيه حد فاكر انت عملت إيه ولا  
معملتش إيه... لكن أنا ما انساش اللي خلمتني، خصوصاً خدمة  
كبيرة زي اللي انت عملتها، وزى ما انت شايف العزبة محتاجة  
رجالة كثيرة تشتغل فيها

هكذا قال جمال فكاد المحمدي يجثو على ركبتيه من فرط الفرح

ليقبل قدمه واتسعت ابتسامته حتى بدت أسنانه التي أهلكتها الحشيش...  
أشار جمال لخادم كان واقفاً بجوار بيانو الباشا الإيطالي القديم الذي  
أصبح يستخدم كمنضدة

خد المحمدي لناظر العزبة يشوفله شغلانة... ووصيه عليه

قاد الخادم المحمدي إلى حديقة السراي، حيث كان الأستاذ عبد  
الحميد غلام جالساً تحت ظل شجرة وارقة مع بعض الفلاحين المتشربين  
حولهُ على الأرض، يستمعون إلى إحدى محاضراته التي لا تقهرها قوى  
الأرض والسماء.

جمال به يقول تشوف للمحمدي شغلانة ويوصيك عليه يا  
حضرة الناظر

هكذا قال الخادم بصوته الرتيب، فنظر الأستاذ عبد الحميد إلى  
المحمدي باشمزاز لم يحاول أن يخفيه... كانت عاداته توزيع العمل في  
العزبة على المخلصين ممن ساهموا في الخلاص من الإمام، وبرغم دور  
المحمدي، الذي يعتبره جمال خطاب محورياً، إلا أن الأستاذ عبد الحميد  
لم يكن يرى المحمدي من المخلصين... فمن باع مرة يبيع ألف مرة.

بعد صلاة العصر من ذلك اليوم، وصل جمال إلى المستشفى العام في  
المركز... كان الشيخ عبد الكريم مستلقياً على جانبه في قيلولة العصرية  
فوق حصيرة على الأرض بجوار سعيد، وقد انفض الزحام وعاد بعض  
النظام إلى المستشفى... حاول جمال إقناع أم سعيد أن يدفع تكاليف  
العلاج أو أن ينقله إلى مستشفى أخرى نظيفة لكنها رفضت ذلك بإصرار.

عندما خرج جمال من الغرفة استوقفه في رواق المستشفى رجل هرم  
له وجه امتحنته نوائب الدهر، أدرك جمال على الفور أنه أحد الفلاحين  
الأتين لزيارة سعيد

والله البلد نوروت برجوعك يا ابني

الله يخليك يا جد

كاد جمال أن ينصرف لكن الرجل أمسك بذراعه

هو...

خير يا جد

أبوك ألف رحمة ونور تنزل عليه كان راجل بتاع خير، والله بروح  
أقراله الفاتحة كل أسبوع... الله يرحمه كان فاتح بيوت ناس كثير  
يفعل الخير... أقصد يعني... انت تقدر... انت عارف الحال  
صعب والدينا مبترحمش... ميغركش السن، أنا صحتي بألف  
عيل عنده عشرين سنة وأقدر على فعل الخير... وإحنا مش طالبين  
حسنة...

ربت جمال على كف الرجل بحنو بالغ بعد أن فهم مراده

متقلقش... كل حاجة راجعة زي الأول بالضبط... وأحسن  
كمان... باب فعل الخير اللي كان فاتحه أبويا حير جمع ثاني...  
وكله بالمشية

تهللت أسارير الكهل ودخل على أم سعيد بعد أن ودع جمال بحرارة،  
يشرها أن الدنيا لازالت بخير.



## (٤)

وقع عدة أقدام تقترب... تركض مبتعدة ثم تعود... أحاديث متداخلة... ترتفع ثم تعود لتصمت... كأنما يأتيه الصوت من داخل بئر عميق... الرؤيا ضبابية وعضلاته تخلله عندما يحاول تحريك أطرافه وألم عنيف يجتاح صدره مع كل نفس يأخذه... عندما فتح عينيه من جديد لم يميز الوجوه التي تنظر إليه... كان في مكان غريب لم يميزه... بجواره منضدة تبعثت عليها علب دواء فارغة... في الجهة الأخرى قائم طلي باللون الأبيض في محاولة فشلت لإخفاء الصدا، علق عليه محلول أدرك أنه يصب في وريده... يسمع اسمه... سعيد... شعر بارتياح تحول إلى رعب حتى نبين وجهًا اشتاق لرؤياه... وجه أمه... حاول أن يعتدل لكنه عجز عن ذلك مع تصاعد الألم في جسده فحل عليه كآخر ذكرئ له قبل أن يغمض عينه... عندما بدأ يتبين الكلام حوله كان أول ما سمعه هو

الله أكبر... الله أكبر... مدد يا سيدي الحجازي مدد... والله دي  
بركتك يا مولانا

ميز صوت أمه بصعوبة... عندما اعتدل أخيراً بمساعدتها، وجد الشيخ عبد الكريم أمامه، يرتدي الطاقة البفطة البيضاء، يتسم له ويتمم بالذكر بينما يمسح على جبهته.

توافد الكثير من أهل القرية فور انتشار الخبر حتى ضاقت بهم الغرفة، واضطرت التمرجيات متعكرات المزاج للشجار مع الكثير منهم، في محاولة يائسة لإخراجهم من الجناح... استمع سعيد إلى السرد الجماعي لما حدث في البلدة منذ غيابه عنها... عودة الباب وهروب الإمام وانكماش الفواعلية وجمال خطاب الذي أصبح مالك العزبة الجديد... بدت له تلك الحكاوي ضرباً من الخيال... كما أخبرته أمه فيما يشبه الاعتذار أن أخاه مصطفى كان يأتي لزيارته منذ أن علم بما أصابه كلما سمح له وقت العمل، فقد عاد إلى عمله القديم في المدابغ... أخبرته أنه يبعث لهم بما يكفي احتياجات الدار، وراحت تؤكد أنه سيطير فرحاً عندما يعلم بإفقاته... ابتسم سعيد ابتسامه هزيلة... لا يدري لم تذكر حكاية مصطفى عن أصل الحجازي... بدت له تلك الحكاية كذكرى بعيدة لكنه أدرك أن الحكايات عديدة وبعضها بلا أصل... الأهم هو ما يصدق القلب... وقلبه يحدثه أن مصطفى سيأتي ليزوره قريباً... وربما يعود إلى قرية أبيه ذات يوم... وحينها ستجمعهما جلسات السماع.

في المساء حينما اختلى سعيد بالشيخ عبد الكريم، أراد أن يعيد إليه الخرقة الصوفية... برغم إضاءة الغرفة المحضرة، إلا أن سعيد ميز ابتسامة الشيخ التي اتسعت عندما رأى الخرقة وعينه التي التمعت بالدمع... كصديق اشتاق إلى خليله... لكنه لم يأخذها واكتفى بالشد على يديه

سيها لصاحبها

افترش الشيخ الحصيرة على مهل بجوار فراشه استعداداً لجلسة الذكر

بينما لم يبد على سعيد أنه فهم فعاود السؤال عما يقصد... راح الشيخ  
يشكو من آلام مفاصله ثم أضاف بابتسامة صافية

حكمة المولى إن الحديث لا بد يولد من رحم القديم... الزمان  
مبقاش زمانى أنا واللى زبى

عندها قال سعيد بحروفه الثقيلة أن الماضي لا يلد سوى الماضي  
والزمان لم يعد زمان أحد... فصمت الشيخ برهة

الماضي غروره مصيره يقتله... والمولى خلق الدنيا في سبع  
أيام... الحق والباطل يا ابن الأكابر في صراع لحد ما تستوفى  
الحكمة... والجولة النهائية محسومة... بس الصبر... ويقين  
المؤمن باقى مهما طال الزمن... بس فىن البصيرة

هكذا ردد الشيخ عبد الكريم كأنما يحلم قبل أن يطأطأ رأسه وينخفض  
صوته ليصبح همساً مع انغماسه في جلسة الذكر الخاصة به تاركاً سعيد  
يطالع الفراغ بعد كلماته المبهمة... يخارمه السؤال إن كان سيجرؤ على  
الحلم من جديد أم أنه اكتفى بما أصابه.

خرج سعيد من المستشفى بعد عدة أيام في موكب من أهل القرية  
أحاطوه من باب المستشفى حتى وصل إلى عتبه داره

حمد الله على سلامتكم... نورت دارك يا ضاني

ابتسم سعيد في ضعف بينما أمه تضع الوسادة وراء ظهره

البلد كلها مستنيك يا ابن الأكابر... شد حيلك

هكذا قال الشيخ عبد الكريم وهو يمسح على جبهة سعيد الذي بادله  
الابتسام قبل أن يغادره الشيخ ليعود لأول مرة إلى الباب... لم تخل الدار  
تلك الليلة من الزوار والمهتين... ومع رحيلهم بحلول الليل وبعد أن

أطفئت الأنوار وهجعت القرية، تسلل سعيد خارجًا من الدار نحو  
الغيطان... قطع طريقه في ظلام الليل نحو الجهة الشرقية من البلدة حتى  
وصل المقابر... حيث يرقد أبوه وأخته متجاورين... حيث ظل يفترش  
الأرض هو الآخر في صمت يقطعه نحيبه حتى الفجر.

صباح اليوم التالي تراصت أواني فخارية كبيرة في صحن دار  
علي الرفاعي، بات فيها اللبن أيام حتى تراكمت فوق سطحه القشدة  
المختومة... نزعها أم سعيد ووضعتها في برام فخاري خاص بها،  
استعدادًا لبده الخبيز... تراجمت النسوة المشاركات في الاحتفال بعودة  
سعيد إلى الدار... تضج الجلسة بضحكات الصبايا والنميمة التي لا  
تتتهي... لأول مرة تزور الضحكة شفتا أم سعيد على استحياء منذ فترة  
طويلة، لا تذكر مداها.

### صلاة النبي من العين

هكذا قالت فاطمة وهي تدخل الدار برجلها اليمنى وتخلع طرحتها  
وتزيح بعض النسوة لتتقرب من الفرن

والله سعيد ده قرفته حلوة... شايفين الخبيز الله ينور

عايزين نجوزه بقى

هكذا قالت إحدى النسوة فسارعت فاطمة بالقول

أنا أطلق المنيل رمضان وأتجوزه... بس هو يوافق... يا سعدها يا  
هناها اللي حيتجوزها ابن الأكاير... مسمعتيش انتي يا أم سعيد  
الشيخ عبد الكريم... مش بينادي سعيد إلا أما يقوله ابن الأكاير...  
والله انا من فرحتي مش عارفة اعمل إيه

## قومي اتحزمي يابت يا فاطنة

هكذا تصايحت النسوة فأشاحت أم سعيد بوجهها إلى الفرن واخفت سريعًا دمعة سالت علي وجتها عندما تذكرت زينب، لكنها لم تمنع... ولم تكن فاطنة في حاجة إلى الكثير من الإقناع... جلس أخوة سعيد الصغار بجوار جمع من الأطفال يشاهدون فاطنة التي قامت تهز أردافها، تتعمد أن تعبث بخيال الأطفال الذين لم يرفعوا أعينهم من عليها، بينما النسوة والصبايا ممن لم تشغل أيديهن بالخيز يصفقون لها.

بحلول المساء وزعت القرص والمخبوزات على الدور، وجلس الرجال يأكلون منها على المساطب... برغم أن ربوع المحروسة في ذلك اليوم لم يكن لها حديث سوى عن خبر واحد... إلا أن مقتل السادات على أيدي المتطرفين لم يكن محور حديث مساطب باب الحجازي تلك الليلة... كان حديث المساطب عن حكاوي أهلها... وتلك الحكاوي هي المكان الوحيد الذي يحفظ فيه الأهالي تاريخهم.

تراص الرجال والنساء على مسطبة السناري تلك الليلة، وتعددت الحكايات عن سعيد الرفاعي، وكالعادة، كانت الجلسة لا تكتمل بدون وجود كامل المجذوب، وهو في هذه الحكاية بالذات ليس راويًا فقط، بل هو أحد صانعي أحداثها، جلس كامل على الأرض بجوار كلبته ليقص على المستمعين بلثغته المحببة الحكاية منذ بدايتها، أو ما يعتقد الجميع أنه البداية، منذ أن ضرب سعيد الإمام في عرض الشارع وأبقاه في داره ليداري وجهه المحطم... يقلد لهم الإمام وهو يصرخ كالنساء بينما سعيد يصفعه على قفاه... يحكي لهم كيف كان سعيد يقضي أيامه في العراء، كيف سرق له بنفسه الورق الذي خط عليه رسومات الباب من دكان الإمام... ذلك الورق الذي لم يعد سجين الشقوق وأصبح مصدر فخر ودليل على الشجاعة لكل دار تمتلك إحدى نسخه... ثم

ينتقل الحديث إلى أبطال الحكاية ممن نالوا شرف استضافة سعيد خلال تلك الأيام القلائل التي سبقت القبض عليه... يضيف كل متحدث بعض التفاصيل التي عايشها، أو التي سمع بها، أو التي انتهت للتو من تأليفها من نسج خياله كي لا يُخلف بلا إضافة للحديث الدائر... يصفون سعيد بصفات عظيمة، يمدحون حيائه وشجاعته، البعض يتكلم عن حكمته التي أسيء فهمها من قبل حينما كان يعتقد أنه ممسوس... تليها وصلة من السباب للمحمدي الخائن وينتهي الحديث بالدعاء لسعيد باكمال شفائه على خير.

ظلت الحكاوي تنمو... يتأقل تفاصيلها الرجال، ويستمتع بسماعها الصغار عند أرجلهم... وهكذا تعيش تلك الحكاوي في ضمير البلدة تحديئاً النسيان... يكبر الطفل منذ نعومة أظافره يطلع أباه جالساً في ليالي السمر على المسطبة مع خلانه يقص حكاوي القرية، الجديدة منها والقديمة... يستمع إليها الطفل في انبهار ويراقب الحديث المترسل الذي قد تتخلله كركرة الجوزة... ثم يكبر فيحتل مكانه في المسطبة حينما يصبح في مصاف الرجال ليشاركهم حديثهم... وبمرور الزمن يهرم هو بدوره ليفاجأ بأولاده أصبحوا رجالاً يجالسونه على المسطبة... يتساءل أين ذهب العمر وفيما مضى، فلا يجد مجيباً سوى المسطبة التي بقيت شاهدة على كل تاريخه تحمل في جعبة حكاويها كل ذكرياته.

يتشعب الحديث أحياناً لينبش في دروب الذكريات القديمة، فيستعيد الرجال ذكرى علي الرفاعي... ذلك الرجل الذي أحبوه بصدق، كم كان سيفتخر اليوم بولده سعيد الذي قهر الإمام... وبرغم أن الحديث عنه يقترن بالسباب خاصة بعد انتشار شائعات تتهمه أنه المتسبب في الحريق الذي كاد أن يهلك البلدة... إلا أن التساؤل كثيراً ما يظهر عن مكان إختفاء الإمام، بعد أن هرب قبل أن يفتكوا به... يقول البعض أنه ذهب

بلا رجعة... بينما البعض الآخر يرجح أنه استقر بالقاهرة حيث اختفى في الزحام هناك، وأنه سيعود يوماً ليستقم.

بحلول صلاة الجمعة، خرجت باب الحجازي نحو الجامع الكبير... يتمم الرجال بالتساييح في جنبات الجامع... يسترجع البعض أقوال الدروايش، الذين عاد بعضهم إلى الباب، أن العالم السفلي يخضع لعالمنا بذكر الله ونور نبيه الحبيب محمد... وكلا العالمين يخضعان لعالم السموات حيث نور الله المطلق، جل جلاله... إلا أنهم الآن يتعوذون في دعائهم من عالم البشر أكثر من تعوذهم من العالم السفلي... تلك التجربة المريرة التي مرت بها باب الحجازي جعلتهم يوقنون بصدق مقولة "ما شيطان إلا إنسي"

اصطف سعيد في مكانه بمؤخرة الجامع حيث الحصر المتهالك برغم احتجاجات الأهالي، في حين ارتقى المنبر الخطيب الأزهري الذي عاد منذ رحيل الإمام... طالع سعيد الشيخ الذي راح يخطب في رتبة من امتهن الخطابة كأنما ينظر إلى الفراغ... كان الشيخ يخطب عن خطورة التطرف الديني، وعن الشوائب الفكرية التي ابتليت بها الأمة ونتجت عنها موجة الإرهاب التي كان ضحيتها السادات والتي كان لباب الحجازي منها نصيب حتى أراد الله أن يرفع عنا البلاء ويبدلنا خيراً... وختم الرجل خطبته بالتذكير بوجوب طاعة أولي الأمر... كانت تلك من المرات القلائل التي لم يتبه فيها سعيد لأي كلمة في خطبة الجمعة... حتى أنه لم يعرف موضوعها... نهض أوتوماتيكياً عندما قام الناس... كان حاضراً بجسده فقط بينما عقله يحلق في مكان آخر... حيث يخلق به واقعاً جديداً لم تكتمل تفاصيله بعد... يكسوه بألوان زاهية... عالمه الخاص... حيث قدر للماضي العطن أن يتدحر في مملكة الأحلام.

بجوار جذع الشجرة المقطوع كان كامل المجذوب يستظل باللوحة التي بدأ الصدا العنيد في غزو جنباتها من جديد لسوء الطلاء، يطالع بتصف انتباه الأهالي الذين التفوا حول جمال خطاب فور خروجه من الجامع بينما يرمي كسر الخبز لكلبته التي أرهقها الحر... استقر سعيد بجواره... وأخذ يتابعان سوياً جمال خطاب الذي شد على يد الشيخ الأزهري في ود ثم سارا سوياً باتجاه العزبة حيث يُعد الغداء، بينما صاح بعض المارة بتحية سعيد الذي اكتفى بالتلويح لهم... كمطرب أخرس يحاول إسماع قرية أدمت الصمم.



لا يوجد متبدون إذا لم يوجد صيد.

خوسيه ريزال

قد لا يدرك المرء ما الذي فعله ليستحق وجود هذا الكم من الأشخاص  
الرائعين في حياته... ولخلق ذلك التوازن عصي المنال بين السيدات  
والسادة... ها أنا أفرد هذه المساحة "الصغيرة" للسادة بعد أن كان الإهداء  
للبيات:

إلى أستاذي ووالدي، محمد عبداللطيف البنا، أستاذ اللغة العربية  
الذي حببها إليّ منذ نعومة أظفاري... وإلى معلمي، الأستاذ سعيد البنا، يا  
من جعل للأدب وللقرأة تلك النكهة المحببة... شكرًا لكما

إلى الصديقين، الأستاذ أحمد عبد المجيد والأستاذ هاني عبد الله،  
شكرًا لتحويل الحلم إلى حقيقة، شكرًا على الكلمات الرقيقة ودمائة  
الخلق.

شكر ذو نكهة خاصة إلى الشلة إياها... تعلمون أنفسكم وتعلمون ما  
أود قوله، وهو لا يصلح للطباعة بأية حال :-)

لأن الخيوط الخفية هي أقوى العلاقات

[facebook.com/EslamElbanaAuthor](https://www.facebook.com/EslamElbanaAuthor)

[eslam.elbana@gmail.com](mailto:eslam.elbana@gmail.com)

[twitter@ElbanaEslam](https://twitter.com/ElbanaEslam)

**"Invisible threads are the strongest ties."**

**— Friedrich Nietzsche**

# باب الحجازي

## إسلام البنّا

يُقال إنه باب الكعبة الأصلي.. يُقال إنه باب يقود إلى عوالم سفلية.. يُقال إنه من مخلفات الفراعنة التي لاتزال تحمل سحرهم..

صدّق ما شئت.. لكن ما لا خلاف عليه بين أهل القرية أن باب مقام مولانا الحجازي هو بركة القرية وما حولها.. تلك البركة التي تلصّف بها سيّد خطّاب ليحكم قبضته على الجميع لعقود طويلة..

إنه العام ١٩٧٧.. معترك الرؤى والأفكار والسلطة.. حين يتعد سعيد الرفاعي عن صوفية بلده ويسعى لتغيير وجهها.. تنازع قبضة جديدة تلك العتيقة التي ألفها الناس في صراع لن يحسم سوى على عتبة الباب.. باب الحجازي.



إسلام البنّا، كاتب مصري من مواليد ١٩٨٣، تخرّج عام ٢٠٠٦ في كلية الصيدلة جامعة القاهرة.. وتعتبر باب الحجازي أولى أعماله الروائية.

EL Shorouk الشروق



9789775153586

باب الحجازي

L.E 35.00



للشروق والتوزيع